الحجاز في استراتيجية الدعاية السوفيتية

١٩٢٤- ١٩٣٨

جمال محمود حجر

الطبعة الأولى
1
1440 هـ / 2019 م

اسم الكتاب : الحجاز فى استراتيجية الدعاية السوفيتية

اسم المؤلف : جمال محمود حجر

موضوع الكتاب : تاريخ

مقاس الكتاب : ١٧ x ٢٤ سم

الترقيم الدولي :

تصميم الغلاف : أحمد الخولي

الإخراج الفني : صفحات لخدمات دور النشر





التوزيع والنشر
6/11 شارع وحيد أفندي - حي توفيق بيك - كوجوك
جكمجة - اسطنبول - تركيا - ت: 00905454886870
هاتف: 00201555566139 - 00201027013326
E-mail: info@arabhistorypublishing.com
Websit: www.arabhistorypublishing.com

الإهداء

إهداء الى ذكرى أبى . . .

مقدمة

كان الإتحاد السوفيتي أول دولة شيوعية في التاريخ من مواليد القرن العشرين (١٩٢٤)، ولم يقدر له أن يعيش حتى يكتمل القرن (١٩٩٠)، فأصبح ظهوره واختفاؤه ملمحين من ملامح نهاية الألفية الثانية. ومنذ مولده وحتى وأده وهو يصارع النظم الرأسمالية الغربية على مدار خمس وستين سنة، عمل خلالها على مطاردة النفوذ الرأسمالي في كل مكان يستطيع أن يصل إليه بالفكر الاشتراكي، وخاصة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، والعالم الإسلامي يشكل كيانًا عظيمًا داخل مساحة القارتين الآسيوية والإفريقية. ولذا كان من بين أهداف الإتحاد السوفيتي أن يصل إلى بلاد الإسلام، لأنها تشكل في الواقع مساحة جغرافية مجاورة لأراضيه، ويخضع معظمها للاستعمار الغربي الرأسمالي الذي تدور في فلكه، مما يجعلها عنصرًا ضاغطًا على المد الثوري الاشتراكي، الذي كان يتبناه

. لذلك وضع الإتحاد السوفيتي إستراتيجية تقوم على الدعاية المضادة للغرب في داخل العالم الإسلامي، تعتمد على الفكر أكثر مما تعتمد على الفعل، وعلى توظيف الجغرافيا الثقافية للحجاز، وعلى الشخصية الثقافية لمكة، إستراتيجية تعتمد على لقاء الحجاج السوفيت بباقي الحجيج في الأراضي المقدسة بالحجاز، التي صارت في قبضة عبد العزيز آل سعود منذ عام ١٩٢٤، فقد بنيت الاستراتيجية السوفيتية على المواجهة الفكرية، فمع لقاء البشر أيا كانت أصولهم العرقية أو الجغرافية أو الثقافية في مكة، تتلاقى الأفكار وتتلاقح، وتبدأ في إفرازالنتيجة المرجوة للسوفيت بجهد المسلمين، دون تدخل مباشر من الدولة الشيوعية.

بدأت رحلتي مع فكرة هذا الكتاب في عام ١٩٧٧. حين كنت أتردد على دار السجلات البريطانية (P. R. O.) وخلال خمس سنوات قضيتها بين أروقة الدار في زيارات متعاقبة، تعرفت على كثير من محفوظاتها، وتبلورت في رأسي تلك "الفكرة الكبرى" التي تهدف إلى دراسة علاقات شبه الجزيرة العربية بالعالم الخارجي. وهي فكرة ما كان لها أن تتحقق بالطبع دفعة واحدة. ولذا كان تقسيمها على مراحل وتجزئتها إلى وحدات أمرًا تفرضه الضرورات الموضوعية والمنهجية.

ومن حسن الطالع أنني كنت قد أنجزت الوحدة الأولى من هذه "الفكرة الكبرى" في مرحلة الماجستير، حين أتممت عام ١٩٧٥ موضوع "علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بمنطقة الخليج العربي في فترة ما بين الحربين العالميتين". ثم أنجزت الوحدة الثانية منها في مرحلة الدكتوراه عام ١٩٨١حين درست "دور بريطانيا في تكوين المملكة العربية السعودية"، وهو دور تبلور أساسًا في تشكيل حدودها الشمالية مع مناطق الانتداب البريطاني في كل من العراق وشرق الأردن.

وفي دار السجلات البريطانية، وبمرور الوقت، وجدت أن بالإمكان دراسة علاقات بعض القوى الكبرى الأخرى (مثل الاتحاد السوفيتي وفرنسا والدولة العثمانية) بشبه الجزيرة العربية، وهنا طفت فكرة هذا الكتاب على السطح لتكمل منظومة علاقات الدول الكبرى الثلاث (بريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفييتي) بشبه الجزيرة العربية. فرحت أجمع مادة هذا الكتاب المبعثرة بين ثنايا عشرات الملفات الوثائقية. وهي مهمة شاقة، وبإنجازه وجدت نفسي قد دُرت في أبحاثي حول شبه الجزيرة العربية عكس عقارب الساعة، بادئًا بالخليج والولايات المتحدة، فشمال شبه الجزيرة العربية وبريطانيا، ثم الحجازوالاتحاد السوفيتي، وفي الأعمال الثلاثة وبحكم الضرورات التاريخية، كانت بريطانيا طرفا مباشرا نظرا لعلاقاتها التاريخية بالمنطقة.

ولعل فترة ما بين الحربين العالميتين كانت وما زالت تشدني إليها بقوة، فهي فترة قلقة، حافلة بتغيرات كثيرة، وهذا مما يزيد من خصوبتها وغنى أحداثها، سواء أكان ذلك على المستوى الإقليمي في منطقة الشرق الأوسط

، أم على المســتوى العـالمي. وإذا كانت التغيرات الإقليمية تجذب اهتمام القوى الكبرى إلى المنطقة، فإن التغيرات العالمية تؤدي إلى صراع تلك القوى حولها. وما أشبه الليلة بالبارحة بعد مرور قرن من الزمان.

ومن بين التغيرات الإقليمية: انقلاب موازين القوى في شبه الجزيرة العربية لصالح عبد العزيز آل سعود، على حساب القوى المحلية الأخرى، وهو تطور جَذَب إليه أنظار الدول الكبرى، فسعى إليه البريطانيون والسوفيت على ما بينهما من منافسات اقتصادية وسياسية وتناقضات أيديولوجية، بهذه الخلفية حاول كل منهما الاستئثار بالنفوذ في الجزيرة العربية دون الآخر، ويسجل هذا الكتاب إحدى حلقات هذا التنافس حول الحجاز والبحر الأحمر، وهو التنافس الذي جرت وقائعه في فترة ما بين الحربين العالميتين.

ومن بين التغيرات العالمية التي جرت في تلك الفترة: قيام الاتحاد السوفيتي كأول دولة شيوعية جعلت من بين أهدافها تدمير الرأسمالية العالمية، التي تتزعمها بريطانيا، مما دفع الأخيرة إلى التصدي للخطر السوفيتي الناشئ، أيديولوجيًا وسياسيًا، خاصة وأن العالم الإسلامي كان وقتئذ ميدانًا لصراع الدولتين. ولم يسلم الحجاز، وهو عقر ديار الإسلام، من هذا الصراع الأيديولوجي والسياسي.

وإذا ربطنا بين المتغيرين السابقين (الإقليمي والدولي) من خلال متغير ثالث يتصل بتفرد بريطانيا بالنفوذ في شبه الجزيرة العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، لوجدنا أن الاتحاد السوفيتي حاول إنهاء تلك الحالة (حالة التفرد البريطاني). ولوجدنا أن الملك عبد العزيز آل سعود حاول استثمار هذا الموقف التنافسي لصلاح بلاده، ومع أنه كان على علاقة "حتمية" مع بريطانيا، فإنه لم يتردد في إقامة علاقات "اختيارية" مع الاتحاد السوفيتي، وبالطبع فقد غذى ذلك من روح التنافس بين القوتين الكبريين، ونسج خيوطًا جديدة في رقعة النفوذ البريطاني في الشرق.

وقد نتج عن التفاعل بين هذه المحاور الثلاثة علاقات غير منسجمة في معظم الأحيان، فالعلاقات البريطانية - السوفيتية كانت بطبيعتها علاقات "تصادم أيديولوجي" بين الرأسمالية والشيوعية، وكذا الحال إذا نظرنا إلى العلاقات السعودية - السوفيتية، فالإسلام والشيوعية لا يستقيمان معًا، أما العلاقات البريطانية - السعودية، فقد كانت أحسن حالاً، ولكنها كانت تفتقر إلى عناصر الاستقرار بسبب عوامل التغير المستمر في شبه الجزيرة العربية وفي العالم الإسلامي على اتساعه في هذه المرحلة.

هذه الدراسة، إذن، ليست دراسة إقليمية ضيقة، بل هي محاولة لرصد الإستراتيجية السوفيتية في العالم الإسلامي، وهي تتجاوز "المفهوم المكاني" للحجاز كإقليم جغرافي إليه "كمفهوم ديني". يستقطب أفئدة المسلمين المعنيين بكافة شئونه. وهي رحلة طويلة بين موسكو ولندن وجدة، في اتجاهات مختلفة عبر تركيا ومصر واليمن وفلسطين وإريتريا وإيران وأفغانستان والهند وأندونسيا.

وهي كذلك رحلة مع الفكروالسياسة والدبلوماسية والاستراتيجية والاقتصاد. لقد كان الصراع جديدًا في فكره وفي ممارسته، وحتى في الأطراف القائمة عليه، ولذلك فهو صراع غيرمسبوق، طور السوفيت خلاله أساليبهم، وفتحوا الباب لحوارات طويلة بين جدة والقاهرة ولندن حول طبيعة النشاط السوفيتي،

وكانت كل من إيران وأفغانستان وتركيا (بصفتها جميعا دولاً إسلامية مجاورة لروسيا الثورة) ميدانًا حيويًا للانطلاق الروسي إلى الخليج العربي والمحيط الهندي والبحرين المتوسط والأحمر. وما لبثت الحقيقة أن تكشفت حين انقلب كمال أتاتورك على العناصر الشيوعية في بلاده. أما إيران وأفغانستان فكانتا تقعان في المجال المباشر للاهتمامات الثورية الروسية، ولذلك حرصت على تدعيم علاقتها بهما. ولكن طموحات الروس السياسية لم تتحقق في أي من هذه البلدان الثلاثة بسبب الحاجز الإسلامي الذي يقف سدًا منيعًا ضد الشيوعية،

وبسبب الحاجز القومي؛ الذي ظهر وتبلور قبل الثورة البلشفية. كان هدف الروس المباشر إقامة مجموعة من الدول الحاجزة بينهم وبين الحضور البريطاني في آسيا في محاولة للتصدي للهيمنة البريطانية، ورفع الحصار المفروض على روسيا من جانب الدول الغربية؛ ولم يكن هدف روسيا نشر الفكر الشيوعي في هذه المرحلة المبكرة من الثورة خارج الأراضي الروسية.

وعلى غير إيران وأفغانستان وتركيا والهند، كانت هناك مناطق آسيوية إسلامية لم تتبلور أفكارها القومية قبل الثورة البلشفية، وبالتالي فقد كانت مؤهلة لاستقبال الفكر السياسي الشيوعي، لأنها كانت تسعى من أجل الحرية والاستقلال، مثل إندونيسيا والهند الصينية. فقد ظهرت الأحزاب الشيوعية في تلك المناطق في مطلع العشرينيات، وصار لها نفوذ كبير في منتصف العشرينيات. والخلاصة أن الثورة البلشفية وجدت ردود فعل متفاوتة بين الشعوب الآسيوية؛ فالبلاد التي تعمق فيها تأثير الاستعمار كانت بيئة مناسبة لتلقي الأفكار البلشفية

، أما البلاد التي كان بناؤها الاجتماعي متماسكًا نسبيًا؛ فلم تكن أصداء الفكر البلشفي فيها قوية، مثل إيران وأفغانستان وشبه الجزيرة العربية، فقد كانت اتجاهاتها القومية والإسلامية تضمن لها حماية خاصة من الأفكار البلشفية.

وإذا كانت المناطق العربية ـ الإسلامية محصنة بالإسلام ضد المد الشيوعي، فقد أدرك السوفيت هذه الحقيقة مبكرًا؛ حين رأوا أهمية التعامل والتعاون مع المسلمين الروس؛ لأن اضطهادهم كان من شأنه أن يخلق جوًا غير مناسب للسوفيت في العالم الإسلامي، في وقت كان السوفيت فيه يسعون إلى كسب الأصدقاء المجاورين لهم بشكل مباشر مثل تركيا وإيران وأفغانستان، خاصة وأن هذه البلاد تعتبر إمتدادًا جغرافيًا لعمق كبير من البلاد العربية الإسلامية، مثل العراق وسوريا وشبه الجزيرة العربية. ولذلك نظر السوفيت إلى هذه المناطق نظرة خاصة، وحددوا مصالحهم فيها بأنها حرمان الغرب من أي حضور فعال فيها.

وفي هذه المرحلة المبكرة خلال العشرينيات من القرن العشرين يجب عدم الخلط بين الموقفين السياسي والأيديولوجي للفكر الشيوعي من الفكر الإسلامي، فالاجتهاد البلشفي في الإسلام اجتهاد سلبي تمامًا، والعلاقة بين الشيوعية والإسلام أكثر تعقيدًا من العلاقة بين الشيوعية والأديان الأخرى؛ لأن الإسلام طريقة حياة، وتصفيته - إذا جاز للشيوعية أن تفكر في ذلك - إنما تعني إلغاء نظام اجتماعي كامل بكل ما فيه من عادات وأعراف وسنن، وهو أمر مستحيل. ولهذا كله كانت علاقة السوفيت بالإسلام حذرة في المراحل المبكرة من الثورة الروسية.

ولم تلق حركة القومية العربية اهتمامًا يذكر من الثورة البلشفية؛ لأن البلاشفة رأوا أنها تفتقر إلى برنامج اجتماعي واضح، وأن زعماءها منقسمون على أنفسهم، وتناصرهم القوى الغربية، كما رأوها مناورة تكتيكية لحماية المصالح الغربية، وبعدها ينفض كل إلى حال سبيله.

ولكن مصر كانت في نظره بيئة صالحة للمد الشيوعي ويمكن أن تقوم فيها حركة شيوعية تتعاون مع الحركة الوطنية. أما الحجاز تحت حكم عبد العزيز آل سعود؛ فلم يكن طرفًا في حركة القومية العربية، ولا طرفًا في حركة الخلافة الإسلامية، ولذلك رأى السوفيت فيه منبرًا لتطلعاتهم في البلاد العربية والإسلامية، وخاصة بعد انتكاستهم في إيران عام ١٩٢٥، وانتكاستهم في تركيا من قبل.

وبينما راح السوفيت يستثمرون كافة الفرص لضرب بريطانيا في العالم الإسلامي المجاور، بالضرب على أوتار الثورة والتحرير والقومية والعالمية؛ في مخاطبة الشعوب المقهورة والمظلومة برزت أهمية الأماكن المقدسة في الحجاز كملتقى سنوي عام للمسلمين، يمكن للسوفيت من خلال المسلمين الروس المدربين تدريبًا جيدًا أن يخاطبوا كافة المسلمين القادمين من بلادهم الواقعة تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي والهولندي، يحدثونهم عن الثورة والتحرير والاستقلال والحرية، وينشرون بينهم "الشيوعية السياسية"،

وليس "الشـيوعية الأيديولوجية" لاسـتحالة ذلك أصـلاً. وبالتالي غدا الحجاز منطلقًا جديدًا لتعزيز أركان الإستراتيجية السوفيتية في الشرق الإسلامي، ولم يكن التفكير في هذا الاتجاه إلا محاولة يجري التخطيط لها على جانب واحد من اللوحة التي سعى السوفيت لرسمها للشرق الإسلامي الجديد.

وفي معالجة هذه القضية، قسمتها زمنيًا إلى عدة مراحل زمنية أو محطات، تتميز كل مرحلة عن غيرها بميزات واضحة، أفردت لكل منها فصلاً مستقلا يكشف عن طبيعة المرحلة.

فقد جعلت من الفصل الأول تمهيدا تاريخيا، يعرض في اختصار غير مخل لتاريخ تطور العلاقات البريطانية - الروسية حول الشرق الإسلامي، الذي كان يقع في قبضة بريطانيا، والذي أدى إلى أن تعتبر بريطانيا نفسها "أكبر دولة إسلامية في العالم"، وهو تمهيد رأيته ضروريًا لفهم المتغيرات التي أخذت مكانها في الفترة التالية.

أما الفصــل الثاني فيتناول تاريخ الفترة ما بين عامي ١٩٢٤ و١٩٢٧ و تتمثل أهميتها في:

١. أن بريطانيا، بصــفتها الأوروبية والإســلامية، إلى جانب بعض الدول الأوروبية، اعترفت بقيام دولة الاتحاد السوفيتي.

٢. وأن الاتحاد الســوفيتي، بدأ يقيم لأول مرة اتصــالات دبلوماســية مع العالم الخارجي، ومنها تبادل التمثيل الدبلوماسي مع عبد العزيز آل سعود في الحجاز.

٣. وأن بريطانيا كانت تســعى بدورها لتقوية علاقاتها القائمة فعلاً مع عبد العزيز آل سعود،

كي تُبقِي النفوذ السوفيتي خارج البلاد الإسلامية.

٤. وأن عبد العزيز آل ســعود أخذ يطل على العالم الخارجي لأول مرة من خلال قنوات دبلوماسية ورثها عن الأشراف في جدة.

هذه البدايات أحدثت تغييرات عميقة عند تفاعلها مع بعضها، بسبب التناقضات القائمة فعلاً بين أطرافها الثلاثة. وهذه الفترة كانت بالنسبة للسوفيت فترة استكشاف لإمكانية استخدام الحجاز منطلقًا للدعاية السوفيتية في العالم الإسلامي كله، وبخاصة الشرق الإسلامي في وسط آسيا، الذي كانت أراضيه تتصل اتصالاً مباشرًا بأراضي الاتحاد السوفيتي.

والفصل الثالث يتناول فترة عام واحد تقريبًا بعضها النصف الثاني من عام ١٩٢٧ وبعضها النصف الأول من عام ١٩٢٨، وفيها مارس السوفيت أساليب جديدة تختلف عن تلك التي استخدموها من قبل وورد ذكرها في الفصل الأول، ولذا سميت هذا الفصل "مرحلة الممارسة".

ويبدو أن قدرة السوفيت على تطوير أساليبهم فتحت الباب لإدارة حوار بين جدة والقاهرة ولندن حول طبيعة النشاط السوفيتي، كما هيأت الفرصة لإقامة حوار بين البريطانيين أنفسهم حول ما يجب أن يفعلوه في مواجهة السوفيت، الذين نجحوا في إيجاد موطئ قدم لهم في اليمن، ولذا أطلقت على الفصل الرابع اسم: "مرحلة الحوار"، وهو يغطي الفترة ما بين عامي ١٩٢٨ و ١٩٣١.

وحين يئس السوفيت من عدم استجابة عبد العزيز آل سعود للتعاون معهم دون البريطانيين، ونتيجة لمتغيرات دولية كثيرة في أوروبا، شغلت السوفيت عن شئون شبه الجزيرة العربية، فبدؤوا في الانحسار التدريجي دون إعلان، إلى أن ماتت العلاقات بينهم وبين السعوديين في عام ١٩٣٨. ذلك هو موضوع الفصل الخامس الذي يغطي الفترة ما بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٨. الذي سميته "مرحلة الانحسار". وبذلك كانت نهاية هذه الدراسة طبيعية كما كانت بدايتها.

ولا أدعي أنني قد استوفيت البحث واستقصيته تماما، فالعمل العلمي لا يكتمل على يدي فرد واحد، ولعل ذلك يترك الباب مفتوحا أمام باحثين يجيدون التعامل مع الأرشيف الروسي، فقد تعثرت في الوصول إلى مادة الأرشيف الروسي حول هذا الموضوع، ولكن معظم المادة الأرشيفية التي توفرت عليها تحتوي معلومات تظهر في الرسائل المتبادلة بين الوكيل الروسي في جده وزميله البريطاني، ومهما يكن من أمر فقد أدى غياب مادة الأرشيف الروسي عن هذا العمل إلى أن أبذل جهدا كبيرا في استقراء المادة الوثائقية في الأرشيف البريطاني، وإخضاعها للنقد والتحليل التاريخي على ضوء السياق العام للأحداث والعلاقات الدولية، وربما أكون قد سهوت أو أخطأت، فالتاريخ الصحيح لم يكتب بعد. والرأي السديد الهادف يمكن أن يكمل ما يكون قد غاب من الصورة، "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب".

جمال محمود حجر

الدوحة

٧ أكتوبر ٢٠١٩

الفصل الأول

الشرق الإسلامي في العلاقات البريطانية السوفيتية١٩١٧- ١٩٢٧

مع أواخر العشرينيات من القرن العشرين راح البريطانيون يستقطبون الدول الأوروبية لتكوين حائط صد ضد الاتحاد السوفيتي. بينما راح السوفيت يستثمرون كل الفرص لضرب النفوذ البريطاني في الشرق، بمخاطبة الشعوب المقهورة والمظلومة واستنفاءها ضد الاستعمار البريطاني. وهنا برزت أهمية الحجاز كملتقى إسلامي سنوي يمكن للسوفيت منه مخاطبة لعالم الإسلامي لتحقيق هذا الغرض، وتشكيل منطلق جديد لتعزيز أركان الإستراتيجية السوفيتية في الشرق الإسلامي. هذا الفصل يتحسس الطريق الذي سارت فيه العلاقات الروسية البريطانية حتى عام ١٩١٧، ثم العلاقات السوفيتية البريطانية حتى عام ١٩٢٧، ليتتبع الاستراتيجية السوفيتية التي توصلت في عام ١٩٢٧ إلى نتيجة مؤداها أن الأماكن المقدسة في الحجاز تهيئ أفضل الفرص لمخاطبة شعوب الشرق الإسلامي للتأكيد على مفاهيم الثورة والحرية والقومية والعالمية والضغط على الوجود البريطاني المحيط جغرافيا بالاتحاد السوفيتي.

العلاقات البريطانية الروسية حول الشرق الإسلامي :

كانت العلاقات البريطانية ــ الروسية حول الشرق الإسلامي في سماتها العامة علاقات تنافس وتصادم شبه دائم، وهذه السمات العامة تركت لدى الباحث انطباعًا قويًا بأن التقاء الدولتين، أو الإمبراطوريتين، حول سياسة واحدة في الشرق بصفة عامة كان أمرًا غير وارد[1]. صحيح أن هناك نقاط التقاء بين الدولتين حول مناطق محددة مثل تركيا وفارس، وأخص هذين البلدين هنا بالذكر باعتبارهما من البلاد الإسلامية، إلا أن تلك التوافقات كانت توافقات مرحلية، أو تكتيكية، ولم يكتب لأي منها صفة الاستمرار. ولا أظن أن هناك تفسيرا لذلك أقوى من أن المصالح البريطانية كانت تصطدم في أهدافها البعيدة المدى مع المصالح الروسية العليا في الشرق، القضية إذن قضية مصالح

---

[1] حول دراسة تفصيلية للعلاقات البريطانية ــ الروسية بشأن المناطق الإسلامية المجاورة لروسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، انظر: محمد حسن العيلة: **أواسط آسيا الإسلامية بين الانقضاض الروسي والحذر البريطاني**، (الدوحة: دار الثقافة، ١٩٧٦).

وليســـت قضـــية أيديولوجيات؛ فبينما ســـعى البريطانيون جادين خلال القرن التاسـع عشـر إلى تشـكيل حزام متصـل من مناطق النفوذ، يمتد مع خطوط العرض من أوروبا مارًا بوســـط أســـيا إلى الشـــرق الأقصـــى، في محاولة منهم لعزل روسـيا شـمالاً لتعيش في أصـقاعها الباردة، في المقابل كان الروس يعملون جاهدين للضـغط على جيرانهم المسـلمين في آسـيا الوسـطى والجنوبية للوصـول عبر أراضـيهم إلى المياه الدافئة حيث مناطق النفوذ البريطاني في جنوبي آســـيا والخليج العربي والبحر المتوسـط لأسـباب اقتصـادية واسـتراتيجية. وبكلمات أخرى فإن الروس كانوا يعملون على الحيلولة دون نجاح بريطانيا في تشكيل خط العرض الإستراتيجي الذي يسعون إلى تنفيذه بإحكام.

هذا التصــادم الإســتراتيجي بين الإمبراطوريتين الروســية والبريطانية كان يجري في معظمة على أراض إسـلامية، ومن هنا شـكل العنصـر الإسـلامي ـــ بذاته وبأرضه . محورًا رئيسا، دارت حوله السياسة والإستراتيجية لكل من الإمبراطوريتين. ولكن البريطانيين تفوقوا على الروس في البداية لســبق وصــولهم إلى شــبه القارة الهندية بمفهومها الجغرافي الكبير، حيث يوجد بها أكبر تجمع إسلامي في مكان واحد بالشــرق. ومنذئذ نرصــد أن حكومة الهند البريطانية، لا حكومة لندن، كانت هي المســئولة عن حماية مصــالح الإمبراطورية البريطانية في الشــرق من خطر نجاح محاولات روســيا للتســلل إلى أفغانســتان وفارس ومنطقة الخليج العربي. أما فيما يتعلق بسعيها للوصول إلى البحر المتوسط عن طريق مضيقي البوسفور والدردنيل، فإن حكومة لندن كانت معنية بالدرجة الأولى بمواجهة المد الروســي في الأراضــي والمياه العثمانية، وهو أحد مظاهر "المسألة الشرقية" الذي لم يكن يشغل حكومة الهند بنفس القدر.

هنا نرصد أن العلاقات الروسية ــ العثمانية كانت تتسم بالعداء لنفس الأسباب التي حددت طبيعة العلاقات الروسية ــ البريطانية؛ فممتلكات الدولة العثمانية كانت ـ في قطاع كبير منها ـ تشكل جانبًا من الحزام الإستراتيجي البريطاني المحاصِر لروسيا. ولهذا فرضت الجغرافية السياسية على الدولة العثمانية الدخول بالضرورة في منطقة الصراع بين الامبراطوريتين البريطانية والروسية. وفي سياق الخيارات والمفاضلات والتوازنات، نجح الروس في عام ١٨٣٣ في كسر الحزام الاستراتيجي البريطاني، حين عقدوا تحالفًا مع الدولة العثمانية، في ظل ظروف غير ملائمة للدولة العثمانية، فرضتها هجمات قوات محمد علي والي مصر على الدولة العثمانية، وعرفت هذه المعاهدة السرية باسم "معاهدة هنكيار أسكله سي" التي كانت نصرًا حقيقيًا للاستراتيجية الروسية، لأنها كانت تخدم أهدافهم البعيدة المدى في الوصول إلى البحر المتوسط. وكانت هزيمة للبريطانيين الذين كانوا يسعون دائمًا للاستئثار بالنفوذ في الدولة العثمانية.

وقد كلف هذا النجاح الروسي بريطانيا جهدًا دبلوماسيًا وعسكريًا ضخمًا. فقد ظل وزير الخارجية البريطانية لور بامستون، يسعى لدى العثمانيين لإفساد هذه المعاهدة وإلغائها في عام ١٨٤٠. لقد كان نجاح الروس في عقد هذه المعاهدة هو البداية الحقيقية لرسم سياسة روسية محددة الملامح والأهداف تجاه كل من بريطانيا والدولة العثمانية.

وما أن انتصف القرن التاسع عشر حتى كانت روسيا وجهًا لوجه مع بريطانيا وحلفائها فيما يعرف باسم "حرب القرم" (١٨٥٣-١٨٥٦). ولم تكن هذه الحرب بسبب الدولة العثمانية، بقدر ما كانت بسبب التصادم بين جوهر السياسة الروسية وأهدافها من ناحية وسياسة بريطانيا وأهدافها الشرقية من الناحية الأخرى. فبينما كانت روسيا ترى ضرورة الخلاص من كيان الإمبراطورية العثمانية "المريض" لحسابها، كانت بريطانيا ترى إقامة نظام جديد من بقايا الإمبراطورية العثمانية، يمكنها من حفظ توازن القوى في المنطقة، من ناحية،

وإبعاد أخطار الدول الكبرى الطامعة فيها من ناحية أخرى. ولما كان ذلك أمرًا صعبًا، اتبعت بريطانيا سياسة المحافظة على الوضع الراهن في الشرق الأدنى بكل أبعاده، باعتباره أسلم الوسائل لتيسير تطبيق سياستها.

وعلى المستوى الأيديولوجي، كان الروس حريصين على تأكيد حمايتهم للمسيحيين الأرثوذكس داخل الدولة العثمانية، وكانوا يتنافسون مع فرنسا وإنجلترا حول أي من الكنيستين (الشرقية أم الغربية) يكون لها التفوق والسيادة في فلسطين. وفي هذا السبيل أرسل القيصر الروسي بعثة دبلوماسية للسلطان العثماني لتوضيح نوايا روسيا تجاه الدولة العثمانية، مؤكدًا على أنه لا يسعى إلى ضم أي جزء من أراضيها، وإنما يسعى إلى الحصول على "فرمان" يعيد التفوق الروسي في القدس إلى سابق عهده قبل التحالف الفرنسي العثماني عام ١٨٥٢، ذلك أن روسيا لن تسكت على التفوق الفرنسي القائم هناك، وأنها تقترح عقد معاهدة سرية على غرار معاهدة "هنكيار أسكله سي" لتحقيق التوازن المطلوب لحماية مصالحها في الدولة العثمانية.

وفيما يتعلق بإنجلترا، أكد القيصر الروسي للسفير البريطاني في سان بطرسبرج على أهمية استانبول للمصالح الروسية، وأن أي محاولة لتقسيم أملاك الدولة العثمانية لابد وأن يُنص فيها على أن تكون استانبول لروسيا. وبهذه الصورة فإن مصالح روسيا في الدولة العثمانية تنحصر في أمرين: السيادة العقائدية في فلسطين. والسيادة السياسية في استانبول. وفي الوقت الذي كانت روسيا تتحاور فيه مع العثمانيين والإنجليز حول مصالحها، كانت تستعد عسكريًا لتنفيذ خطتها في الدولة العثمانية، وتطالب بإغلاق الدردنيل أمام كل من السفن الحربية البريطانية والفرنسية. وهكذا كان الطريق إلى حرب القرم مفتوحًا على مصراعيه في صيف عام ١٨٥٣.

كان من الواضح أن أي محاولة للتفاهم بين الروس والعثمانيين، لا يجب أن تتم بعيدًا عن مجموعة من الأسس، يعنينا منها في هذه الدراسة أمران: الأول إعادة النظر في اتفاقية المضايق (١٨٤١)

لصـــالح توازن القوى في أوروبا. والثاني تخلي الروس عن المطالبة بحماية المســيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية، على أن يَعِد السـلطان بالعمل على تحسين أوضاع رعاياه. وفي الواقع، لم يكن يشغل بريطانيا أمر أكثر من إعادة النظر في اتفاقية المضـايق (١٨٤١). ولعلها السـبب الحقيقي الذي زج بها إلى حرب القرم. وقد وفقت بريطانيا إلى تحقيق الهدف الأصـلي من حرب القرم بمقتضـى التسـوية التي أسـفر عنها مؤتمر باريس عام ١٨٥٦. فقد أعلنت هذه التسـوية حيدة البحر الأسود، كما أُغلق المضيقان(البوسفور والدردنيل) في وجه جميع السفن الحربية الأجنبية، وبالتالي شـلت الاتفاقية الوجود الروسي العسـكري فيه، كما وفرت على إنجلترا جهد متابعة احتمال قيام روسـيا بعمل عدائي ضـد المصـالح البريطانية في شرق البحر المتوسط.

نظر بعض الإنجليز إلى هذه الحرب على أنها حرب فرضتها ضرورة تأمين الطريق إلى الهند، الذي تعرض للتهديد بسبب إثارة المسألة الشرقية. ونظر إليها البعض الآخر على أنها مقدمات لحملة "السلام مع الشرف" التي تبناها دزريلي بعد عام ١٨٧٨. أفادت الحرب إلى حد ما سلامة الطريق إلى الهند. ولعلها أسفرت عن تحقيق التوازن الدولي كما أرادته إنجلترا، واستبدلت المعاهدات بالدبلوماسية، وسعت إلى تقنين العلاقات الدولية. ولعل وزير الخارجية البريطاني (بامستون) الذي أجهض محاولة روسيا في الوصول إلى المضايق، في عام ١٨٤١ ، هو نفسه الذي مارس الدبلوماسية البريطانية بطريقة سرية في حرب القرم، بحيث يمكن القول أنه سخر كلا من النمسا وفرنسا لخدمة المصالح البريطانية. وهو الذي قال في تعليقه على المذكرة النمساوية . الفرنسية في ١٤ نوفمبر

١٨٥٥ إنها "من أجلنا ولكن بدوننا "[٢]. أما محتوى المذكرة فقد تضمن جوهر القضية التي تعني إنجلترا بالدرجة الأولى، وخصوصًا ما يتعلق بعزل روسيا خلف الدردنيل مع تحييد البحر الأسود. لقد كان الرأي العام البريطاني يساند سياسة بامستون تجاه روسيا دون أن يعرف بتفاصيل دبلوماسيتها. ومع أن شرط تحييد البحر الأسود لم يكن مرغوبًا فيه من أي طرف من الأطراف (الروس، الفرنسيين، النمساويين)، إلا أن بامستون فرضه إرضاء للرأي العام البريطاني.

وإمعانًا في إذلال روسيا وقع بامستون بعد أسبوعين فقط من معاهدة باريس (٣٠ مارس ١٨٥٦)، معاهدة ثلاثية في ١٥ أبريل ١٨٥٦ مع كل من فرنسا والنمسا لضمان أمن وسلامة واستقلال الدولة العثمانية، في الواقع كانت هذه المعاهدة موجهة ضد روسيا. فقد اشتم بامستون رائحة اتصالات فرنسية ـ روسية من وراء ظهر بريطانيا،

---

[٢] Temperly, H., "British Secret Diplomacy From Canning to Grey", **The Cambridge Historical Journal,** No. ٥, Vol. VI, (١٩٣٨) PP. ١-٣٢.

ولم يشأ أن يفصح عن علمه بما جرى، وفي إطارمن الدبلوماسية السرية أراد أن يلزم فرنسا بالعمل ضد روسيا طبقًا لما سبق الاتفاق حوله في حالة مهاجمة روسيا للدولة العثمانية، فنجح في أن يضمّن المعاهدة نصًا سريًا، ليساعد به فرنسا على أن تظل في جانب الحلفاء عمليًا، وفي جانب روسيا ظاهريًا، لقد خدع بامستون روسيا، ومكن فرنسا من أن تخدعها هي الأخرى. صحيح أن شروط الضمان الثلاثي كانت هشة، وتحللت منها فرنسا بعد ستة شهور، ولكن يبقى أن بريطانيا لا تكاد ترى فرصة لمحاصرة روسيا إلا واغتنمتها.

لم يكن الأسلوب البريطاني في تقليم أظافر نفوذ روسيا وطموحاتها في الشرق الإسلامي مقبولاً لدى الفرنسيين، فقد أدركوا أن التحالف الأنجلو-فرنسي، الذي نشأ حديثًا وتجسد في حرب القرم، قد خدم الإنجليز بالدرجة الأولى، وأن الجيش الفرنسي كان أداة طيعة لخدمة المصالح البريطانية، ولم يكن بالإمكان تصحيح ذلك إلا بخداع النفس، وفي إطارمن الدبلوماسية السرية.

يشكل ما سبق عرضه جهودا بريطانية في التصدي لمحاولات روسيا "للخروج من الحصار" عبر أراضي ومياه الدولة العثمانية. أما في آسيا الوسطى فقد كانت روسيا تضغط على منطقتين بعينهما: الأولى فارس سعيًا للوصول إلى مياه الخليج العربي. والثانية أفغانستان سعيًا للوصول إلى مياه المحيط الهندي. وكانت بريطانيا تدرك ذلك جيدًا؛ فنراها تسعى أثناء حرب القرم إلى تشجيع أمراء آسيا الوسطى من المسلمين على الثورة ضد التسلط الروسي، وهو أسلوب سعى الطرفان إلى استخدامه ضد بعضهما في مناسبات عدة، وفي الوقت نفسه تدعم بريطانيا نفوذها في فارس وأفغانستان[٣].

---

[٣] نوري عبد البخيت: "الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي في القرن التاسع عشر وبداية العشرين"، **الخليج العربي**، (مركز دراسات الخليج، جامعة البصرة)، ص ٥٥ وما بعدها.

كانت المناطق الجنوبية في آسـيا الوسـطى ومنطقة الشـرق الأوسـط هي المناطق الحيوية الداخلة في إطار خطة التوسـع الروسـي في آسـيا، ولعل المرحلة التمهيدية لتنفيذ هذه الخطة قد بدأت زمن بطرس الأكبر (١٦٨٢- ١٧٢٥م) وانتهت قبيل نشـوب حرب القرم مباشـرة. وخلالها اسـتولى الروس على القرم (عام ١٧٨٣) وعلى قرغيزيا (أواخر القرن ١٨). وفي أعقاب تلك الحرب، وفي ظل سـياسـة الحصـار التي فرضـها الحلفـاء الأوربيون على روسـيا، لم يكن لهـا متنفس إلا في المنـاطق الآسـيوية وهي مناطق في معظمها إسـلامية الطابع، ففي عام ١٨٥٦ احتلت القوات الروسـية طشـقند، وفي عام ١٨٦٨ احتلت بخارى وسـمرقند، وفي عام ١٨٧٣ احتلت خينا، وفي عام ١٨٨١ احتلت تركسـتان وعشـق أباد ومرو، وحتى عام ١٨٨٥ سـيطرت على مساحة تمتد مابين بحر قزوين وجبال تيان شان، ومن جبال أورال وحتى حدود القفقاس (القوقاز)، وفي عام

١٨٩٧ اســتولت على البامير[٤]. بهذا التمدد الســياســي والجغرافي (الجيوبوليتيكي) ضمت روسيا عددًا لا بأس به من المسلمين إلى كيان الدولة، واقتربت بشكل مباشر من المناطق الإسلامية الواقعة تحت النفوذ البريطاني.ورأت حكومة الهند مع بداية الربع الأخير من القرن التاسـع عشـر ضـرورة العمل على توسـيع حدود الهند الشـمالية، كما طلبت إلى حكومة لندن أن تضـغط على روسـيا في منطقة بحر البلطيق كي تشـغلها عن التوسـع في آسـيا، وأدت التطورات الأوروبية إلى سـرعة التقاء الدولتين في عام ١٨٨٥؛ فوقعتا معاهدة ثبتت الحدود بين آسـيا الوسـطى وأفغانسـتان، وظلت إنجلترا في مأمن من الخطر الروسـي حتى نهاية القرن التاسـع عشر.

---

[٤] المرجع السـابق، ص ٥٧؛ سـعيد بكر: الأقليات المسـلمة في آسـيا وأسـتراليا، دعوة الحق (نوفمبر ١٩٨٣)، ص ٢٦٧-٢٦٩.

وفي مطلع القرن العشــرين، أدى تطور العلاقـات الـدوليـة، وظهور ألمـانيـا كقـوة أوروبيـة، ونجـاحـهـا في غرس جـذور نفوذهـا في الـدولـة العثمـانيـة وفي إيران، فضـــلاً عن نجاحها في بناء قوة بحرية قادرة على تحدي البحرية البريطانية، أدى كل ذلك إلى تقارب تكتيكي روسي - بريطاني في عـام ١٩٠٧، حين اعترفت بريطانيا بالنفوذ الروســي في شــمالي فارس، بينما اعترفت روســيا بالنفوذ البريطاني في جنوبها وفي الخليج. ومع أن هذه الخطوة تعتبر نجاحًا ظاهريًا للسـياسـة الروسـية، إلا أنها كانت في الـواقع نجـاحًا لبريطانيا، التي وضــعت حدًا لطموحات روســيا في الاتجاه جنوبًا نحو المياه الدافئة.

لقد كانت بريطانيا ترقب عن كثب مشــاريع الســكك الحديدية الروســية، انطلاقًا من خطوط عبر سـيبريا وصـولاً إلى أفغـانسـتان، ومشـاريع السـكك الحديدية الألمانية، انطلاقًا من فيينا إلى سـالونيك

، ومن فيينـا إلى بغـداد، والتي كـانـت تهـدف جميعًـا إلى ضـــرب المصــــالح البريطانية في الشـرق. وفي سـبيل التصـدي لألمانيا نشـطت الدبلوماسـية البريطانية لاسـتقطاب عدويها التقليديين روسـيا وفرنسـا، فكان الوفـاق الـودي مع فرنسـا في عـام ١٩٠٤، كما كان الوفـاق مع روسـيا في عـام ١٩٠٧، خطوتين على هذا السـبيل[٥].

ويسجل جورج لويد في محاضـرة ألقـاها بالمعهد البريطاني للشـئون الدولية في عـام ١٩٢٥، أن القضـايا التي شـغلت بال السـاسة البريطانيين مع الروس قـائمة في منطقة الشـرق الأوسـط، والخليج العربي، والبحر الأحمر، وشـرق البحر المتوسـط، وإيران، والهند، وهي مناطق تتطلع إليها روسـيا بشـغف. ووجه النصـح لبريطانيا أن تضع سياسة واضحة المعالم تجاه استمرار وجودها في تلك المناطق.

---

[٥] راجع تفاصيل التعاون الإستراتيجي بين روسيا وبريطانيا قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى في:

Darwin, J., **Britain, Egypt and The Middle East, Imperial Policy in The Aftermath of War ١٩١٩-١٩٢٢**, (London: ١٩٨١) pp. ١٤٣-١٥١.

حتى تتمكن من مواجهة المنافســة الأجنبية. وصــرف جورج لويد بعض الوقت لبيان أهمية الهند، ووصــفها بأنها محور ســياســة بريطانيا الخارجية في الشــرق، في مواجهة منافســة الدول الأخرى. ويعتقد جورج لويد في أنه "لا يوجد مكان في الإمبراطورية يمكن وضــعه على قدم المســـاواة مع الهند في أهميتها الإستراتيجية والاقتصادية في ذلك الوقت ..."[٦].

---

[٦] Lloyd, G., "British Foreign Policy in Asia and its Relation to India", **Journal of British Institute of International Affairs**, Vol. IV (١٩٢٥) PP. ١٠٩-١١٧.

وبذلك نجحت بريطانيا في دخول الحرب العالمية الأولى وإلى جانبها كل من فرنسا وروسيا[٧]. ولكن حين انتهت الحرب كان قد تأكد أن بريطانيا خسرت روسيا إلى الأبد. فلم تعد روسيا، كما كانت روسيا القيصرية، ذات الأطماع التوسعية، ولكنها صارت إلى جانب ذلك روسيا الثورة البلشفية، بما في ذلك من تصادم أيديولوجي حتمي[٨]، ليس مع بريطانيا وحدها، ولكن مع العالم الرأسمالي كله، لأن الروس الجدد كانوا يرون أن "تحقيق أفكارنا تحقيقًا كاملاً لا يتم إلا بقلب النظام الرأسمالي بأكمله"[٩]. ويعكس هذا التصريح صورة مستقبل العلاقات الروسية ــ البريطانية على مرآة الشرق.

---

[٧] Darwin, **op. cit...,** P. ١٤٥.

[٨] Wise, E. F., "Russo – British Relations", **The Contemporary Review** (May ١٩٢٩) P. ٥٧٠.

[٩] لينين: **تقرير عن السلام**، ص ١١.

الإستراتيجية السوفيتية في الشرق :

شُغل الروس بشئونهم الداخلية وبالحرب الأهلية بعد نشوب الثورة البلشفية، وبدا الشرق في هذه المرحلة المبكرة عرضة للنسيان. ولكن بعد نجاح الثورة البلشفية انقسم الشيوعيون في روسيا على أنفسهم حول الوجهة التي ستنتقل إليها عدوى الثورة. فرأى البعض أن في الإمكان العمل على تكوين أوروبا السوفيتية. ورأى البعض الأخر أن مستقبل الحركة الاشتراكية إنما يقع في آسيا، ولكنهم أدركوا أن بهذا الاتجاه الأخير عناصر ضعف أهمها وجود أعداد كبيرة من المسلمين في آسيا، ما يجعلها عبئًا على الشيوعية، ويرجع ذلك إلى أن لينين لم يقدم لمؤيديه أفضل مما قدم الإسلام لمعتنقيه[١٠].

---

[١٠] ولتر لاكور: **الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط**، ص ١٧-٢٢.

وبالرغم من التحفظات السابقة، فقد كان لينين أكثر زعماء البلاشفة اهتمامًا بشئون آسيا، لأنه كان يرى أن مواجهة قضية الاستعمار والدعوة إلى التحرر يمكن أن تخدم روسيا الجديدة أكثر من قضية نشر الفكر الشيوعي، في حال وقوف روسيا إلى جانب الشعوب المغلوبة على أمرها، فقد كان يؤمن أن مصير العالم سيتقرر في آسيا، انطلاقا من أن أغلبية الجنس البشري تتركز في الهند والصين وروسيا. وعلى ذلك فإن يقظة آسيا يجب أن تعطى أولوية على نشر الفكر الشيوعي خارج روسيا. ولعل لينين كان يختلف في ترتيب الأولويات مع كل من ماركس وأنجلز، اللذين كانا يريان إمكانية تخليص المستعمرات الآسيوية من الاستعمار الأوروبي بعد انتصار الثورة الشيوعية في أوروبا أولاً[11].

[11] **المرجع السابق**، ص ١٩ – ٢٥؛ بونداريفسكي: **سياستان إزاء العالم العربي**، (موسكو: ١٩٧٥) ص ٢٦٨.

ولكن الزعامات الروسية الجديدة واجهت مشكلة في عدم القدرة على ممارسة سياسة شرقية واضحة، نتيجة لافتقارها إلى تنظيمات قيادية في الشرق، هذا رغم أن الشعوب الإسلامية في روسيا تعاونت من بداية الثورة مع العناصر البلشفية لتدمير الدولة القيصرية والقوى المؤيدة لها في الداخل. وبالتالي كان من الضروري الاعتماد على تلك العناصر المتطرفة

من بين الشرقيين أنفسهم، وخاصة من دعاة الوحدة الإسلامية، أو الوحدة التركمانية[١٢].

وساعد على سرعة التقاء روسيا الجديدة بالشرق، أن الشرقيين كانوا ينظرون إليها على أنها شبه أوروبية وشبه شرقية، وأن الفواصل الجغرافية بينها وبين الشرق ليست مانعة. وأن بموسكو كلية للدراسات الشرقية، وكذا في لينينجراد والمدن الكبرى مراكز شرقية مماثلة. كما أن الجيش الأحمر أنشأ دائرة شرقية لتخريج ضباط مهيئين للعمل في بلاد الشرق.

---

[١٢] بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية، ص ٢٦٣.

ثم أسس الحزب الشيوعي في عام ١٩٢١ "الجمعية العامة لاتحاد المستشرقين" التي صدرت عنها مجلة "الشرق الجديد". وأكد اتحاد المستشرقين على الصلة بين نضال الطبقة العاملة في الغرب وكفاح الشعوب المضطهدة في الشرق. واختص مجموعة من المستشرقين بأحوال البلاد الإسلامية، وتوصل هؤلاء إلى أهمية التركيز على الجانب القومي دون الجانب الشيوعي في هذه المرحلة المبكرة[١٣].

وكانت سياسة الثورة البلشفية في آسيا بادئ الأمر مبنية على أساس استنفار القوميات المختلفة، مما جعلها تلقى قبولاً لدى الشعوب الآسيوية المستعمرة وشبه المستعمرة. وكان رفع البلاشفة لشعار المساواة والسيادة لجميع شعوب روسيا وحقها في تطوير الأقليات القومية من بين العوامل المشجعة للشعوب الآسيوية

[١٣] ولتر لاكور: مرجع سابق، ص ٢٦- ٣٥.

كي تضـــع ثقتها في الثورة التي تحمل لها أملاً جديدًا في الحرية. وهكذا كان للثورة البلشـفية مردودات إيجابية على الشـعوب الآسـيوية، ومردودات سـلبية على الاستعمار الأوروبي (البريطاني والهولندي والفرنسي).

صحيح أن الشـيوعيين كانوا يدركون أن تبني الاتجاهات القومية يتناقض والاتجاهات الشـــيوعية. ولكن ذلك مردود عليه بأن مناصـــرة الاتجاهات القومية كانت موقفًا تكتيكيًا يهدف إلى ضرب الاستعمار الغربي في آسيا. وإذا نجحوا في ذلك يمكنهم بوسائل أخرى ضرب الحركات القومية. ومن هذا المنطلق أقيمت الاتصالات بزعماء الهند لضـــرب بريطانيا، وبزعماء أندونســـيا لضـــرب هولندا. وروعي في هذه الاتصـــالات الفصـــل الواضـح بين الحركة الشـــيوعية والبرجوازية الوطنية في تلك البلاد. واتخذوا نفس الاحتياطات تجاه الحركة الإسلامية

حين قرروا التعاون معها في حدود مواجهة الاستعمار. أما مسألة وحدة الشرق التي تبنتها الحركة الإسلامية فبقدر ما فيها من إيجابيات مرحلية، فيها كذلك سلبيات خطيرة على الشيوعية في المدى البعيد[١٤].

وبناء على الأسس السابقة، أعلنت القيادة الروسية الجديدة في ٣ ديسمبر ١٩١٩، أن جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية بموقعها بين أوروبا وآسيا، تعتبر نفسها سندًا لآسيا الواقعة تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي، وأنها ستتبنى هذا الموقف حتى تتحرر شعوبها. وتطبيقًا لذلك أقدمت روسيا على إعانة كل من أفغانستان وتركيا ومنغوليا[١٥].

---

[١٤] بطرس غالي: "أبعاد الأيديولوجية الأفرو ــ آسيوية"، **مجلة السياسة الدولية**، (أبريل ١٩٦٨)؛ ملف الطليعة: "الاتحاد السوفيتي والعالم الثالث"، **مجلة الطليعة**، (ديسمبر ١٩٧٢)؛ بانيكار: **آسيا والسيطرة الغربية**، ص ٢٦٣-٢٦٤.

[١٥] ملف الطليعة: "خطوات تأسيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية"، **مجلة الطليعة**، (ديسمبر ١٩٧٢).

هكذا كانت إطلالة الثورة الروسية على العالم الخارجي في آسيا، بعد انشغالها بشئونها الداخلية لتثبيت أقدام النظام الجديد[١٦]. ولكن سبقت ذلك محاولة لإثبات حسن النوايا حين أعلن الزعماء الروس في مستهل الثورة إلغاء جميع المعاهدات السرية التي عقدتها روسيا القيصرية مع الدول الكبرى، بهدف تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا وآسيا فيما بينهم. وكان الروس يهدفون من وراء ذلك إلى فضح سياسة النظام السابق في روسيا القيصرية والتنديد بالسياستين البريطانية والفرنسية. ومع نهاية عام ١٩١٧ وجه الزعماء الروس بيانًا إلى الطبقة العاملة في روسيا والشرق، ومن بينهم عدد كبير من المسلمين في آسيا الصغرى وإيران وأفغانستان والهند وشبه الجزيرة العربية،

[١٦] وحيد رأفت: "الإستراتيجية السوفيتية في الشرق الأوسط"، **مجلة السياسة الدولية**، (يوليو ١٩٧٤).

يدعونهم إلى أن يهبوا في وجه الظلم والاستعمار وألا يخشوا روسيا الجديدة. ووعدوهم بالتعاون معهم[17]. مع تأكيدهم على أن "عقيدتكم وتقاليدكم ومؤسساتكم الثقافية، تعتبر منذ الآن حرة وذات حصانة. ابنوا حياتكم القومية بحرية ودون عقبات ولكم الحق في ذلك"[18].

استشعر المسلمون الروس أن بإمكانهم أن يتنسموا هواء جديدًا للحرية في روسيا الجديدة. فقد كانوا من قبل "يجتازون أزمة عنيفة"، وكانت الحياة عسيرة على الجميع، ولذلك لم يترددوا في مناصرة الثورة، واعتبروا أن الكفاح من أجل حريتهم كفاح مقدس، وعبر بعضهم عن ذلك بقوله "لقد وجدت الثورة أحر استجابة في قلوبنا، وأقيمت شعائر خاصة في الجوامع ... وابتهل الجميع إلى الله أن ينصر قضية الشعب ... وتشكلت المجالس السوفيتية للمسلمين"[19].

---

[17] ولتر لاكور: **مرجع سابق**، ص ٣٧-٣٨؛ وحيد رأفت: **مرجع سابق**؛ بونداريفسكي: **مرجع سابق**، ص ٢٧٠.

[18] ملف الطليعة: "الاتحاد السوفيتي حليف أساس لحركة التحرر العربية"، **مجلة الطليعة**، (ديسمبر ١٩٧٢).

[19] عبد الله نوار: **٧ أيام مع المسلمين في الاتحاد السوفيتي**، ص ١٦- ١٨؛ بانيكار: **مرجع سابق**، ص ٢٦٣- ٢٦٤.

ولعل الزعماء الروس وقفوا هذا الموقف من المسلمين بادئ ذي بدء لأن المسلمين كان لهم دور حيوي في حركات التمرد ضد النظام القيصري، وخاصة قبيل الثورة، حين عقدوا ــ على سبيل المثال ــ مؤتمرًا في طشقند حضره ممثلون عن الفئات المسلمة في وسط آسيا، وقرروا قيام جمهورية إسلامية مستقلة في طشقند برئاسة شيخ الإسلام. وحين قامت الثورة واصل المسلمون دورهم الإيجابي بتأييدها، ومباركة القادة الجدد مرحليًا[٢٠].

وجريًا على هذه السياسة شارك عدد من زعماء المسلمين في مؤتمر تحرير الشرق في باكو عام ١٩٢٠ وألقوا خطبًا قوية. ومع ذلك لم تكن صورة الشرق في عيون الزعماء الروس واضحة بما فيه الكفاية. وأدرك الروس أن التغييرات الجذرية التي تعتزم الثورة إحداثها في آسيا غير محتملة الوقوع قبل مرور عدة أجيال، بسبب العداء بين الإسلام والشيوعية. وحين أدرك زعماء المسلمين هذه الحقيقة، كان ذلك بداية النهاية لتعاونهم بحماس مع الثورة.

---

[٢٠] سعيد عبد المجيد بكر: الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، **دعوة الحق**، (نوفمبر ١٩٨٣) ص ٢٧١.

لأن الإسـلام أكبر من مجرد كونه دينًا سـماويًا، إنه إلى جانب ذلك أسـلوب حياة كامل. ولعل أخطر نتيجة أسـفر عنها مؤتمر باكو هي أنه مزق أيديولوجية الوحدة الإسـلامية[٢١]، ذلك أنه سـعى إلى ربط المسـلمين الروس بالطبقة العاملة في العالم، وهي صيغة جديدة للوحدة، ألغت الصيغة الإسلامية ـ نظريًا ـ بين معتنقي هذا الاتجاه الجديد.

وكانت محاولات الروس الاتصال بالعالم الإسلامي، وتشجيعه على الوقوف ضد الاستعمار الغربي تهدف ـ بالدرجة الأولى ـ إلى كسب وده وتأييده، لدعم الثورة معنويًا في الداخل وفي الخارج. وبعبارة أخرى، لم يكن الهدف هو معاونة تلك الشعوب على نيل استقلالها، في هذه المرحلة المبكرة من الثورة، بقدر ما كان الهدف هو خلخلة الضغط البريطاني على روسيا الجديدة من ناحية الجنوب.

[٢١] ولتر لاكور: مرجع سابق، ص ٣٩، ٤٠.

ومن هذا المنطلق، سعى الروس إلى استقطاب الحكومات الإسلامية المجاورة فعقدوا معاهدات ود وصداقة مع كل من إيران وتركيا وأفغانستان في عام ١٩٢١. وكان هناك اتجاه قوي مفاده أن تركيا هي الحليف الوحيد لروسيا الثورة في آسيا. وبالطبع كان لهذا الانطباع شواهده ودلالاته، ولكن الحقيقة ما لبثت أن تكشفت حين انقلب مصطفى كمال على العناصر الشيوعية في تركيا. ووقف الزعماء الروس على خطأ نظرتهم إلى تركيا الكمالية، ومع ذلك فقد رأوا أن من الحصافة السياسية ألا يخسروا مصطفى كمال، كما خسروا العناصر الشيوعية التركية[٢٢].

وكانت كل من إيران وأفغانستان في المجال المباشر لاهتمام العناصر الروسية الجديدة، وذلك من ناحيتين:

[٢٢] المرجع السابق، ص ٤١-٤٦؛ بونداريفسكي: مرجع سابق، ص ٢٧٤.

الأولى أنهما يشكلان واجهة إلى جنوب آسيا ومخارج إلى المياه الدافئة، كما كانت تركيا.

والثانية أن فيهما معترك حتمي مع بريطانيا في المستقبل. ولذلك لم يهمل القادة الروس حركة التمرد التي قامت في إقليم غيلان شمالي إيران، اعتقادًا منهم أنها موجهة ضد بريطانيا[٢٣].

ولكن طموحات الروس السياسية لم تتحقق في أي من تركيا أو إيران أو أفغانستان، بسبب الحاجز الإسلامي، وبسبب الحاجز القومي الذي ظهر وتبلور قبل الثورة الروسية. ومهما يكن من أمر، فقد كان هدف الروس المباشر هو إقامة مجموعة من الدول الحاجزة بينهم وبين الحضور البريطاني في آسيا

---

[٢٣] ولتر لاكور: **مرجع سابق**، ص ٤٦-٤٩؛ وقارن مصطفى النجار: **دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر**، ص ٨١.

، في محاولة للتصــدي للهيمنة البريطانية، ورفع الحصــار المفروض على روســيا من جانب الدول الغربية بزعامة بريطانيا. ولم يكن هدف روســيا في هذه المرحلة هو نشر الفكر الشيوعي بأي حال[٢٤]. وما يقال عن تركيا وإيران وأفغانستان، يمكن أن يقال عن الهند، التي كانت الأفكار القومية قد ظهرت فيها وتبلورت مبكرًا. ولذلك لم تعط اهتمامًا كبيرًا لما جاءت به النظرية الشيوعية.

ولكن كانت هناك مناطق آسـيوية إسـلامية لم تتبلور أفكارها القومية قبل الثورة الروســية، ولذلك كان للشــيوعيين فيها أثر كبير على توجيه القوى الوطنية العاملة من أجل التحرير والاســتقلال مثل أندونســيا والهند الصــينية. فقد ظهرت الأحزاب الشيوعية في تلك المناطق في الفترة ما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٣،

---

[٢٤] بونداريفسكي: **مرجع سابق**، ص ٢٧٤.

وصار لهما نفوذ كبير في عام ١٩٢٦[٢٥]. ومنذئذ والأفكار البلشفية تفعل فعلها ضد الهولنديين والبريطانيين خاصة، وسوف نرى آثار ذلك عند الحديث عن النشاط السوفيتي في الحجاز.

وخلاصة القول، أن الثورة البلشفية وجدت ردود فعل متفاوتة بين الشعوب الآسيوية. فالبلاد التي تعمق فيها تأثير الاستعمار كانت بيئة مناسبة لتلقي الأفكار البلشفية، أما البلاد التي كان بناؤها الاجتماعي متماسكًا نسبيًا، مثل فارس وأفغانستان فلم تكن أصداء الفكر البلشفي فيها قوية. وليس من المقبول القول أن شبه الجزيرة العربية، في هذه المرحلة المبكرة من الثورة البلشفية، كانت داخلة في استراتيجية نشر الفكر البلشفي، لأسباب كثيرة نذكر منها أن بناءها الاجتماعي كان متماسكًا، وفيما عدا عدن، لم يكن الاستعمار الغربي قد تغلغل فيها بعمق، وأن اتجاهاتها القومية والإسلامية تضمن لها حماية خاصة من تلك الأفكار البلشفية.

---

[٢٥] بانيكار: **مرجع سابق**، ص ٢٦٣- ٢٦٤.

وإذا كانت المنطقة العربية الإسلامية محصنة بالإسلام ضد المد الشيوعي، فقد أدرك السـوفيت هذه الحقيقة مبكرًا، حين رأوا ضـرورة التعامل والتعاون مع المسـلمين الروس، لأن اضـطهادهم كان من شـأنه أن يخلق جوًا غير مناسـب للسـوفيت في العالم الإسـلامي، في وقت كان السـوفيت يسـعون فيه إلى كسـب الأصـدقاء في المناطق الإسـلامية المجاورة لبلادهم بشـكل مباشـر (تركيا، إيران، أفغانسـتان) خاصـة وأن هذه المناطق تعتبر امتدادًا جغرافيًا لعمق كبير من البلاد العربية ـــ الإسلامية واجهته (سـوريا، العراق، شـبه الجزيرة العربية)، ولهذا نظر السـوفيت إلى هذه المناطق العربية نظرة خاصـة، وحددوا مصـالحهم فيها بأنها: حرمان الغرب من أي حضور فعال فيها، أو ما يمكن تسميته "مصلحة حرمان"[٢٦].

[٢٦] فتحي عثمان: "العلاقات العربية السـوفيتية بين المبادئ والمصـالح ١٩٤٥- ١٩٧٣"، **مجلة السـياسـة الدولية**، العدد ٨١، (يوليو ١٩٥٨).

ولا يجب الخلط في هذه المرحلة بين الموقفين السياسي والأيديولوجي للفكر الشيوعي من الفكر الإسلامي، فالاجتهاد السوفيتي في الإسلام اجتهاد سلبي تمامًا، والعلاقة بين الشيوعية والإسلام أكثر تعقيدًا من العلاقة بين الشيوعية والأديان الأخرى، لأن الإسلام طريقة حياة، وتصفيته إنما تعني إلغاء نظام اجتماعي بكل ما فيه من عادات وأعراف وسنن، وهو أمر مستحيل. ولهذا كله كانت علاقة السوفيت بالإسلام علاقة حذرة في المراحل المبكرة من الثورة الروسية. ولذلك فمع أن فكرة الوحدة الإسلامية لم تكن مقبولة لدى القادة السوفيت، إلا أنهم اضطروا إلى مؤازرتها مرحليًا. أما الوحدة الطورانية فقد كان لها تأثير مباشر على السوفيت لأن تحقيقها يجر إلى انفصال مناطق بعينها عن الاتحاد السوفيتي[٢٧].

[٢٧] ولتر لاكور: **مرجع سابق**، ص ٥٤-٥٧.

أما الحركة القومية العربية أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، فلم تلق اهتمامًا كبيرًا من السوفيت. فقد نظر إليها البعض على أنها ذات اتجاهات إيجابية، ونظر إليها البعض الآخر على أنها تفتقر إلى برنامج اجتماعي واضح، وأن زعماءها منقسمون على أنفسهم، بعضهم تناصره بريطانيا، والبعض الآخر تناصره فرنسا، وهي في النهاية مناورة قومية تكتيكية. بينما أثنى السوفيت على الموقف في مصر، التي لم تكن طرفًا في حركة القومية العربية وقتئذ، ولأن بيئتها أكثر ملاءمة للفكر الشيوعي، ولأن الشيوعيين في مصر يعملون بحماس ضد الحضور البريطاني فيها[٢٨]. لكل ما سبق عقد السوفيت أمالاً كبيرة على مصر، وبدا الأمر وكأنه تعاون بين الحركة الشيوعية والحركة الوطنية.

[٢٨] المرجع السابق، ص ٥٧- ٦١؛ وانظر: عاصم الدسوقي: "من أرشيف الحركة اليسارية في مصر ١٩١٩-١٩٢٥"، **مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية**، المجلدان ٢٨، ٢٩ (١٩٨١ – ١٩٨٢)، ص ٤٣٩- ٤٧٦.

ولم يكن الحجاز تحت حكم الملك عبد العزيز آل سعود طرفًا في حركة القومية العربية، ولا طرفًا في حركة الخلافة الإسلامية، ولذلك رأى فيه السوفيت فرصة مناسبة لتطلعاتهم في المنطقة العربية ــ الإسلامية، وخاصة بعدما انتكست آمالهم مع رضا خان في إيران في عام ١٩٢٥، كما انتكست آمالهم مع مصطفى كمال في تركيا من قبل.

وبعد أن عرضنا لنماذج من الإستراتيجية السوفيتية في الشرق، ترى كيف تعاملت بريطانيا معها؟.

العلاقات البريطانية . السوفيتية ١٩١٧-١٩٢٧:

نشـأت جمهورية روسـيا الاتحادية السـوفيتية في أعقاب الثورة البلشـفية إبان الحرب العـالمية الأولى، بينما كانت الـدول الأوروبية مشــغولة عنها بالحرب. وهيأت تلك الظروف فرصة مناسبة لظهور أول دولة اشتراكية في العالم. واختفت بذلك روســيا القيصــرية التي كانت حليفًا مرحليًا لبريطانيا وفرنســا في هذه الحرب ضد ألمانيا وحلفائها. وبعد أن فرغ الحلفاء من الحرب في أوروبا وجهوا ضرباتهم نحو الثورة الروســية، مســتعينين على ذلك بقدامى الضــباط في الجيش القيصــري الروســي من بين أعداء الثورة، الـذين فروا إلى مناطق الحدود وشــكلوا وحدات الحرس الأبيض. وقد لعب وزير الحرب البريطاني، تشــرشــل، دورًا نشــيطًا في هذا المجال، ونجح في إمداد عناصــر المعارضــة الروســية بمائة وخمســين ألف جندي بريطاني وفرنسي وأمريكي وياباني وإيطالي. وفي ربيع عام ١٩١٨

بدأت العمليات العسكرية ضد روسيا الثورة. فضغطت القوات البريطانية والفرنسية على الجبهة الشمالية، بينما ضغطت القوات البريطانية والأمريكية واليابانية على الجبهة الشرقية، وكانت القوات الألمانية ما تزال تحتل كييف، والقوات الرومانية تحتل بيسارابيا، والقوات التركية ماكثة في باطوم وباكو، والقوات الفرنسية واليونانية والبريطانية نشيطة في البحرالأسود.

وباختصاركان يحيط بروسيا الثورة حوالي مليون جندي من مختلف الدول[٢٩].

---

[٢٩] ملف الطليعة: "دروس من تجربة الحرب الأهلية وحروب التدخل في الاتحاد السوفيتي"، **مجلة الطليعة**، (ديسمبر ١٩٧٢).

وقال لينين مفسرًا هذا الموقف الأوروبي: إن هذه الدول تسعى إلى "خنق البلشفية العالمية، وخنق حليفتها الرئيسية جمهورية روسيا السوفيتية. ولهذا فهم يعتزمون بناء سور صيني لحماية أنفسهم من البلشفية ... بوضعها في الحجر الصحي، ولكن هذا أمر محال ..."[٣٠].

لا شك في أن بريطانيا قد حسمت موقفها من روسيا الجديدة بتزعمها لعملية الحصار الأوروبي لها، ولكن بنفس القدر من الحسم أعلن الزعماء السوفيت استحالة فعالية هذا الحصار، لأن "عدوى البلشفية ستمزق جميع الأسوار وتصيب عمال جميع البلدان"[٣١]. وسيؤدي فشل "الإمبريالية العالمية"، التي وصفها لينين بأنها "عدو قوى تغلب على العالم بأسره"، إلى نهاية حتمية للإمبريالية الأنجلو.فرنسية، كما انتهت الإمبريالية النمساوية.الألمانية، لأن ذلك واقع تاريخي[٣٢].

---

[٣٠] لينين: تقرير عن السلام، ص ٧٧، ٧٨.

[٣١] المرجع السابق، ص ٧٨.

[٣٢] المرجع السابق، ص ٨٢.

الواقع أن تصـــريحات لينين كانت تعكس أفكارًا ثورية بغير إمكانيات مادية لتنفيذ تلك الأفكار. فلم تكن روســـيا بعد عـامين اثنين من الثورة والحرب الأهلية قادرة على أن تتحدى الإمبريالية العالمية. لقد كانت روســـيا في حاجة إلى وقت وجهد ومـال ووحـدة داخليـة ومؤازرة خـارجيـة. ولم تكن هـذه الحقيقـة غـائبـة عن لينين، الذي رأى أن من الحصـافة تأجيل الصـراع مع الإمبريالية البريطانية، حين أعلن: إن "جمهورية روسيا السوفيتية ترغب في العيش بسلام مع جميع الشعوب، وفي توجيه جميع قواها نحو البناء الداخلي ... ". ولكنه يتدارك ذلك بالقول: إن دول الوفـاق لم تشأ أن تترك روسيا وشئونها الداخلية، وآثرت أن تفرض عليها "حصار التجويع"[٣٣].

[٣٣] المرجع السابق، ص ٨٨.

ومن التناقضات الظاهرية أن بريطانيا، التي تزعمت سياسة الحصار ضد روسيا في عام ١٩١٩، هي نفسها التي اقترحت على الحلفاء إنهاء تلك السياسة في مطلع العام التالي. فقد دعا رئيس الوزراء البريطاني إلى البدء في التفاوض مع الحكومة السوفيتية في روسيا. ولم يكن التغير الذي حدث في السياسة البريطانية جوهريًا بأي حال، فأسباب الصراع ما زالت قائمة، ولكن البريطانيين كانوا مدفوعين إلى ذلك بتأثير مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية، فقد أصبحت العلاقات الروسية - البريطانية موضوعًا رئيسيًا من موضوعات الانتخابات العامة في بريطانيا لدورتين على الأقل. وكذلك تبين مع الوقت أن مساهمة روسيا في تسويات ما بعد الحرب صارت أمرًا حيويًا، كما اتضح أنه لا معنى للحديث عن السلام العالمي ونزع السلاح بدون أن تكون روسيا طرفًا فيه. وأن محاولة بريطانيا إعادة التوازن إلى أوروبا، والنهوض بألمانيا اقتصاديًا، وإصلاح ما خربته الحرب فيها، لا يمكن أن يتحقق بالسرعة المطلوبة بغير تنشيط التجارة مع السوفيت[٣٤].

[٣٤] Wise, **op. cit...**, P. ٥٧٠.

وبالرغم من السلبيات التي تبدو على الجانب السياسي من الصورة، فإن الجانب الاقتصادي بدا أكثر إشراقًا. ذلك أنه في العام التالي (١٩٢١) عقدت لندن معاهدة تجارية مع موسكو، وكانت بريطانيا بذلك أول دولة غربية تقدم على مثل هذه الخطوة. وأدرك السوفيت أنهم انتصروا على الدول الرأسمالية، وخاصة بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا، وأن انتصارهم، بناء على رؤية لينين، جاء نتيجة لصلات روسيا بشعوب هذه الدول، بحيث صارت هذه الشعوب عناصر ضغط على حكوماتها، وأدى ذلك إلى وقف الصدام المباشر بين تلك الحكومات والحكومة السوفيتية على أرض المعركة[٣٥].

---

[٣٥] لينين: **مرجع سابق**، ص ٩٧- ١٠٥، ١٢٨.

ووصف لينين نجاح السياسة الروسية في تلك المرحلة بأنه "خارق للعادة"، وذلك لأن الحلفاء "لم يعترفوا بنا بعد"[٣٦]. فقد بنيت الإستراتيجية الروسية في هذه المرحلة على ضرورة قيام علاقات ودية مع كل من إنجلترا وفرنسا، لأن قدرات روسيا لا تسمح لها بالتصادم العسكري أو السياسي مع هاتين الدولتين الكبيرتين. وكان السوفيت متأكدين من كسب الجولة في المرحلة المقبلة، وخاصة إذا بنوا سياستهم الخارجية على "التعايش السلمي مع جميع الشعوب"، لأن العالم الغربي في نظرهم قد تفسخ بعد الحرب العالمية الأولى، ولابد لروسيا أن تستفيد من هذه التفسخ. يقول لينين في تفسير ذلك: "لقد فرقتهم مصالحهم الخاصة، وزادتنا مصالحنا الخاصة تماسكًا"[٣٧].

---

[٣٦] المرجع السابق، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤.

[٣٧] المرجع السابق، ص ٢٠٤، ٣٣٤- ٣٤٠.

وإذا صحت مقولة لينين السابقة عن أوروبا، فإن بريطانيا كانت معنية بها أكثر من غيرها من الدول الأوروبية، لأنه إذا كانت بريطانيا تعتبر مركز الرأسمالية العالمية، فإن روسيا كانت بنفس القدر مركز الاشتراكية العالمية. ولهذا تحملت بريطانيا مسئولية مواجهة روسيا أكثر مما تحملت أي دولة أخرى غربية في هذه المرحلة على الأقل. ومع ذلك فالأمر بالنسبة لبريطانيا كان ما يزال جد خطير لأن الموقف البريطاني في آسيا كان أضعف منه في أوروبا، ذلك أن روسيا الثورة أعلنت نفسها حاميًا لحقوق الأمم الآسيوية في تقرير مصائرها[٣٨]. وهكذا تهيأت فرص الصراع البريطاني السوفيتي في آسيا، وبدأت الدولتان أو. إن شئت. الأيديولوجيتان تصطدمان لتشكلا بذلك وجهًا جديدًا لصورة الصراع البريطاني - الروسي.

---

[٣٨] Wise, **op. cit...**, P. ٥٧١.

لقد كان الروس يهيئون أنفسهم لمرحلة جديدة من الدفاع عن النفس وتطبيق استراتيجيهم في آسيا. وفي ٢٦ ديسمبر١٩٢٢ اتخذ المؤتمر العاشر لسوفيتات عموم روسيا قرارا جاء فيه: لقد حان الوقت لتوحيد جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية، وجمهورية أوكرانيا، وجمهورية ما وراء القفقاس (القوقاز)، وجمهورية بيلاروسيا في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. وبعد أربعة أيام اجتمع مؤتمر السوفيتات الأول لعموم الاتحاد السوفيتي، واتخذ قرارًا بتأسيس دولة واحدة متعددة القوميات تحت اسم "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية". وبعد عامين (١٩٢٤) تم إقرار الدستور السوفيتي الأول[٣٩].

وهكذا يعتبر عام ١٩٢٤ عامًا مهمًا في تاريخ الاتحاد السوفيتي

[٣٩] ملف الطليعة: "خطوات تأسيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية"، **مجلة الطليعة**، (ديسمبر ١٩٧٢).

، وخاصــة في تاريخ ســياســته الخارجية، ذلك أن بريطانيا تزعمت العالم الغربي في محاولات الاقتراب من الدولة الاشــتراكية الأولى في العالم، فاعترفت بها وأومأت إلى باقي الدول الأوروبية الأخرى كي تســلك مســلكها. ولم يكن الاعتراف البريطاني بالســوفيت اعترافًا تلقائيًا بنظام الحكم الجديد في روســيا، وإنما كان اعترافًا بالشرعية الدستورية الجديدة القائمة في الاتحاد السوفيتي. ولا شك في أن هذه الخطوة من بريطانيا كانت البداية في تطوير العلاقات الســوفيتية بالعالم الخارجي. وتحقق للدبلوماسية السوفيتية بتلك الخطوة ما كانت تسعى إليه في هذه المرحلة من تأسيس علاقات ودية تقوم على أساس من المساواة والمصالح المتبادلة مع العالم الرأسمالي. وكان السوفيت يرون أن مثل تلك العلاقات لا يمكن أن تقف على قدمين ثابتتين بغير تحقيق إنجازات اقتصــادية من ورائها، دون أن يكون لذلك تأثير على البناء الاجتماعي أو الاقتصادي للسوفيت[٤٠].

[٤٠] Ponomaryov and Others (Ed.): **History of Soviet Foreign Policy** ١٩١٧ – ١٩٤٥, PP. ٢٠١-٢.

لقد كانت الأسـباب الاقتصـادية وراء مبادرة بريطانيا للاعتراف بالحكومة السـوفيتية. ومن جهة أخرى كانت ضـغوط الجماعات العمالية في داخل بريطانيا على حكومة العمال التي تربعت على عرش الحكم في مطلع عام ١٩٢٤ برئاسـة رمزي مكدونالد، الذي كان يشـغل في الوقت نفسـه منصـب وزير الخارجية، وكان وصـول العمال إلى سدة الحكم من بين العوامل الرئيسـية الدافعة لإنهاء الموقف البريطاني المتنكر للسوفيت. ودخلت مسألة الاعتراف بالاتحاد السوفيتي في البرامج الانتخابية لحزبي العمال والأحرار البريطانيين. وفوق ذلك تزعم حزب المحافظين فكرة إقامة العلاقات بين البلدين، ورأى أن بريطانيا سـوف تسـتفيد اقتصـاديًا من وراء ذلك. وهكذا شـهد يناير ١٩٢٤ بداية الاتصـالات البريطانية السـوفيتية حول الموضـوع، وأعلن مكدونالد أن الاعتراف بالحكومة السـوفيتية سـيتم دون شـروط. وفي أول فبراير صار ذلك أمرًا واقعًا[٤١].

---

[٤١] **Ibid.**, PP. ٢٠٢-٥.

وشـــهدت الفترة التالية نشـــاطًا مكثفًا لتعميق العلاقات الاقتصـــادية البريطانية ـ السوفيتية. ولم يفلح مؤتمر لندن لتطوير العلاقات التجارية البريطانية ـ الروسية في مهمته. ومع أكتوبر من العام نفسه (١٩٢٤) حدثت تغيرات جوهرية، إذ حُل البرلمان البريطاني، ودعت حكومة العمال إلى انتخابات عامة، وفشلت في البقاء في الحكم، الذي أمسـك المحافظون به. وفي ٢٤ نوفمبر أعلن رئيس الوزراء المحافظ (سـتانلي بلدوين) أنه لا يمكن أن يتبنى مسـألة التصـديق على الاتفاقيات المبدئية التي سـبق أن وقعتها حكومة العمال مع السـوفيت. وأيد الأمريكيون حكومة المحافظين البريطانية في تبني هذا الاتجاه السلبي من السوفيت، واتسمت العلاقات بين البلدين بالتوتر. وتبنى وزير الخارجية أوسـتن تشـمبرلين سـياسـة جديدة، مبنية على أساس تدمير هيبة الاتحاد السوفيتي ومركزه الاقتصادي، لأنه البلد الذي صار مصـدرًا لإزعاج العالم الرأسـمالي. وهكذا سـعت بريطانيا إلى قيادة العالم الغربي ضد الاتحاد السوفيتي، ونظرا لأن مصالح الدول الغربية كانت متفاوتة. فقد دعت بريطانيا إلى مؤتمر لوكارنو في أكتوبر ١٩٢٥،

وحضـــرته كل من بريطانيا وفرنســـا وإيطاليا وبلجيكا وتشـــيكوســـلوفاكيا، وبولندا، وجرى العمل لإقناع ألمانيا بالوقوف ضـــد الاتحاد الســـوفيتي، مقابل إدخالها عضـوًا في عصـبة الأمم. وعلى أثر ذلك تشكل تحالف الراين الذي وقعته في لوكارنو كل من بريطانيا وفرنســـا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا. وبذلك نجح الأمريكيون والبريطانيون في تكوين جبهة ســـياســـية وأخرى اقتصـــادية في مواجهة الاتحاد السوفيتي[٤٢].

[٤٢] Statement Made By Sir A. Chamberlain to The Imperial Conference on Oct., ٢٠, ١٩٢٦, W١٠٠١٩/١/٥٠, **Documents On British Foreign Policy** (D. B. F. P.), ١٩١٩-١٩٣٩, Series IA, Vol. ٢, PP. ٩٤٥- ٩٤٧ (Appendix); Ponomaryov, **op. cit...,** PP. ٢٣٥-٧.

لقد كانت العلاقات البريطانية ـ السوفيتية تنهار بسرعة خلال عامي ١٩٢٥، ١٩٢٦، بسبب مواقف بريطانيا السابقة، وبسبب تأليب السوفيت للحركات العمالية في بريطانيا، وهو أمر احتجت عليه حكومة المحافظين بشدة. وأخذت الدولتان في إصدار الإعلانات الرسمية، واتهم السوفيت بريطانيا بأنها لم تسر في طريق السلام، بينما اتهم البريطانيون السوفيت بعدم الالتزام بتعهداتهم في المعاهدات التجارية بين البلدين[٤٣].

وفي أكتوبر ١٩٢٦ صرح تشمبرلين بأن هدف الشيوعية الدولية الأصيل هو إعلان الثورة في العالم على اتساعه، ونشر الدعاية المضادة لبريطانيا، وأكد على أن جميع نشاطاتها تحمل هذا الطابع، لأن بريطانيا هي العقبة الأولى أمام نشر الشيوعية الدولية،

[٤٣] Ponomaryov, **op. cit...**, PP. ٢٥١-٣.

ونبه إلى أن "عملاء السوفيت نشطون ضدنا، وأساليبهم متنوعة، ففي الشرق حيث النشاط الأعظم للسوفيت، ليست كلمة (الشيوعية) هي الكلمة البراقة، ولكنها كلمة (القومية)". وأكد تشمبرلين على عدم جدوى قطع العلاقات الدبلوماسية مع السوفيت "لأننا لم نجنِ من وراء ذلك أية ميزة عملية، فالدعاية لن تتوقف بقطع العلاقات، كما أن إلغاء المعاهدة التجارية سيؤدي إلى أن تذهب التجارة إلى أيدي غيرنا، وليس من المرغوب فيه أن تعامل روسيا كما يعامل المجذوم، الذي لا يجب أن نقيم معه اتصالاً، لأنه من خلال الاتصال يمكننا أن نتابع تطوره وتحضيره"[٤٤].

---

[٤٤] Statement By Sir A. Chamberlain, ٢٠. Oct., ١٩٢٦, (D. B. F. P.) **Loc. Cit.**

واستبعد تشمبرلين تطوير العلاقات البريطانية ــ السوفيتية لأن "الحكومة السوفيتية تنظر إلى الحكومة البريطانية نظرة شك وريبة". وإلى جانب ذلك هناك "الرغبة التقليدية في التوسع تجاه الهند، وهو أسلوب قديم، سابق على الثورة، مما يجعلها عدوًا موروثًا في آسيا يهدد مصالحنا واتصالاتنا بالشرق. وهذا الاتجاه موجه الآن نحو الصين وأفغانستان وفارس، حيث أنها جميعًا من أهداف السوفيت لتأسيس نظام من الجمهوريات التابعة"[٤٥].

لقد كانت بريطانيا تخشى نتائج التحالف السوفيتي ــ الصيني، الذي إذا ما قدرله أن يتطور فإنه سيقدم للبلدين اتصالاً آسيويًا وعمقًا في وسط القارة، وهو ما تسعى إليه روسيا منذ عام ١٩٢٥. والحق أن سياسة روسيا في آسيا صارت أكثر تحديًا لبريطانيا منذ وصل المحافظون إلى الحكم، في محاولة من جانبها لضرب النفوذ البريطاني في الهند، التي كانت في نظر بريطانيا أكثر أهمية من أي مكان آخر في آسيا في ذلك الوقت تحديدا،

[٤٥] Ibid.

لأنها منطلق بريطانيا الوحيد لمهاجمة التحالف الروسـي ـــ الياباني الذي عقد في نفس العام (١٩٢٥) والذي يهدد مصــالح بريطانيا الاقتصــادية في الشــرق. ويخلص جورج لويد إلى أن يد روســيا كانت وراء كل التطورات المعادية لبريطانيا في اليابان والصـين ووســط آســيا. وأن نشــاط روســيا الســوفيتية يُؤْثِر العمل في هذه المناطق الآســيوية على غيرها من المناطق الأخرى في العالم، لأنها المنطلق المناســب لمهاجمة الغرب[٤٦].

[٤٦] Lloyd, G., "British Foreign Policy in Asia", **op. cit...,** PP. ١١٣-٤.

لقد كان كل شيء يسير عكس اتجاه توطيد العلاقات البريطانية ــ الروسية الناشئة. ومع صيف عام ١٩٢٧، أي بعد عشر سنوات من الثورة البلشفية، لم يكن الطرفان على استعداد لأن يتفاهما، بسبب التناقض الشديد بين الأيديولوجيتين، وبسبب التنافر الشديد بين السياسات. وفي ٢٦ مايو ١٩٢٧ وافق البرلمان البريطاني على قرار الحكومة بقطع العلاقات مع السوفيت. وأبلغ السفير الروسي في لندن بذلك في اليوم التالي[٤٧].

وهكذا راح البريطانيون يستقطبون الدول الأوروبية وخاصة ألمانيا، التي استفادت كثيرًا في المجال الاقتصادي من تدهور العلاقات البريطانية ـ السوفيتية، ويحولون بينها وبين الارتماء في أحضان الروس، فتصبح حلقة وصل بين روسيا والغرب، بدلاً من أن تكون واجهة تصدها نحو الشرق

[٤٧] Ponomaryov, **op. cit...**, P. ٢٦١.

،بينما راح السوفيت يستثمرون كل الفرص صغيرها وكبيرها لضرب النفوذ البريطاني في الشـرق، بالضـرب على أوتار الثورة، والتحرير، والقومية، والعالمية، في مخاطبة الشـعوب المقهورة والمظلومة. وهنا برزت أهمية الحجاز كملتقى إسـلامي سنوي في مخاطبة السوفيت للعالم الإسلامي، وبالتالي كمنطلق جديد لتعزيز أركان الإسـتراتيجية السـوفيتية في الشـرق الإسـلامي. ومهما يكن من أمر، فإن النشـاط السـوفيتي في الحجاز لم يكن إلا جانبًا واحدًا من اللوحة التي سـعى السـوفيت إلى رسمها للشرق الجديد. كما سنرى.

الفصل الثاني
الحجاز في استراتيجية الدعاية السوفيتية
مرحلة الاستكشاف ١٩٢٤-١٩٢٧

تميزت تجربة السوفيت في الحجاز عبر ثلاث سنوات منذ إنشاء وكالتهم السياسية في عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٧ بأنها كانت فترة استكشاف ودراسة لإقليم الحجاز وللدور الذي يمكن أن يلعبه في إستراتيجية الدعاية السوفيتية في العالم الإسلامي. وقد وقف السوفيت على حقيقة الدور الخطير الذي يمكن أن يؤديه الحجاز كإطار جغرافي، أو كموقع يحتضن مقدسات المسلمين المطالبين بزيارته مرة على الأقل في حياتهم، وخلال تلك الفترة اقتنع السوفيت بأن مثل هذا الدور لابد وأن يكون دورًا غير رسمي، لا تدخل الحكومة السوفيتية ولا حكومة الحجاز طرفين فيه على الأقل في هـ١هـ المرحلة، وأن يوكل الدور بكامله للعناصر الروسية كي تتعامل مع المسلمين الوافدين من مختلف أرجاء العالم.

اهتمام السوفيت بالحجاز:

أقيمت أول علاقات رســمية بين الحكومة الســوفيتية وحكومة الحجاز في عهد الأشراف عام ١٩٢٤، وذلك عندما أنشئت أول قناة اتصال دبلوماسي وقنصلي بين البلدين. ليكون كريم حكيموف المسلم أول وكيل سياسي وقنصل عام لموسكو في جدة، العاصمة الدبلوماسية للحجاز، وبالمقابل بعث الشريف حسين بن علي ملك الحجاز بالأمير حبيب لطف الله ليمثله في موسكو.

ولا شــك في أن قيام تلك العلاقات بين موســكو ومكة في ذلك الوقت المبكر لقيام دولة الاتحاد الســوفيتي، وفي ظل الظروف الدولية المعقدة وقتئذ، إنما كان كسـبًا سياسيًا واضحًا للحكومة السوفيتية؛ فالدول الغربية الكبرى كانت لا تزال حريصة على محاصرة الثورة الشيوعية البلشفية داخل الاتحاد السوفيتي، خشية أن تمتد إلى المستعمرات الأوروبية ومناطق النفوذ الغربية في آسيا.

ولا يجب أن يقلل اعتراف بريطانيا ومجموعة من الدول الأوروبية في عام ١٩٢٤ بشـرعية الحكومة السـوفيتية من تلك المخاوف[٤٨]. ذلك أن الاعتراف كان معنيًا بالحكومة السوفيتية، أما المخاوف فكانت معنية بالفكر الشيوعي. وبينما كانت الحكومة السوفيتية لا تزال ضعيفة، ومشغولة بكثير من القضايا الداخلية والخارجية، كان الفكر الشيوعي أقوى من

أن تُحكم السيطرة عليه، أو أن يُحاصر جغرافيًا لاستحالة محاصرة الفكر.

رأينا كيف كان عام ١٩٢٤ بداية الانفراج في علاقات السوفيت بالعالم الخارجي، كما كان بداية الإعداد المنظم من جانب الحكومة السوفيتية لضرب النفوذ والمصالح البريطانية في الشرق بصفة خاصة والمصالح الغربية بصفة عامة. ومما يلفت الانتباه في هذا المجال أن إطلالة الاتحاد السوفيتي على الحجاز من خلال سفارة مقيمة له في جدة عام ١٩٢٤،

[٤٨] Ponomaryov and Others (Editors.): **History of Soviet Foreign Policy** ١٩١٧ – ١٩٤٥.

قد جاءت في وقت كانت العلاقات البريطانية مع الشريف حسين ملك الحجاز، ومع العرب بصفة عامة، قد تصدعت، ووصلت إلة طريق مسدود، انعدمت فيه الثقة. وبذلك تهيأت للإتحاد السوفيتي فرصة مناسبة لتشجيع العرب في التصدي للغرب، وصار ذلك هدفًا مشتركًا التقى الطرفان حوله.

ولم يضيّع الاتحاد السوفيتي فرصة لتوطيد أركان سياسته الجديدة، وبدأ في غرس جذور نفوذه في شبه الجزيرة العربية. وقدم الصراع بين السعوديين والأشراف على الحجاز في عام ١٩٢٥ فرصة طيبة كي يلعب الوكيل السوفيتي بجدة (كريم حكيموف) دور الوساطة لتحقيق السلام بين الزعيمين العربيين المتنافسين[٤٩].

[٤٩] انظر: **أم القرى**، ٥ يونيه ١٩٢٥.

وبصرف النظر عن نتائج دور حكيموف الدبلوماسي، وقد كان بالطبع بغير نتائج ايجابية، إلا أنه قد تم بتوصية من موسكو، أو بتكليف منها. ومع أنه لا يتوافر لدينا الدليل الوثائقي لإثبات ذلك، إلا أن تطور الأحداث وشواهدها يؤكد على ما توصلنا إليه. فمن ناحية كان حكيموف عميد الدبلوماسيين الأجانب في جدة بسبب أقدميته، ومن ناحية أخرى كان مسلمًا، مما ساعده على التنقل بحرية في الحجاز بين جدة ومكة والمدينة. ولا يتمتع بحرية التنقل هذه إلا الشخص المسلم. ولكي نقدر أهمية هذا الجانب علينا أن ندرك طبيعة وسائل الاتصال وإمكانياتها في ذلك الوقت. وبذلك يكون قد تهيأ لحكيموف ما لم يتهيأ لغيره من الدبلوماسيين الأوروبيين. ومن ناحية ثالثة فقد كانت موسكو تنظر إلى عبد العزيز آل سعود

الذي كانت الحرب في الحجاز تسير في صالحه، على أنه "زعيم ثوري لحركة تحرير وطنية معادية للإنجليز". وامتدحت صحيفة نوفي فوستك Novy Vostok سياسة الإخوان النجديين في عام ١٩٢٥، واعتبرتها برنامجًا اجتماعيًا وسياسيًا بالغ الأهمية، كما اعتبرت نشاطهم الديني والعسكري ضربة قاصمة للسياسة البريطانية[٥٠].

كانت شواهد الأمور جميعها تشير إلى اختفاء الدور الايجابي والمؤثر للشريف حسين في الجزيرة العربية، وإلى بزوغ نجم عبد العزيز آل سعود ليلعب دورًا أكثر تأثيرًا. وراحت موسكو تبني الآمال على التعاون مع عبد العزيز لضرب النفوذ البريطاني في الشرق. هذا بالرغم من وجود فجوة أيديولوجية واسعة بين أفكار الثورة البلشفية وأفكار الإخوان "الوهابية السلفية الإسلامية"

---

٥٠ عبد الله الأشعل: "العلاقات الدولية في إطار مجلس التعاون لدول الخليج العربية"، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية**، العدد ٣٧، (يناير ١٩٨٤) ص ٦١ – ٨٩.

، وهي فجوة لا تســمح بأي لقاء بينهما. ومع أن الطرفين التقيا نظريًا حول ضــرورة تحدي النفوذ البريطاني وطرده من المنطقة، إلا أن عبد العزيز آل ســعود الذي كانت موسكو تنظر إليه على أنه "زعيم ثورة الإخوان"، لم يكن يشارك موسكو ولا الإخوان إمكانية تحدي بريطانيا بالعنف.

ومهما يكن من أمر صحة الاعتقاد السوفيتي بأهمية دور عبد العزيز المناوئ لبريطانيا، فقد سارت موسكو خطوة هامة على طريق توكيد العلاقات معه. فما أن قبض عبد العزيز آل ســعود على زمام الأمور في الحجاز مع مطلع عام ١٩٢٦، حتى ســارع حكيموف بتبليغ تهاني الحكومة الســوفيتية له، وباعترافها به ملكًا على الأراضــي المقدســة الإســلامية، وبرغبتها في أن تدوم العلاقات الودية بين موســكو ومكة[٥١].

---

[٥١] انظر: **أم القرى**، ٥ مارس ١٩٢٦.

إن أول ما يخرج به المحلل المدقق للإيقاع الإيجابي السريع للسياسة السوفيتية تجاه الموقف في الحجاز، هو أن الاتحاد السوفيتي كان حريصًا على تدعيم علاقاته بمن يحكم في مكة، أيًا كانت اتجاهاته أو ميوله. أو بعبارة أخرى، فإن مكة كانت الهدف بصرف النظر عمن يحكم فيها، وقد يكون في ذلك تفسير لمبادرة الاتحاد السوفيتي. أول دولة كبرى، إن صح أن

نسميه كذلك في عام ١٩٢٦. بالاعتراف بعبد العزيز آل سعود ملكًا على الحجاز.

النتيجة الأخرى التي يخرج بها المحلل للأحداث التاريخية في العشرينيات، فيما يتعلق بالعلاقات السوفيتية ـــ الأوروبية، هي أن الاتحاد السوفيتي كان ـــ في مواقفه الايجابية في التعامل مع القوى الخارجية غير المعادية له ـــ يسعى للخروج من الحصار المفروض عليه في أسرع وقت ممكن، لأن في ذلك نجاحًا لثورته.

وقد اختار الاتحاد السوفيتي طريق مناصرة حركات التحرر في آسيا ضد الاستعمار الغربي. وهو بذلك إنما يخطو خطوتين في وقت واحد: الخطوة الأولى أنه يصّدر الثورة، والثانية أنه يزيح النفوذ الغربي عن المناطق المجاورة لأراضيه. وكلتا الخطوتين كانتا من بين المطالب الملحة والأهداف بعيدة المدى في السياسة الخارجية السوفيتية.

وانطلاقًا من النتيجتين السابقتين يمكن أن نفسر الأسباب والدوافع وراء سبق الحكومة السوفيتية لكل الحكومات الأوروبية، بل وغير الأوروبية، في الاعتراف بعبد العزيز آل سعود ملكًا على الحجاز، ولكن الحكومة السوفيتية، التي كانت تعلم جيدًا حجم الحضور البريطاني في منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة، رأت أن يكون اعترافها بعبد العزيز آل سعود سرًا، وقد كانت هذه السياسة تهدف إلى ضمان موقف الأصدقاء الجدد،

قبل إعلان تحدي بريطانيا في المنطقة، ذلك أنه لم يكن من الحصافة السياسية في شيء أن يفصح السوفيت عن طموحاتهم في جزيرة العرب. وتطبيقًا لهذا النهج السياسي طلب حكيموف من الملك عبد العزيز أن يحفظ اعتراف الاتحاد السوفيتي به سرًا إلى أن تعلن بريطانيا اعترافها به أولاً.

وكان في مسلك السوفيت هذا ما يثير شكوك الملك عبد العزيز. وتظهر تلك الشكوك بوضوح في النغمة التي شكر بها الملك الوكيل السوفيتي على مبادرته السياسية، فقد رحب عبد العزيز بإقامة علاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتي، ولكنه كان حريصًا على أن تقوم مثل تلك العلاقات على أسس من الاحترام المتبادل، والتقدير "للأوضاع الخاصة للأراضي الإسلامية المقدسة".وعدم التدخل في شئونها، واحترام التقاليد المتعارف عليها في العلاقات الدولية في تنظيم التعامل بين الحكومات المستقلة"[٥٢].

---

[٥٢] اعترف السوفيت بالملك عبد العزيز في ١٦ فبراير ١٩٢٦. انظر:

Jordan (British Agent at Jeddah) to Chamberlain, ٩. March ١٩٢٦, E٢٠٦٩/٧/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٣١; Ibn Saud to Soviet Agent, ١٩. Feb., ١٩٢٦, Printed in Ibrahim Al – Rashid: **Documents of The History OF Saudi Arabia,** Vol. ٣, PP. ٢١٤-١٥, (Salisbury: ١٩٧٦).

ومع أن التأكيد على احترام "الأوضاع الخاصة للمقدسات الإسلامية" كان شرطًا أساسيًا وضعة الملك عبد العزيز في تأسيس علاقاته بالعالم غير الإسلامي[٥٣]، إلا أن عبد العزيز لم يهمل النص صراحة على احترام القوانين الدولية، التي تعترف بالقوانين الخاصة بكل دولة ولا تتعارض معها، وبالتالي فإن عبد العزيز حين وضع شروطًا لإقامة علاقات مع الدول غير الإسلامية إنما أقر مسبقًا باحترامه لقوانين تلك الدول ونظمها الخاصة بها في إطار القانون الدولي العام.

على كل حال، فإن اعتراف الاتحاد السوفيتي بعبد العزيز آل سعود ملكًا على الحجاز لم يبق سرًا. ذلك أن عبد العزيز لم يتردد في أن يخطر به جوردن Jordan الوكيل السياسي البريطاني في جدة، الذي سارع بدوره فأبرق لحكومته في لندن في ٢٤ فبراير ١٩٢٦ مؤكدًا على مخاوف عبد العزيز من السوفيت[٥٤].

---

[٥٣] انظر: جمال محمود حجر: "إنهاء الملك عبد العزيز للامتيازات الأجنبية في الحجاز، ١٩٢٦ -١٩٢٧"، الدارة، العدد الأول، السنة العاشرة، (يونيه ١٩٨٤).

[٥٤] Jordan to Chamberlain, Telegram No. ٢٣, ٢٤. Feb., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٣١.

إن الطريقة التي قدم بها الاتحاد السـوفيتي اعترافه بعبد العزيز آل سـعود ملكا في الحجاز، وحرصـه على لفها في إطار من السـرية، والطريقة التي كشـف بها عبد العزيز عن سـرية الاعتراف السـوفيتي به قبل أن تعترف به بريطانيا، والطريقة التي صـاغ بها جوردن الخبر إلى حكومته في لندن، جميعها تؤكد على أن الأطراف الثلاثة كانت تعمد إلى ذلك. فالسـوفيت أرادوا إعلان اعترافهم في إطار من السـرية، اعتقادًا منهم أن ذلك سـيكون أسـرع وسـيلة لإبلاغ بريطانيا بهذه الخطوة، وبالتالي وضـع إسـفين في العلاقات البريطانية ـــ السـعودية، وهو أحد الأهداف الرئيسـية للسـوفيت في الحجاز. أما الملك عبد العزيز فقد سـارع بإبلاغ البريطانيين ليسـتحثهم على الاعتراف به، وكان ذلك هدفًا رئيسـيًا من بين أهدافه التي يسـعى من خلالها لتثبيت مركزه الدولي. وأما جوردن فقد أعطى الأولوية لمخاوف الملك عبد العزيز من السـوفيت، وهي المخاوف التي قدمها عبد العزيز عن قصـد بهدف الوصـول إلى تحقيق مصالحه الخاصة. وهكذا دخل عبد العزيز طرفًا في لعبة السياسة الدولية بين قوتين كبيرتين لأول مرة.

لقد كانت بريطانيا تعلم مبكرًا بخطى النشـــاط الســـوفيتي في الحجاز، كما كانت تعلم بالخط الإستراتيجي العام للسوفيت للتغلغل في العالم الإسلامي، ولذلك لم يكن نبأ تقدم الســوفيت عليها في الاعتراف بعبد العزيز مفاجأة كبرى لها. خاصـة وأنها الدولة الوحيدة المتمتعة بالنفوذ في جل أركان شبه الجزيرة العربية وما حولها. لذلك فلا عجب ان نرى أن أول صـيحة تحذير ضـد الخطر الشـيوعي على المصـالح البريطانية في منطقة الشرق الأوسط تخرج من مصر التي كانت بيئتها أكثر استعدادًا لتقبل الأفكار الشيوعية.

ففي ٢٠ فبراير عـام ١٩٢٦ وقبـل أربعـة أيـام من برقيـة جوردن بجـدة إلى حكومتـه في لنـدن، كتـب لورد لويـد **Lord Lloyd**، المنـدوب الســـامي البريطـاني في القاهرة، إلى تشمبرلين، وزير الخارجية البريطانية، يستفسر منه صراحة عن أنسب الظروف التي ستكون فيها لندن مستعدة لإفساد العلاقات السعودية ـ السوفيتية الناشئة[٥٥].

---

[٥٥] Lord Lloyd (Cairo) to Chamberlain, ٢٠. Feb., ١٩٢٦, E١٤٢٦/١٤٢٦/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٤٦.

لم يكن لورد لويد ـــ في الواقع ـــ يخشى النتائج السلبية لنشوء العلاقات السعودية ــ السوفيتية، لأنه كان يعلم حجم النشاط السوفيتي في آسيا، وكان يرى أن الوزن الحقيقي للإتحاد السوفيتي كدولة ناشئة وقوة مؤثرة في هذه المرحلة كان وزنًا متواضــعًا. ولكن لورد لويد وقع تحت تأثير مخاوف المســئولين البريطانيين العاملين معه في القاهرة. وقد تركزت تلك المخاوف حول احتمال ظهور تفوق سوفيتي في الأراضي الإسلامية المقدسة، فإن نجح السوفيت في ذلك، وهو أمر رأوه باهتًا، فإن الســوفيت يكونون بذلك قد وضــعوا أول مســمار في نعش الإمبراطورية البريطانية في الشرق، لأن ذلك سوف يحقق هدفين رئيسيين للإتحاد السوفيتي.

الهدف الأول، ويتمثل في نجاح السوفيت في الإفلات من الحصار، الذي تضربه بريطانيا وحليفاتها الغربيات حول الاتحاد السوفيتي، وذلك عن طريق مخاطبة العناصر الإسلامية في المناطق المجاورة له في آسيا، لا عن طريق عبور الحدود مباشرة إليها، لأن ذلك كان أمرًا مستحيلاً، لوقوع أراضي هذه العناصر الإسلامية تحت الاستعمار أو النفوذ البريطاني، وإنما عن طريق مخاطبة هذه العناصر في موسم الحج في الحجاز.

والهدف الثاني، الذي كان السوفيت يسعون لتحقيقه هو إعلان تحديهم للتفرد البريطاني بالنفوذ في جزيرة العرب، ذلك أنها تتميز بموقع مؤثر في عدة محاور. الأول محور العالم الإسلامي، والثاني محور الانطلاق إلى أفريقيا، والثالث محور الاتصالات الرابطة بين أجزاء الإمبراطورية البريطانية، انطلاقا من أن الجزيرة العربية تطل على شريانين مائيين رئيسيين يصلان بين الشرق والغرب

هما البحر الأحمر والخليج العربي، كما أنها تطل على شـــريان ثالث وهو طريق المحيط الهندي بين جنوب أفريقيا والشرق الأقصى. فإن نجح السوفيت في أن يكون لهم حضور قوي في أي من هذه المحاور أو فيها جميعًا، فإنهم بذلك يكونون قد نجحوا في هدم حوائط العزلة التي حاول البريطانيون إبقاءهم وراءها.

لم تكن بريطانيا مستعدة للتنازل عن تفردها بالنفوذ في الجزيرة العربية، وكان ذلك مبدأ رئيســيًا في الســياســة الخارجية البريطانية، تأكد خلال الحرب العالمية الأولى. ولهذا بعثت وزارة الخارجية البريطانية إلى ممثلها في جدة تأمره، في ١١ مارس عام ١٩٢٦، أن يعمل على افتعال أزمة في العلاقات السعودية .السوفيتية الناشئة. وهكذا بدأت تتشكل خيوط أول مواجهة سياسية بين بريطانيا والاتحاد السوفيتي في جزيرة العرب. فقد منحت وزارة الخارجية البريطانية الوكيل الســياســي في جدة كل الصلاحيات الضرورية لتنفيذ هذا المخطط.

وإزالة "العار" الذي لحق بالبريطانيين نتيجة لنجاح السوفيت في المبادرة بالاعتراف بعبد العزيز آل سعود ملكًا على الحجاز، وتأسيس علاقات طيبة معه. ومما لا شك فيه أن هذا المخطط البريطاني كان سريًا[٥٦].

لم تتهيأ لجوردن فرصة تنفيذ خطة وزارة الخارجية البريطانية، فلم يكن في وسعه أن يتحرك بحرية في الحجاز كما كان حكيموف يفعل. ومثل تلك الخطة كانت تقتضي إجراء اتصالات مباشرة مع الملك عبد العزيز. ولكي يتم لجوردن ما يريد فإن عليه أن يسقط حساب الوقت وأهميته،

[٥٦] Spring Rich (F. O.) to Jordan, ١١. March, ١٩٢٦, E١٤٢٦/١٤٢٦/٩١, F.O. ٣٧١/١١٤٤٦.

وينتظر حتى يكون الملك عبد العزيز في جدة أو قريبًا منها، لأن زيارة جوردن لمكة أو المدينة كانت مستحيلة في كل الأحوال. ولم تكن قنوات الاتصال[٥٧] من التطور وقتئذ بحيث يمكن إيجاد وسيلة بديلة مناسبة لتحقيق هذه المهمة السرية[٥٨].

لقد استشعر جوردن الدونية لكونه مسيحيًا، غير مسموح له بزيارة المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) بينما يحق لزميله حكيموف أن يفعل ذلك في أي وقت. كما أنه أدرك أن زميله يتمتع بميزة لا يتمتع هو ولا غير المسلمين بها، وقد ترك ذلك آثارًا سيئة لدى البريطانيين،

---

[٥٧] للمؤلف مجموعة دراسات عن قنوات الاتصال ونشأة التمثيل الدبلوماسي والقنصلي بين بريطانيا وعبد العزيز آل سعود ١٩١٤ – ١٩٣١، نشر منها:

أ- "تبادل التمثيل الدبلوماسي البريطاني السعودي ١٩٢٩ – ١٩٣٠"، **حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر**، العدد ١٢ (١٩٨٩).

ب- "سير أندرسون وأزمة التمثيل الدبلوماسي البريطاني في جدة ١٩٣٠ – ١٩٣١"، **حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر**، العدد ١٤ (١٩٩١).

[٥٨] Jordan to Chamberlain, ١٠. April, ١٩٢٦, E٢٩١٧/٤٢٦/٩١ F.O. ٣٧١/١١٤٤٦.

ولم يكن في وسعهم تغيير الوضع القائم. ولكن سرعان ما أدرك جوردن أن ما يتمتع به حكيموف ليس امتيازًا خاصًا للوكيل السوفيتي، وإنما هو حق له باعتباره مسلمًا. وقد عاب كثير من زعماء الحركات الوطنية في البلاد الإسلامية على الحكومة البريطانية فشلها في اختيار ممثلها في الأراضي المقدسة من بين المسلمين ذوي الكفاية، والموجودين في كل مكان من إمبراطوريتها الواسعة. بينما امتدحوا للسوفيت حرصهم على أن يكون نائبهم مسلمًا. والواقع أن الملك عبد العزيز لم يحرص على اشتراط أن يكون ممثلو الدول الأجنبية من بين العناصر الإسلامية، ولم تكن مسائل التمثيل الدبلوماسي وتطويره تشغل باله وقتئذ، لأنه كان حريصًا بالدرجة الأولى على تدعيم ركائز حكمه بالداخل لتحقيق الأمن في ربوع ممتلكاته الواسعة. وعلى المستوى الخارجي كان هدف الملك عبد العزيز الحصول على تأييد القوى الكبرى لتحقق له الأمن الخارجي وتساعده على كسب أرضية قوية في الأوساط الخارجية.

هكذا لم يتمكن جوردن من تنفيذ خطته في إفســـاد العلاقات الســـعودية . الســـوفيتية للســـبب الذي ذكرناه. ولكن البريطانيين كانوا حريصـــين على أن يعلنوا من حين إلى آخر أنهم متفردون بالنفوذ في شـــبه الجزيرة العربية، وأنهم متفوقون في كل أرجائها. أما الســـوفيت فكانوا يســـعون في صـــمت نحو تثبيت أقدامهم في أي ركن من أركان الجزيرة العربية، وكانوا على يقين من أن أي كســـب للســـوفيت مهما كان ضـــئيلاً فإنه بحســـاب الأرباح والخســـائر، إنما يؤخذ من رصـــيد بريطانيا في الجزيرة العربية.

الملك عبد العزيز بين السوفيت والبريطانيين:

ومن بين المحاولات السوفيتية الجديرة بالدراسة، والتي تُبرز اهتمام السوفيت بالحجاز بوضوح، أن جوردن كتب إلى تشمبرلين، في ٢٩ ديسمبر عام ١٩٢٥، عن حوار دار بينه وبين عبد العزيز آل سعود، في ١٧ ديسمبر من نفس العام يتعلق بالنشاط السوفيتي في الجزيرة العربية، ولم يكن عبد العزيز قد صار بعد ملكًا على الحجاز. وطبقًا لرواية جوردن، قال له عبد العزيز: إن السوفيت يعدون الثوار الدروز في لبنان بالأموال عن طريق عناصر لا يشتبه في أنهم شيوعيون، وأن تلك العناصر كانت سعيدة لمشاركتها في مناوئة النفوذ الفرنسي. وأضاف عبد العزيز أن مركز هذه العناصر الشيوعية موجود بدمشق، وأنه يتخذ من القنصلية الإيرانية هناك مقرًا، وأنه يثق في مصدر هذه المعلومات[٥٩].

---

[٥٩] Jordan to Chamberlain, ٢٩. Dec., ١٩٢٥, E٣٦٤/١٨٠/٩١, F.O. ٣٧١/١١٤٣٧.

ولعل ذلك يفيد في فهم عمق الصلة بين الدروز وإيران اليوم.

ربما ساور البريطانيين الشك حول رواية عبد العزيز عن النشاط الشيوعي في سوريا، ولكنهم لم يشغلوا أنفسهم بالتحقق من صحتها، لأنها لم تكن تعنيهم بنفس القدر الذي كانت تعني الفرنسيين.

يبقى أن نعرف ما الذي كان في رأس عبد العزيز حين عرض هذه القصة على جوردن تطوعًا؟ ترى هل كان يسعى إلى تحذير البريطانيين من احتمال امتداد النشاط السوفيتي إلى الجزيرة العربية؟ وفي هذه الحال ـ إن صح التقدير ـ سيكون عبد العزيز بالضرورة أحد عناصر مقاومة هذا النشاط، وأنه يكون متضررًا من احتمالات المستقبل إذا قدر السوفيت أن ينجحوا في توسيع دائرة نشاطهم، خاصة وأن أراضيه قد صارت تمتد لتشمل معظم شبه الجزيرة العربية، وأن ملاحقته للنشاط السوفيتي قد تكون مستحيلة بغير عون من بريطانيا.

ومن جهة أخرى قد يكون عبد العزيز غير متضـرر من السـوفيت، ولكنه يعلم حقيقة علاقاتهم ببريطانيا، وأنه أراد اسـتثمار موقف دولي لخدمة أغراضـه الخاصـة، وأن بريطانيا قد تلجأ إليه طلبًا للمسـاعدة في التصـدي للسـوفيت، وعندئذ فإنه يسـتطيع أن يملي شـروطه وأن يؤمن صـداقة بريطانيا له، وتهيئتها لمواصلة دعمه سياسيًا واقتصاديًا باستمرار التأكيد على الخطر السوفيتي المحتمل على جزيرة العرب.

إن صـح أي من التفسـيرين السـابقين أو كلاهما، فإن ذلك يعني أن عبد العزيز آل سعود كان على دراية واسعة بمجريات السياسة العالمية، فضلاً عن وعي كامل بتطور الأوضـاع في مختلف منطقة الشـرق الأوسـط، وأنه كان دائمًا حريصًا على أن يحسـب حسـابات المسـتقبل في وقت مبكر، وبذلك يسـتحق أن يطلق عليه لقب "داهية الجزيرة العربية".

وإذا كان عبد العزيز غير معني بالقصة السابقة، فإنه كان طرفًا في القصة التالية. ذلك أنه في نفس اللقاء السابق مع جوردن قال، والرواية لجوردن، إن الوكيل السوفيتي جاءه إبان حرب الحجاز وتحاور معه حول عدد من القضايا. وأثناء الحوار لم يتردد الوكيل السوفيتي في أن يسأل عبد العزيز عن أغلى أمانيه، وجاء السؤال مفاجأة غير متوقعة لعبد العزيز، الذي لم يستطع أن يقدم لحكيموف إجابة فورية، ولكنه قال في النهاية: "ربما يكون المال". فأجابه حكيموف على الفور بأنه مستعد لأن يقدم له ما يطلب من المال، ولكنه عاد وسأل عبد العزيز عما إذا كان يريد شيئًا آخر، فأجابه عبد العزيز "السلاح والذخيرة"، وكان هذا المطلب الأخير مطلبًا ملحًا، فرضته ظروف الحرب على الحجاز، وإدراكًا من حكيموف لاحتياجات الملك عبد العزيز التي عرضها على استحياء،

أضاف حكيموف مقاطعًا مضيفه قائلاً: "والطائرات والمدافع أيضًا إذا كنت تريد". وعندئذ ازدادت دهشة عبد العزيز وصاح قائلاً لضيفه "هذا صحيح، ولكن ماذا تريد أنت مني؟". فأجاب حكيموف هناك بالطبع بعض المطالب،ولكن أهمها الآن: "أن تختلف مع الإنجليز"[٦٠].

لقد صار مؤكدًا الآن بعد عرض هذه الرواية أن كلاً من الروس والبريطانيين كان يحاول أن يضرب الآخر مستخدمًا عبد العزيز أداة لتحقيق هذا الغرض. فجوردن مكلف بمهمة سرية غايتها إفساد العلاقات السعودية ــ السوفيتية، وحكيموف يحاور عبد العزيز كي يختلف مع الإنجليز. وقبل أن نواصل الحديث حول الأساليب المضادة التي يستخدمها كل من السوفيت والإنجليز، يجدر بنا أن ننقد رواية عبد العزيز الأخيرة نقدًا تاريخيًا في محاولة لإدراك مدى صحتها.

[٦٠] Ibid.

وبيان الهدف من ترديدها على مســامع جوردن من جهة، وأهمية عنصــر التوقيت في ذكرها من جهة أخرى، بصــرف النظر في هذه الحالة عما إذا كانت صحيحة أو أن بها شيئًا من الصحة أو مختلقة.

إن أول ما نراه في رواية عبد العزيز أنها تدعو إلى إفساد العلاقات البريطانية - السـعودية، لصـالح السـوفيت، تمامًا كما دعا البريطانيون من قبل لخلق أزمة في العلاقات السـوفيتية - السـعودية، وهذا يعني ببسـاطة أن عبد العزيز آل سـعود وبلاده قد صارا هدفًا للسياستين السوفيتية والبريطانية. فهو قد أثبت ــ بما لا يدع مجالاً للشك . أنه شخصية قوية ومؤثرة، وأنه أقوى حكام الجزيرة العربية بلا منازع.

وكما هو مألوف فإن السياسات الأجنبية تبحث دائمًا عن أشخاص أقوياء، قادرين على تنفيذ التزاماتهم. أما بلاده فقد صار لها تأثير ديني يمتد إلى خارج حدودها الجغرافية، ليصل إلى كل مكان في العالم الإسلامي، خاصة بعد أن ضم إليها الحجاز. فالبريطانيون يريدونها أن تدور في فلكهم ليطلوا منها على العالم الإسلامي، الذي يقع قطاع كبير منه في دائرة النفوذ أو الاستعمار البريطاني، وذلك سيساعد بريطانيا على رسم سياسة محكمة تجاهه. أما الاتحاد السوفيتي فيريد أن يصل إلى الأماكن الإسلامية المقدسة ليتمكن من خلالها من ضرب النفوذ والمصالح البريطانية في العالم الإسلامي. وهكذا فإن الوسيلة واحدة، ولكن الهدف مختلف.

لقد صار الوصول إلى مكة وسيلة دائمة وهدفًا مرحليًا، كي يتمكن أحد الطرفين من خلالها أن يضرب الطرف الآخر في كل أرجاء العالم الإسلامي، وبالتالي فإنها قد صارت في النهاية وسيلة حيوية لتحقيق أهداف أحد الطرفين المتصارعين (البريطانيون والسوفيت) أو كليهما معًا، وذلك بأن يقضي أحدهما على الآخر خارج أراضيه، أو يقضيا على بعضهما خارج أراضيهما.

فإذا افترضـنا أن هذه الرواية صحيحة، فإن ذلك يعني أن عبد العزيزكان يعي جيدًا أهمية اســتمرارعلاقاته ببريطانيا وتقويتها، كما أنها تعني أنه كان يؤثر التعامل مع بريطانيا على التعامل مع الاتحاد الســوفيتي، الذي تحجبه عنه اعتبارات كثيرة. أهمها ما يتعلق بالفكروالعقيدة. وأن عبد العزيزفي هذه الحالة يكون حريصًا على أن ترد بريطانيا بالمقابل فتزوده بما يحتاج فعلاً من مال وسلاح، كما ذكرفى الرواية.

وبالرغم مما ســبق، فإن الأمر لا يخلو من احتمال أن عبد العزيز اختلق الرواية كلية، أو أنه على الأقل طورها بحيث تخرج في الشكل الذي رأيناه، علها تنبه بريطانيا إلى الأهمية الحقيقية لبلاده، وإلى الدور الذي يمكن أن يضــطلع هو به في المنطقة.

وفي كل الأحوال فإن ترديد هذه الرواية على مسامع الوكيل السياسي البريطاني إنما يعكس بجلاء نغمة ذكاء سياسي لدى عبد العزيز، فقد كان الخيار البريطاني أمامه هو أفضل الخيارات المطروحة. ومع إدراكه أن الخيارين البريطاني والسوفيتي لا يخلوان من آثار سلبية على بلاده، إلا أن الآثار السلبية للخيار البريطاني قد تكون أخف وطأة لدى الرأي العام الإسلامي من الآثار السلبية للخيار السوفيتي. ولا ننسى أن عبد العزيز لم يكن يثق في السوفيت لأنهم لم يكونوا أهل كتاب.

وإذا كنا نناقش هذه النقطة بناء على أفضليات دينية، فإن الأمر يحتاج إلى مناقشتها من حيث الأفضليات السياسية. ذلك أن الاتحاد السوفيتي كان حريصًا على إجراء اتصالات غير مباشرة مع العناصر الإسلامية، باعتبار أن ذلك يكون الركيزة الأولى لإزاحة الوجود البريطاني من آسيا.

وبالطبع فإنه يعود بنتائج إيجابية على الحياة السياسية للمسلمين الواقعين تحت الحكم الأجنبي. ولما كان عبد العزيز يُؤثر المهادنة على المواجهة في سياسته الخارجية في هذه المرحلة، فقد آثر التعامل مع بريطانيا على التعامل مع السوفيت.

كانت بريطانيا في ذلك الوقت ذات حضور دائم، وإن تعددت صوره، في شبه الجزيرة العربية، وفي المناطق المجاورة لها. فكانت مسئولة عن الانتداب في العراق وشرق الأردن وفلسطين، وهذه مناطق ملاصقة لبلاده، وكانت تتمتع بنفوذ خاص في إمارات الساحل العربي من الخليج، وجميعها تقع على أطراف بلاده الشرقية، وكانت تستعمر عدن وتفرض الحماية على أجزاء منها، وكانت تفرض الحماية على مصر والسودان وتحتل أراضيهما، وكانت تستعمر الصومال. هذا الحضور البريطاني المحيط بالجزيرة العربية والضاغط عليها، جعل عبد العزيز يحسب حسابات خطر بريطاني قائم بالفعل من حوله، أكثر من حسابات خطر محتمل قد يأتي من وراء وسط آسيا على أيدي السوفيت.

ومن عجب أن يرى الباحث في قراءة الوثائق البريطانية تأكيدات متتالية بشكل لافت للنظر على حرص عبد العزيز الشديد على تقوية صلاته ببريطانيا، حتى في أحلك الظروف التي خذلته فيها. وآخر هذه التأكيدات واضح في التقارير التي رفعها سير جلبرت كلايتون G.Clayton لحكومته عن المفاوضات التي جرت بينه وبين عبد العزيز آل سعود في بحره في أكتوبر ونوفمبر ١٩٢٥ والتي أسفرت عن عقد اتفاقيتي حدا وبحره[٦١].

ولكن يبدو أن التحذيرات السابقة من وجود نشاط سوفيتي خفي، مع التنبيه إلى أهمية استمرار علاقات قوية مع بريطانيا، لم يكن كافيًا لتحريك البريطانيين نحو تبني موقف صارم تجاه السوفيت في الجزيرة العربية، أو نحو توكيد نفوذهم في الجزيرة.

[٦١] Report by Sir Gilbert Clayton on his Mission to Negotiate Certain Agreements With the Sultan of Nejd, and Instruction Issued to him in Regard to his Mission , P. R. O., E. O. ٣٧١/١١٤٧٣.

والحقيقة أن البريطانيين كانوا عازفين عن إقحام أنفسهم في التصدي لأخطار محتملة إلا بقدر ما يصبح هذا الخطر المحتمل خطرًا قائمًا، وأنه يهدد المصالح البريطانية بالفعل. والدليل على صحة هذا الاتجاه لدى الحكومة البريطانية أن رد بريطانيا على مبادرة عبد العزيز لتوطيد العلاقات بينهما عن طريق إمداده بالمال والسلاح، لم يكن إيجابيًا.

كانت بريطانيا تثق في قدرتها على ردع النفوذ السوفيتي ومحاصرته داخل أراضيه، ولذلك لم تكن متحمسة للتحالف مع الملك عبد العزيز لصد هجمات السوفيت المحتملة، أو وقف دعايتهم. وهذه السياسة لا تخلو من السلبيات التي قد تسفر عن قبول عبد العزيز لعروض التعاون السوفيتي تحقيقًا لمصالحه، مقابل تخليه عن صداقته لبريطانيا.

ولا يخلو الأمر من حذق سياسي لدى البريطانيين، وكانوا أهلاً له. فلعلهم أدركوا وجود خطر سوفيتي على مصالحهم في الجزيرة العربية ولكنه لم يكن خطرًا ذا بال، وربما تيقنوا من وجود خطر شيوعي، ولكنهم كانوا يعلمون أن الشيوعية والإسلام لا يلتقيان، وإذا قبل بعض المسلمين شيئًا من الفكر الاشتراكي المتطرف، فإن مسلمي الأراضي المقدسة غير مستعدين لذلك. ومعنى هذا أن الجزيرة العربية في مجملها، منطقة حرام تتمتع بحصانة ذاتية ضد الخطر الشيوعي، وبالتالي فلا معنى لأن يجروا وراء تحذيرات حقيقية ذات نتائج وهمية.

وإذا كان عبد العزيز آل سعود قد أقدم على إقامة علاقات دبلوماسية مع السوفيت، إلا أنه لا يستطيع، بحكم مسئوليته عن الأراضي المقدسة أمام العالم الإسلامي، أن يفتح أبوابها في وجه السوفيت بغير قيود. وهذا يؤكد للبريطانيين أن هذه البلاد المقدسة محصنة تحصينًا ذاتيًا ضد أي تدخل شيوعي.

وبالتالي فإن النتيجة التي قد يكون صناع القرار البريطاني قد توصلوا إليها هي أن احتمال التفوق السوفيتي في الحجاز غير وارد. وفي كل الأحوال لا داعي لأن تظهر بريطانيا قلقها على نفوذها ومصالحها في معظم أجزاء الجزيرة العربية.

وبينما كان عبد العزيز ما يزال يعيش فرحة انتصاراته العسكرية والسياسية المتوالية، وفرحة تنصيبه ملكًا على الحجاز، حيث صارت بلاده تمتد من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، وضعت وزارة الخارجية البريطانية، في ١٠ أبريل ١٩٢٦، أصول سياستها نحوه، وهي السياسة التي تضمنت بعض المعوقات في سبيل تطوير العلاقات البريطانية ـ السعودية، وأكثر من ذلك أنها هيأت الظروف لانتكاسة شديدة في تلك العلاقات. فقد نصت المذكرة على:

"... أن حكومة جلالة الملك لا تعتزم الدخول في تعاقد مع ابن سعود لتمويله بالسلاح، وأن المعاهدة التي سبق أن وقعتها معه في ديسمبر عام ١٩١٥ تنص على إمداده بالسلاح في حالات معينة تنطبق على نجد دون الحجاز... وأن أية معاهدة جديدة للصداقة معه لن تتضمن وعدًا بإمداده بالسلاح"[٦٢].

أدى تخاذل بريطانيا عن تعزيز مركز الملك عبد العزيز في الجزيرة العربية إلى تدخل سير جلبرت كلايتون، وهو سياسي بريطاني خبير بشئون الشرق الأوسط، وله اتصالات مباشرة مع عبد العزيز، لتغيير موقف حكومته. فوجه النصح إليها في ٢١ أبريل من نفس العام بعدم التخلي عن مساندة الملك عبد العزيز أو تركه وحده في مواجهة التيارات الخارجية الضاغطة.

[٦٢] Memo on Foreign Policy of H. M. G. (UNDATED), **Documents on British Foreign Policy (D. B. F.P.)** ١٩١٩-١٩٣٩, Ser. IA, I, ١٩٦٦, pp ٨٦٣-٤.

ودفعه إلى ذلك وقوفه على حالة عدم الاستقرار العامة في الجزيرة العربية، مما قد يدفع دولاً كبرى إلى التدخل في شئونها ومنافسة الوجود البريطاني فيها، وإضعاف أو حتى إنهاء مركزها المتميز هناك[٦٣]. ومع أن كلايتون لم يشر صراحة إلى الدول المقصودة، إلا أنه كان من المفهوم لدى حكومة لندن أن الدول الكبرى المقصودة هي إيطاليا، التي كانت قد بدأت تغرس جذورها في اليمن، والاتحاد السوفيتي، الذي كان يحوم حول الجزيرة بحثًا عن موطئ قدم.

ومهما يكن من أمر، فقد شهد عام ١٩٢٦ مراجعة شاملة للعلاقات البريطانية ـــ السعودية في ضوء المتغيرات المحلية والمؤثرات الخارجية، ولكن عبد العزيز كان حريصًا على أن يؤكد لبريطانيا على أحد خيارين: الأول أن تزوده بالسلاح، والثاني أن تتركه وشأنه ليشتريه من أي مكان شاء. ولكنه في كل الأحوال لن يسكت عن زعزعة نفوذه في الجزيرة العربية.

[٦٣] Clayton to Chuckburgh (C. O.) ٢١, April, ١٩٢٦, F.O. ٣٧١/١١٤٣٧.

لقد كان عبد العزيز يفتش عن القوى الكبرى التي يمكن أن تدعمه، وكان الاتحاد السوفيتي يفتش عن موطئ قدم في الجزيرة العربية، أما بريطانيا فقد شغلت نفسها بالبحث عن الحقيقة، حقيقة قوة عبد العزيز، وحقيقة الخطر السوفيتي.

مكة في الإستراتيجية السوفيتية:

إن اعتراف السوفيت الضمني في عام ١٩٢٤ بالتفوق البريطاني في شبه الجزيرة العربية، واعتراف بريطانيا بالحكومة السوفيتية، لم يحل دون مواصلة السوفيت العمل على زعزعة هذا التفوق. بل إن طموحات السوفيت نمت إلى حد العمل على خلع جذور الاستعمار البريطاني في المناطق الإسلامية من آسيا، انطلاقًا من مكة. فقد انتهز السوفيت فرصة الدعوة لعقد مؤتمر الخلافة بالقاهرة عام ١٩٢٥، وأعلنوا اعتراضهم باسم المسلمين الروس

على أن يتم انعقاد مثل هذا المؤتمر في القاهرة دون مكة؛ فمكة هي قبلة المسلمين جميعًا، وهي المدينة المقدسة التي لا يوجد بها أي نوع من أنواع النفوذ الأجنبي. بينما تقع القاهرة تحت تأثير النفوذ البريطاني. وبالتالي فإن ذهبت الوفود الإسلامية إليها، فإنها ستفقد ــ بالضرورة ــ حريتها في التعبير عن آرائها تجاه تلك القضية المهمة التي تعني كل المسلمين[٦٤].

ليس من الضروري أن يعكس الموقف السوفيتي السابق وجهة نظر المسلمين الروس نحو قضية الخلافة. فالموقف في تقديرنا موقف سياسي مغلف بطابع ديني، يحوي تيارًا سياسيًا أكثر مما يظهر اهتمامًا دينيًا بالقضية. فالسوفيت كانوا منذ منتصف العشرينيات متأهبين للانقضاض على النفوذ البريطاني في مختلف صوره في آسيا. وها هو ذا الخلاف حول مكان انعقاد مؤتمر الخلافة يقدم لهم فرصة ذهبية في مجال محاربة النفوذ البريطاني

---

٦٤ Jeddah Report, March, ١٩٢٦, E٢٦٢٧/٣٧٦/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.

دون مواجهة، وذلك بخلق روح التذمر بين شعوب آسيا المغلوبة على أمرها، وخاصة تلك الواقعة تحت الاستعمار أو النفوذ البريطاني.

أما إذا كان الأمر غير ذلك، وكان الموقف السوفيتي يعكس بالفعل وجهة نظر المسلمين الروس، وهو احتمال ضعيف للغاية، لأننا لم نقف على دليل يؤيده، فلم يكن الأمر يزعج البريطانيين كثيرًا، لأن قضية الخلافة الإسلامية لا تعني بريطانيا وحدها، وإنما تعني كل المسلمين، وهؤلاء منقسمون على أنفسهم بشأنها، وهو موقف يعزز المصالح البريطانية، ولا يهيئ فرصًا لنجاح النشاط السوفيتي المتربص. وبالتالي فلا داعي أن يقلق البريطانيون من تستر السوفيت وراء كواليس مسألة الخلافة. وإذا كانوا قد استشعروا شيئًا من تلك المخاوف، فإن الأمر بالطبع متروك لتطورات الأحداث لتكشف حقيقته، على طريقة دعنا ننتظر ونرى ما سيحدث Wait and See، وهو أسلوب يستخدمه البريطانيون كثيرًا عندما يكونون واثقين من مواقفهم في تناول القضايا الرئيسية.

ومهما يكن من أمر حقيقة الموقف السوفيتي، فإن الوكيل السياسي البريطاني في جدة لم يعره اهتمامًا، وكذلك أهملته حكومته في لندن. ولا نرى سببًا لذلك غير ما ذكرناه في تحليلنا السابق للمواقف، فضلاً عن ضعف نفوذ السوفيت الفعلي في الحجاز. وهو نفوذ لا يتخطى من الناحية الجغرافية مدينة جدة وميناءها.

أما فكرة اقتراح مكة مكانًا لانعقاد مؤتمر الخلافة سواء أكانت مطروحة من جانب مسلمي روسيا مباشرة، أو من جانب الحكومة السوفيتية باسم مسلمي روسيا، فهي فكرة ذكية لأن طرحها على هذه الصورة يجنبها معارضة أي من الوفود الإسلامية. ومن هنا يأخذ الروس بزمام المبادرة وتزداد فرص نجاح النشاط السوفيتي في تحقيق أحد هدفين:

الهدف الأول: تجميع المسلمين ضد النفوذ البريطاني في الشرق من خلال حضور سوفيتي متمثل في الوفد الروسي إلى المؤتمر وفي غياب تأثير بريطاني حقيقي أو مباشر في مكة. والهدف الثاني: تهيئة الفرصة للملك عبد العزيز آل سعود، الذي يمكن أن يقدم له عقد مثل هذا المؤتمر في بلاده فرصة للدعاية لنفسه، بين وفود العالم الإسلامي، حتى وإن كان هو شخصيًا عازفًا عن منصب الخليفة[٦٥]. وبالتالي تتوطد العلاقات السعودية - السوفيتية على حساب العلاقات السعودية - البريطانية. وفي هذه الحال يكون السوفيت قد نجحوا في تحقيق أمرين في وقت واحد: الأول كسب التأييد الإسلامي، والثاني ضرب النفوذ البريطاني.

---

[٦٥] See: Revue du Monde Musulman, IXIV, ١٩٢٦; Toynbee, A., **Survey of International Affairs** ١٩٢٥, (London: ١٩٢٧).

كان رد الفعل البريطاني تجاه الإستراتيجية السوفيتية المبنية على اعتبار مكة مركزًا للدعاية ضد بريطانيا هادئًا. فقد رأى جوردن، ووافقته حكومته فيما ذهب إليه[٦٦]، أن بقاء الوكالة السياسية السوفيتية في جدة صار في ظل الظروف الجديدة أكثر أهمية لبريطانيا عن ذي قبل، لأن اختفائها ــــ إذا نجحت بريطانيا في تحقيقه، وهو أمر مستبعد، أو على الأقل إحداث شرخ في العلاقات السوفيتية. السعودية، سوف يؤدي إلى قيام مجموعة من العملاء السوفيت، ربما ينطلقون من إيران، أو من غيرها، للعمل سرًا ضد المصالح البريطانية، وتكون السيطرة على مثل هذا النشاط في مثل هذه الظروف عملية صعبة ومعقدة، بينما لو تُركت الوكالة السوفيتية لممارسة نشاطها بصورة علنية، وفي صيغة رسمية، يكون أمر التعامل معها هينًا، وفي مثل هذه الحال الأخيرة، يمكن تضييق الخناق عليها إلى الحد الذي يشل تأثيرها ونفوذها، دون التخلص منها.

---

[٦٦] F. O. to Jordan, ١٥ .May, ١٩٢٦, E٢٩١٧/١٤٢٦/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٤٦.

ومما ساعد في تكوين الرأي السابق، أن جوردن كان يعتقد ـــ ولم يكن على صواب في اعتقاده أن زميله السوفيتي "لم يكن شخصًا ذكيًا، بل كان دائم الشرب، سكيرًا ومريضًا، وأن سلوكياته العامة كافية للإساءة للمصالح السوفيتية أكثر من تحقيق النفع لها". ويدعم جوردن وجهة نظره في حكيموف بقوله: أن صحفيًا أمريكيًا سأل حكيموف بطريقة فجة عنا إذا كان يقوم بالدعاية للسوفيت في الحجاز، فأجاب حكيموف ـــ على حد تعبير جوردن ـــ "ولماذا أقوم بعمل الدعاية في الحجاز، ليس لي مصلحة هنا، إنهم الإنجليز الذين يحتاجون إلى ذلك ... "[٦٧].

[٦٧] Jordan to Chamberlain, ١٠. April, ١٩٢٦, E٢٩١٧/٤٢٦/٩١ F.O. ٣٧١/١١٤٤٦.

لا شـــك في أن جوردن قد خُدع في حكيموف، ولم يدرك ذكاءه الســـياســـي وإجابته الماكرة، التي ســـعى بها إلى إبعاد الشـــبهات عنه، وقد نجح فعلاً في إيقاع جوردن في شراكه. فقد كان حكيموف يعمل سرًا، أكثر مما كان يعمل علنًا، من أجل تحقيق مصالح بلاده السياسية، فهو يتظاهر بفعل أمور ويعمل غيرها، ويخلق نوعًا من البلبلة والشك بين زملائه، ويؤكد هذا الاتجاه لدينا، ما أورده جوردن نفسه في رسالته إلى لندن، في أبريل من عام ١٩٢٦، حين يقول: لقد تحدث الوكيل السوفيتي إلى زميله الهولندي ذات مرة قائلاً "لماذا أنا هنا إن لم أنشر الأفكار الشيوعية"[٦٨].

ولكن كيف كان حكيموف يمارس نشـــاطه الدعائي؟ الواقع أننا لم نقف صراحة على ما يفيد ذلك بشكل مباشر. ولكن خطة حكيموف وتحركاته كانت تثير الشبهات دائمًا بسبب عدم وضوحها.

---

[٦٨] Ibid.

فهو يعلن أنه باق في مكة إلى ما بعد انتهاء موسم الحج ــ رغم حر الصيف الشديد فيها ــ لينظم الدعاية الشيوعية بين جموع الحجاج. ولكن جوردن، الذي كان يرقب نشاط حكيموف، لم يستطع أن يقدم لنا دليلاً واحدًا على ذلك النشاط. ويعود حكيموف ليعلن من جديد أنه مريض، ولا يتحمل حر الصيف في مكة، وأنه راغب في التغيير. عندئذ ساد الاعتقاد بين زملائه في جدة أنه ذاهب إلى أسمرة في إرتريا، لإقامة مركز للدعاية الشيوعية هناك، لينطلق السوفيت منه إلى السودان وأفريقيا. وهكذا جعل حكيموف زملاءه مشغولين بأمره عن قصد، فمرة هو مريض ولا يقدر على البقاء في مكة، ومرة هو عفي قادر على الذهاب إلى العمل في إرتريا، وثالثة هو باق بالحجاز لنشر الدعاية السوفيتية بين الحجاج. وتفيد هذه الإشارة الأخيرة إلى أن السوفيت قد بدأوا الاستعداد لمنازلة البريطانيين والإيطاليين في آن واحد من خلال التطلع إلى إرتريا.

ومهما يكن من أمر، يبقى أسلوب حكيموف الدعائي غامضًا، ويبقى الأمل معقودًا على الاستقراء التاريخي للأحداث لنستنتج منها ما لم يستطع المراقبون المعاصرون كشفه. وبالرغم مما سبق فقد كان جوردن لا يزال يعتقد في أن مجرد وجود حكيموف على رأس البعثة الدبلوماسية السوفيتية في جدة كفيل بتهدئة خواطر البريطانيين. فقد كتب جوردن إلى حكومته يقول "إذا حل شخص آخر محل حكيموف فسيكون من المناسب وقتئذ العمل على تصفية الوكالة السوفيتية"[٦٩] ما يعني أن حكيموف كان يمارس دورا غامضا بغير تأثير حقيقي.

ولكن الإقدام على تصفية الوكالة السوفيتية بجدة لم يكن تحت أي ظرف أمرًا سهلاً بالنسبة لبريطانيا، لأن الاتحاد السوفيتي كان أول دولة تعترف بعبد العزيز آل سعود ملكًا على الحجاز، وبالتالي فإن الملك عبد العزيز لم يكن ليضحي بالسوفيت بهذه السهولة.

[٦٩] Ibid.

ومن جهة أخرى فهو في حاجة إلى تأييد كل المسلمين لحكمه بمن فيهم مسلمو روسيا، الذين كان لهم وزن كبير من حيث العدد على الأقل، والذين يمكن أن يكون لهم تأثير ما على حكومتهم، فضلاً عن أنه من بين هؤلاء المسلمين الروس يأتي عدد لا بأس به، يبلغ ما بين ٣٠ إلى ٣٦ ألفًا من الحجاج كل عام، وهؤلاء جميعًا يعتمدون اعتمادًا رئيسيًا على التسهيلات التي يقدمها لهم حكيموف. ويرى جوردن أن الخطر الحقيقي يكمن في ذلك العدد الكبير من الحجاج الروس، وأن العمل على إنهاء الوجود السوفيتي الرسمي لن يحل المشكلة[٧٠]. كما أنه لن يؤثر على أعداد هؤلاء الوافدين والذين يمكن أن يشحنوا بالأفكار الشيوعية قبل وصولهم إلى الحجاز. وعند التقائهم بمختلف الوفود الإسلامية، وتبادل أطراف الحديث معهم، تنتقل إليهم هذه الأفكار بقصد أو بغير قصد، وبذلك يكون الحجاج قد قاموا بما لا تستطيع أي جهة رسمية سوفيتية أن تقوم به.

[٧٠] Ibid.

ولما كان معظم الحجاج يأتون من بلاد تخضع للنفوذ البريطاني في شكل أو في آخر، فإن هذا النفوذ إنما يكون واقعًا تحت تأثيرات الدعوة إلى القومية، ومحاربة الاستعمار، والحرية، والاستقلال. وجميعها كانت كلمات لها سحر خاص لدى الشعوب المغلوبة على أمرها.

رأت لندن أن النشاط السوفيتي الرسمي كان باهتًا وضعيفًا. ولا يستحق أن تشغل وزارة الخارجية نفسها به، ولذلك بعث تشمبرلين إلى جوردن ينصحه بعدم اتخاذ أي موقف معاد للسوفيت في الحجاز[٧١]. وفي نظر الحكومة البريطانية فإن الاتحاد السوفيتي كان لا يزال قوة ضعيفة، ولن يكون في مقدوره أن يصبح قوة عسكرية تستطيع أن تتحدى بريطانيا في منطقة الشرق الأوسط على وجه الخصوص، إلا في حالة واحدة هي قيام حركة ثورية ناجحة موالية للسوفيت في هذه المنطقة.

[٧١] F. O. to Jordan, ١٥ .May, ١٩٢٦, E٢٩١٧/١٤٢٦/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٤٦.

وبالرغم من النجاح الجزئي للسـياسـة السـوفيتية في التأثير دعائيًا على قرارات بعض الدول انطلاقًا من عوامل داخلية تعني تلك الدول بالدرجة الأولى، إلا أن خطر الاتحاد السوفيتي على بريطانيا كان لا يزال أقل تأثيرًا عليها من خطر روسيا القيصـرية. واسـتبعد البريطانيون أن يكون السـوفيت مصـدر خطر على الجزيرة العربية، ولكن خطرهم الحقيقي يمكن أن يقع في قلب آسـيا وفي الشـرق الأقصـى، وهذا صحيح إلى حد كبير. ومع ذلك فسوف يبقى الاتحاد السوفيتي لسنوات طويلة غير قادر على نقل الحرب خارج حدوده. فإن اسـتطاع ذلك فإن جميع المصـالح البريطانية في الشرق ستتعرض لخطر حقيقي[٧٢].

[٧٢] F. O. Memo, ١٠. April, ١٩٢٦, **Documents on British Foreign Policy (D. B. F.P.)** ١٩١٩-١٩٣٩, Series IA, I, pp ٨٣٧-٨.

على كل حال، لم يحضر الوفد الروسي المسلم مؤتمر الخلافة بالقاهرة، مؤثرًا عليه المؤتمر الإسلامي الأول الذي دعا إليه الملك عبد العزيز بعد موسم الحج مباشرة. ولكن يبدو أن هذا الموقف لم يرق لبعض العناصر التي رأت أنه يمكن الاستفادة من حضور المؤتمرين. فمؤتمر القاهرة يسبق مؤتمر مكة بقليل ويفصلهما موسم الحج. وانتهى الأمر إلى إرسال وفدين أحدهما وفد صغير إلى القاهرة، وبعد انفاذ هذه المهمة يسعى للحاق بالوفد الآخر المتوجه إلى مكة. وقد واجه وفد القاهرة مصاعب كبيرة، حين أراد مغادرتها إلى مكة تمثلت في إجراءات السفر المعقدة التي وضعها المسئولون البريطانيون أمام أعضائه. وفي النهاية وصلوا إلى الحجاز ساخطين على الإدارة البريطانية في مصر، وظهر ذلك بوضوح في علاقاتهم بالوفد المصري غير الرسمي إلى مؤتمر مكة[٧٣].

[٧٣] Jeddah Report, July, ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.

لم يكن الإعداد الروسي لمؤتمر الخلافة بالقاهرة إعدادًا جيدًا، وبالتالي فلا ينتظر منهم أن يكونوا قد ساهموا مساهمة فعالة فيه. وحدث الشيء نفسه في مكة، فلم يظهر الحجاج الروس نشاطًا سياسيًا ملحوظًا في صيف عام ١٩٢٦، لأن معظمهم "كان شيوعيًا بالمصلحة، وليس شيوعيًا بالفكر"[٧٤]. وهذا طبيعي لأن الإسلام والشيوعية لا يلتقيان في شخص واحد، أي أن المسلم يصعب عليه أن يكون شيوعيًا بالفكر في نفس الوقت، وعلى هذا فإن شيوعية مسلمي روسيا كانت شيوعية سياسية، وليست شيوعية عقائدية، فهم مرتبطون ببلادهم سياسيًا، أما فكرهم وعقولهم فمع المسلمين، ولعل هذا الوضع الخاص هو الذي يسر لهم ترتيب الدور السياسي الذي اضطلعوا به في نشر الشيوعية السياسية، وفي محاربة الاستعمار الغربي في بلاد المسلمين، وهي مهمة يلتقون حولها بسهولة مع حكومتهم في موسكو ومع إخوانهم المسلمين.

[٧٤] Jeddah Report, March, ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.

وهكذا يتضح أن الإستراتيجية السوفيتية تجاه الشرق الإسلامي، قد استفادت استفادة جيدة من كافة الإمكانيات المتوفرة لديها لاستثمار العناصر الإسلامية بالرغم من التضارب الأيديولوجي معها، لخدمة الاتجاهات السياسية السوفيتية في الشرق الإسلامي. وفي هذه المرحلة يمكن القول إن التوجهات السوفيتية في الشرق الإسلامي كانت سياسية في المقام الأول.

نشاط الوفد الروسي في مؤتمر مكة:

حين دعا الملك عبد العزيز العالم الإسلامي في ٢٨ أبريل ١٩٢٦ إلى مؤتمر يعقده في مكة بعد موسم الحج في صيف العام نفسه. شملت الدعوات جميع الحكومات الإسلامية والجماعات والأقليات الإسلامية في دول غير إسلامية[٧٥]. وبالطبع تلقت النظارة الدينية المركزية في روسيا هذه الدعوة. ورحب بها رئيس النظارة ضياء الدين بن فريد الدين. وقرر إرسال وفد روسي إلى المؤتمر المقترح لتهنئة الملك عبد العزيز بضم الحجاز، والمشاركة في مناقشة قضايا الحرمين الشريفين، والعمل على توفير وسائل الأمن والراحة للحجاج الروس[٧٦].

---

[٧٥] Jeddah Report, April, ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.

[٧٦] انظر: **أم القرى**، ٣٠ أبريل ١٩٢٦.

كان الوفد الروسي إلى المؤتمر الإسلامي بمكة وفدًا ممثلاً لمسلمي روسيا، ولم يكن وفدًا رسميًا ممثلاً لحكومة الاتحاد السوفيتي. أما علاقة الوفد بالحكومة السوفيتية فهي علاقة غير معروفة أو غير معلنة، ولم نقف على مادة وثائقية تحددها. وعلى ذلك فلن نعتبر نشاط هذا الوفد نشاطًا حكوميًا مالم تتوافر القرائن الدالة على ذلك. ويفهم مما كتبه جوردن، الذي كان مسئولاً أمام حكومته عن متابعة نشاط الوفد الروسي أن الوفد كان معنيًا منذ وصوله إلى الحجاز بالقضايا الدينية والسياسية المتعلقة بالحجاز فقط، ولم يظهر نشاطًا سياسيًا أو فكريًا متعلقًا بالبلشفية أو بالاتحاد السوفيتي[٧٧].

وكما هو الحال في مختلف المؤتمرات، كانت الأيام السابقة على موعد انعقاد جلسات المؤتمر الإسلامي الأول فرصة طيبة أمام الوفود الإسلامية للتشاور والتحاور بطريقة غير رسمية حول مختلف القضايا التي تهم المسلمين،

[٧٧] Jordan to F.O. ٩. June, ١٩٢٦, E٣٥٢٨/٢٠/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٣٣.

وأدى تأجيل عقد الجلسات الرسمية للمؤتمر إلى يوم ٧ يونيه ١٩٢٦ إلى منح الأعضاء أسبوعًا كاملاً لإجراء مزيد من المناقشات غير الرسمية، وبلورة أفكارهم، وتحديد اتجاهاتهم. وفي تقديرنا أن هذه اللقاءات غير الرسمية تفوق في أهميتها اللقاءات الرسمية داخل القاعات. لأن الجميع كان يفكر بصوت عال خارج القاعات، بعيدًا عن أية ضغوط أو قيود قد يفرضها جدول أعمال المؤتمر، أو نظام الحوار فيه، أو تأثير التكتلات داخل جلساته.

وكانت معارضة النفوذ البريطاني في شبه الجزيرة العربية هي سمة المناقشات العامة وغير الرسمية التي التقى معظم الوفود حولها. وقد تزعم الوفد الروسي هذا التوجه، وأكد حرصه على تطهير الحجاز من أي نفوذ أو تأثير أجنبي، ولتحقيق ذلك رفع الوفد الروسي شعار "وحدة الشرق" الذي لقي تأييدًا من وفود الهند وشرقي آسيا. ومع أن الملك عبد العزيز لم يعارض رفع مثل هذا الشعار، إلا أنه لم يكن مستريحًا لرؤية الوفود الإسلامية هي تهاجم بريطانيا علنًا في بلاده[٧٨].

ومع أن شعار "وحدة الشرق" لم يكن شعارًا محدد الملامح، ولا يتوافر لدعاته تصور نظري أو عملي واضح يمكنهم من تنفيذه،

[٧٨] Report on the Islamic Conference, by Jordan, ٢٣. June, ١٩٢٦, E٤١٨٦/٢٠,٩١, F.O. ٣٧١/١١٤٣٣.

إلا أن المتحمسين له كشفوا عن أنه موجه ضد الوجود البريطاني في الشرق بصفة عامة. ولا شك في أن ارتفاع هذه الصيحة المعادية لبريطانيا بين وفود معظم بلدان العالم الإسلامي، التي تقع في دائرة النفوذ الأوروبي، يعتبر انتفاضة سياسية ضد الاستعمار الغربي، لم تستطع هذه الوفود ذاتها أن تفصح عنها وهي في بلادها.

وهكذا تهيأت للمسلمين فرصة نادرة للتعبير بشكل جماعي عن آمالهم السياسية في دفع الاستعمار الغربي عن كاهلهم. ومغزى هذه الصيحة الإسلامية، التي قادها الروس فيما يتعلق بالعلاقات البريطانية ـ السوفيتية، أنها تعتبر إضافة إلى رصيد النشاط السوفيتي الداعي إلى التحرر من الاستعمار الغربي في آسيا، وبنفس القدر تعتبر في حالة نجاحها خَصْمًا من رصيد الحضور البريطاني المتفوق في الشرق. كما أنها تعتبر تحطيمًا لحاجز الحصار المفروض حول الاتحاد السوفيتي، وهو الحصار الذي كانت تفرضه عليه

وقتئذ بريطانيا والعالم الرأسمالي. وتبدو أهمية هذه النقطة الأخيرة إذا ما عرفنا أن قادة الفكر الشيوعي في الاتحاد السوفيتي كانوا يرون في جنوب شرقي آسيا منطقة من أفضل المناطق ملاءمة لنشر الفكر الشيوعي والتصدي للعالم الرأسمالي.

ولا شك في أن وجود ممثلين عن شعوب آسيا الإسلامية في مؤتمر مكة كان ينذر بريطانيا بمخاوف كثيرة. فقد حضر هذا المؤتمر الأول من نوعه ٥٩ عضوًا [٧٩]، أغلبهم يشكلون وفودًا غير رسمية، تمثل جمعيات أو جماعات إسلامية. وقليلة تلك الوفود الرسمية التي مثلت حكوماتها.

---

[٧٩] أنظر أسماء أعضاء الوفود الإسلامية إلى المؤتمر الإسلامي الأول بمكة في:

Report on the Islamic Conference, by Jordan, **op. cit.**

وبدت بشائر نجاح الوفد الروسي، الذي كان يتكون من ستة أعضاء[٨٠]، على رأسهم زياد الدين بن قوام الدين حين أسفرت العمليات التنظيمية للمؤتمر عن اختيار شريف شرف عدنان (حجازي) رئيسًا للمؤتمر، وسليمان الندوي (هندي) نائبًا للرئيس، وزياد الدين بن قوام الدين (روسي) نائبًا آخر للرئيس[٨١]. وكان وصول عضوين أحدهما هندي والآخر روسي، إلى مركز نائب الرئيس ذا دلالة سياسية معينة، ذلك أن الاتجاهات السياسية المعارضة لبريطانيا داخل المؤتمر كانت قوية. ومرة أخرى سيكون ذلك في صالح إستراتيجية الاتحاد السوفيتي، جريًا على مبدأ إن أي تدهور في مركز بريطانيا في الشرق هو كسب للإتحاد السوفيتي بغير شك.

---

[٨٠] يتكون الوفد الروسي من: زياد الدين بن قوام الدين (رئيسًا). مصلح الدين بن خليل (عضوًا).عبد الواحد بن عبد الرؤوف (عضوًا). محي بن مقصود (عضوًا). عبد الرحمن بن إسماعيل (عضوًا). طاهر إلياس (عضوًا). انظر في ذلك:

Report on the Islamic Conference, by Jordan, **op. oit.**

[٨١] حصل سليمان الندوي على ٣٢ صوتًا، وحصل زياد الدين بن قوام الدين على ٢٠ صوتًا. وامتنع سبعة أعضاء عن التصويت.

كان الملك عبد العزيز يدرك مخاوف بريطانيا من ذلك التجمع الإسلامي الضخم، الوافد إلى الحجاز من مختلف أرجاء الإمبراطورية البريطانية، ومن تفوق النفوذ السوفيتي في المؤتمر نتيجة لوصول أحد الأعضاء الروس إلى مركز قيادي فيه. ولذلك بعث الملك بحاكم جدة للقاء الوكيل السياسي البريطاني، في اليوم التالي لافتتاح المؤتمر ليطمئنه على أن الملك لن يسمح بالتحول عن أهداف المؤتمر، بالدخول في مناقشة القضايا، التي لا تعني بالأماكن المقدسة، ومنها القضايا السياسية. وكان الملك مدفوعًا لاتخاذ هذه الخطوة، بسبب حرصه على توطيد علاقاته مع بريطانيا، الدولة الكبرى التي تملك زمام الأمور في الشرق كله، والتي تحيطه من كل جانب في الجزيرة العربية وما حولها بنفوذها السياسي، أو وجودها العسكري، أو تفردها بالتفوق في شبه الجزيرة العربية، ولذلك كله رأى الملك أن من الحصافة السياسية أن يكسبها إلى جانبه، بينما لم يكن للإتحاد السوفيتي مثل تلك الميزات الجيوبوليتيكية التي تجعل الملك يميل إليه.

وعلى ضوء ما سبق، فقد يكون من المناسب أن يتساءل المؤرخ المدقق عن صحة الانتخابات التي وضعت هنديًا وروسيًا، وهما من بين العناصر الإسلامية المعارضة للنفوذ البريطاني في الشرق، في مركزين قياديين للمؤتمر. فإذا كانت الانتخابات صحيحة، فإن الخطوة التي اتخذها الملك عبد العزيز بإرسال حاكم جدة إلى الوكيل البريطاني كانت ذات أهمية خاصة لرأب الصدع المحتمل في العلاقات البريطانية ــ السعودية نتيجة لتسليم الملك بتلك النتائج. وإذا كانت الانتخابات غير صحيحة، وأن الملك عمد إلى الوصول إلى هذه النتيجة في توزيع القيادات داخل المؤتمر، فإنه لمن المقبول كذلك أن الملك أراد إفهام بريطانيا بطريقة ذكية أنها لم تعد القوة الكبرى الوحيدة الموجودة على الساحة في الشرق، وأن هناك قوى كبرى أخرى ناشئة، يمكنه الاعتماد عليها إذا اقتضى الأمر. ولعله أراد كذلك أن يقول لبريطانيا: إن العالم الإسلامي كشف بهذه الانتخابات عن حقيقة مواقفه تجاه بريطانيا، وأن هذه المواقف يمكن أن تكون بمثابة رسالة تحذيرية لها.

ولا يخلو الأمر من أن يكون الملك عبد العزيز قد أراد أن يتوجه بنتيجة الانتخابات هذه إلى العالم الإسلامي ذاته، ولسان حاله يقول: إنه لا يدور في فلك بريطانيا كما يعتقد البعض، بدليل أنه سمح لقيادات المؤتمر أن تكون من بين العناصر المناوئة للنفوذ البريطاني، وأنه لو أراد لهذه القيادات أن تكون من بين العناصر الموالية لبريطانيا لفعل. ومن هنا يكون الملك قد أثبت أنه محايد تمامًا فيما يتعلق بموقفه من بريطانيا، وبالتالي فقد نجح في أن يتلقى تأييدًا عامًا من جموع المسلمين.

ومهما يكن من أمر، فإن الوكيل البريطاني كان يرى أن نتيجة الانتخابات، بالصورة التي تمت بها، إنما كانت نتيجة مقصودة، لأن الوفد الروسي كان متعاطفًا مع قضايا أثارها الشيوعيون المسلمون في علاقاتهم مع المسلمين داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه. وظهرت نتائج ذلك في الداخل

حين سمح للمسلمين أن يمارسوا شعائرهم في المساجد المفتوحة، وأن يجمعوا الزكاة كما تهيأت المحاكم الشرعية لممارسة صلاحياتها. أما الدعاية الشيوعية ضد الأديان فكانت ضعيفة خلال تلك الفترة. ولم تظهر إلا محاولة واحدة في عام ١٩٢٥ ضد المسلمين، ولكن لم يتم القبض على أي من مرتكبيها قبل عام ١٩٢٨، ولعل أهم ما تركته الثورة البلشفية في المناطق الإسلامية هو تكوين شعور قوى مضاد للاستعمار الغربي[٨٢].

مما سبق، يمكننا أن نفسر التصريحات الغربية التي أعلنها رئيس الوفد الروسي إلى المؤتمر الإسلامي بمكة بشأن "قبول المبادئ الشيوعية في الحجاز". فقد كان زياد الدين تركستانيًا، وأدركت بلاده شيئًا من الحرية في عهد الثورة، وهو من هذا المنطلق كان يسعى إلى مد تلك الثورة التحررية إلى بلاد العالم الإسلامي المغلوبة على أمرها. وعلى هذا الأساس يكون طرحه للأفكار الشيوعية بين المسلمين في الحجاز مقبولاً من حيث الشكل باعتباره طرحًا سياسيًا، وليس طرحًا عقائديًا.

---

[٨٢] Bennigsen, A., "Islam in the Soviet Union", **Journal of South Asia and Middle Eastern Studies**, Vol. VIII, No. ٤, Summer ١٩٨٥.

وبناء على ما سبق، يمكننا أيضًا أن نفسر التصريحات التالية لزياد الدين: حين سُئل عن رأيه في الهند كمنطلق للمد الشيوعي، وقال: أن الهند بلد منظم "ونحن نعمل هناك من خلال منظمة في وسط بخارستان". ثم أضاف زياد الدين: ومع أن هذه المنظمة "استطاعت الوصول إلى الطبقات الفقيرة، إلا أنها ما زالت غير قادرة حتى الآن (١٩٢٦) على الوصول إلى بعض الرؤوس الناضجة أو المثقفة"[٨٣].

أما منطقة جنوب شرق آسيا، حيث توجد الملايو والمستعمرات الهولندية، فإنها تعد في رأي زياد الدين "أفضل المناطق لانتشار الأفكار الروسية، وأنهم (الروس) بصدد التركيز على هذه المنطقة". وعلى العكس من جنوب شرقي آسيا، فإن أهل السودان كانوا في نظر رئيس الوفد الروسي "غير متفتحين" ومع ذلك فلن يضيّع الوفد الروسي أية فرصة "لكسب أعضاء من بينهم"[٨٤].

[٨٣] Jordan to Chamberlain, ٣. July, ١٩٢٦, **cp. cit.**

[٨٤] **Ibid.**

ولعل أهم وأخطر التصـريحات التي أعلنها زياد الدين، فيما يتعلق بنشـر الأفكار البلشـفية في المناطق السـابقة الذكر هو قوله (نقلا عن رواية الوكيل البريطاني): "إن فرصـتهم (السـوفيت) في نشـر الفكر البلشـفي في كل هذه المناطق كانت محدودة في الماضـي، أما الآن (١٩٢٦) فإن حكومة الحجاز تقدم لهم فرصـة طيبة لتحقيق هذا الهدف، وأنهم سوف يستثمرونها إلى أقصى حد ممكن". ولا يعني ذلك البتة أن حكومة الحجاز كانت تتعاون مع الوفد الروسي بأي شكل من الأشكال في نشـر الفكر البلشـفي، ولا يوجد بين وثائق الأرشـيف البريطاني ما يفيد أنها قد سعت إلى ذلك من قريب أو بعيد. ولعل رئيس الوفد الروسي كان يقصد أن حكومة الحجاز قدمت تسهيلات للحجاج أفضل مما كانت تفعل الحكومات السـابقة. وأن ذلك يسـر اللقاء بين الحجاج الروس وإخوانهم المسـلمين القادمين من كل مكان، وهيأ لهم فرصة أفضل للتواصل الفكري والسياسي

. فقد صار الحجاج الروس "يتمتعون في الحجاز بفرصة نادرة خلال موسم الحج لعمل اتصالات قوية مع أكبر عدد من الوفود الإسلامية، والأعضاء المستقلين من بين ذوي النفوذ في العالم الإسلامي"[٨٥].

كان الروس يأملون في مخاطبة تجمعات المسلمين في موسم الحج السنوي، إذ كان من المستحيل إقامة مثل تلك اللقاءات معهم في بلادهم، أو في أي مكان آخر غير الحجاز. وحين تعود مجموعات الحجيج إلى بلادها بعد انتهاء موسم الحج، حاملة أفكارا جديدة عن الثورة البلشفية والدعوة إلى التحرر من الاستعمار تنشر تلك الأفكار. لقد كان المسلمون الروس يسعون إلى ربط أنفسهم بقضية الوحدة الإسلامية باعتبارها ضرورة لحماية الإسلام في روسيا المتطورة

---

[٨٥] Ibid.

. ومن جهة أخرى، كان المسلمون الروس يتطلعون إلى الوحدة السياسية، التي كانت أملاً طالما تاقوا إليه. ومن جهة ثالثة كانوا يهدفون إلى دمج أهداف الثورة الروسية مع أهداف المسلمين في محاربة الاستعمار الغربي[٨٦].

إن مصدرنا الوحيد عن الدور الخطير الذي كان يلعبه الحجاج الروس في موسم الحج السنوي الذي يمتد لأكثر من شهرين، هو تلك التقارير المنتظمة التي كانت تخرج من المفوضية البريطانية في جدة إلى وزارة الخارجية في لندن. ولنا أن نعتبر ما ورد في تلك التقارير صحيحًا بعد إخضاعه لمنهج النقد التاريخي، وإلى أن يثبت العكس في حال ظهور وثائق أخرى. ويدفعنا إلى هذه الإشارة، ما قد يثار من شكوك حول ما كتبه الوكيل البريطاني في جدة، نظرًا لأنه كان ممنوعًا من زيارة مكة، وبالتالي لم يكن على اتصال بالوفود الإسلامية اتصالاً مباشرًا أثناء موسم الحج، عدا تلك الفترة القصيرة التي يقضونها في جدة أحيانًا.

---

[٨٦] كلكجي وبنيفسن: **المسلمون في الاتحاد السوفيتي**، تعريب إحسان حقي (بيروت: ١٩٧٧)، ص ٢٤ -٥٨.

ولكن تلك الشكوك تضعف كثيرًا إذا علمنا أن جوردن كانت له عيون من بين أعضاء الوفود الإسلامية، تنقل إليه الأخبار أولاً بأول. وقد وصف لنا جوردن هذه العيون بأنها "مصدر ثقة". وكان إقبال على شاه، رئيس تحرير إحدى الصحف الهندية، المصدر الرئيسي للمعلومات التي جمعها جوردن عن نشاط الوفد الروسي في المؤتمر وخارجه. كما كان رئيس وفد الملايو أحد تلك المصادر الثقاة، إذ اعتبر الروس بلاده من أفضل مناطق شرقي آسيا ملاءمة لانتشار الفكر الشيوعي،[٨٧].

ومن اللافت للنظر أن جوردن وباقي أعضاء الوكالة السياسية البريطانية في جدة، حين أرادوا أن يتحققوا من نشاط الوفد الروسي، أجروا اتصالات مباشرة مع بعض الوفود الإسلامية، ولكنهم "لم يعثروا على شخص واحد" ــ طبقًا لرواية جوردن نفسه ــ "استطاع أن يثبت أنه وقع تحت تأثير أفكار الوفد البلشفي، وأن هذه الحقيقة تدعو إلى التساؤل عن الأسلوب الذي كان يفكر به الروس في استخدام هذه البلاد المقدسة في المستقبل"

[٨٧] Jordan to Chamberlain, ٣. July, ١٩٢٦, **Op. Cit.**

. وتزداد مخاوف جوردن من تلك السياسة الغامضة للروس حين يسترجع نشاط الوفد الروسي، الذي آثر الحضور إلى مؤتمر مكة على حضور مؤتمر القاهرة، والذي ذهب فور وصوله للقاء الملك عبد العزيز، ثم نجاح رئيس هذا الوفد في الوصول إلى مركز نائب رئيس المؤتمر، كل هذا يؤكد ـ في نظر جوردن ـ وجود ترتيب مسبق لإنجاح النشاط الروسي الدعائي بين جموع الوفود الإسلامية في مكة. ويعتقد جوردن أن المساعدات التي قدمها السوفيت لتركيا دون مقابل إنما كانت إحدى الوسائل الدعائية التي استخدمها الوفد الروس جيدًا، حين أبدى استعداده "لتقديم مساعدات إنسانية مماثلة لأي دولة إسلامية في أي مكان دون مقابل"[٨٨].

على كل حال لم يملك البريطانيون أن يفعلوا شيئًا للوفد الروسي غير أن يراقبوا تحركاته وأن يضعوا العراقيل أمام أعضائه في رحلة العودة، وأن يشددوا الرقابة على من يمر منهم بفلسطين[٨٩].

---

[٨٨] **Ibid.**

[٨٩] Jeddah Report, July, ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.

وفـي تقييمـــه للمـــؤتمر الإســـلامي بمكـــة، قـــال الـــزعيم الهنـــدي شـــوكت علـى: إنـــه بـــالرغم مـــن عـــدم نجـــاح المـــؤتمر فـي تقـــديره، إلا أن "شـــيئًا عظيمًـــا قـــد تحقـــق للإســـلام مـــن خـــلال الـــدعوة لوحـــدة الشـــرق.التي حققـــت وحـــدة الإســـلام بفضـــل الجهـــود التي بـــذلها الوفـــد الروسي"[٩٠].

وقد لاحظ نورمان مايرز N, Mayers، القائم بأعمال الوكيل الســياســي البريطاني في جدة، أثناء انشغال جوردن بالتفاوض مع الملك عبد العزيز حول إعادة صياغة العلاقات البريطانية .السعودية

[٩٠] Report on The Activities of Soviet Delegates to the Moslem Conference Held in Mecca, June ١٩٢٦, **Op. Cit.**

، لاحظ أن "فكرة وحدة الشـــرق" أو "وحدة الإســـلام" بدأت تلقى اهتمام بعض العناصر الإسلامية، وخاصة من بين الأتراك والمصريين. وتساءل مايرز عما إذا كان هناك تعاون غير معلن بين الروس والأتراك بشأن هذه الفكرة[٩١].

ولا شـــك في أن العلاقات الســـوفيتية ـــ التركية كانت طيبة منذ أن وقعت معاهدة صـــداقة بين البلدين في عام ١٩٢١. وكانت هذه المعاهدة واحدة من ثلاث معاهدات. أما الاثنتان الأخريان فقد وقعتا مع كل من أفغانســـتان وإيران. ويلاحظ أن هذه البلاد كانت منطلقات للتدخل الغربي في الشـــئون الروســـية، ثم صـــارت حاجزًا بين البلاشـــفة والبريطانيين. وبذلك تكون روســـيا قد ســـعت لتحييد مناطق الانطلاق البريطاني نحو أراضـــيها وتحويلها إلى مصـــدات. وســـاعد على ذلك ســـعي الســـوفيت إلى توطيد علاقاتهم بمناطق تقع خلف هذه البلاد مثل ســـوريا والعراق، مع أنها كانت واقعة تحت الانتدابين الفرنســـي والبريطاني، وهو نظام لم تقره الحكومة السوفيتية في مؤتمر لوزان عام ١٩٢٣[٩٢].

[٩١] Jeddah Report, Sept., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.

[٩٢] بوندا ريفسكي: **سياستان إزاء العالم العربي**، ترجمة خيري الضامن (موسكو: ١٩٧٥)، ص ٢٤٧ – ٢٨٠.

وفي عـامي ١٩٢٣ و١٩٢٤ جرت اتصـــالات بين حزب الوفـد المصـــري ووزير الخارجية السـوفيتي، ونشـطت في باكو حركة مؤيدة لمصر ضد الاسـتعمار البريطاني، كان شعارها المعلن "ارفعوا أيديكم عن مصر". وورد في قرار الإدارة الروحية لمسلمي أوزبكســتان في ١٥ ديســمبر ١٩٢٤ ما نصــه "لقد حمل الإمبرياليون البريطانيون إلى العالم الإســلامي الدماء والعداء والفاقة والجوع. البريطانيون جزارون، ســفاكون للدماء، خونة وكذابون ... إن السـلطة السـوفيتية تحمل الحرية إلى الشـرق، بينما يحمل إليه إمبرياليو بريطانيا الاستعباد"[٩٣].

[٩٣] نفسه.

ولعل العلاقات بين مسلمي روسيا وكل من تركيا ومصر أقدم من الثورة البلشفية بكثير. فهي تظهر بوضوح في تلك الأيام من القرن التاسع عشر، التي كانت خلالها مدارس القاهرة واستانبول قبلة العلماء الروس لتعليم أولادهم، كما كانت صحف القاهرة واستانبول تدخل روسيا منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وكان لها دور في تنمية الشعور القومي بها. وبالطبع كان لتلك الأفكار تأثير مباشر على الثورة الروسية. ففكرة الوحدة الإسلامية التي رفعا الروس في عام ١٩٢٦ بين المسلمين في الحجاز، تعود أصلاً إلى أيام السلطان عبد الحميد الثاني، وكان لثورة تركيا الفتاة ما يفوق التأثير الذي أحدثته ثورة ١٩٠٥ في روسيا[٩٤].

[٩٤] كلكجي وبنيفسن: المسلمون في الاتحاد السوفيتي، ص ٦٥.

أما علاقة مســلمي روســيا بشــبه الجزيرة العربية، فتعود إلى تأثير الحركة الوهابية منذ أواخر القرن الثامن عشــر. ومنذ منتصــف القرن التاســع عشــر أصبحت الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي تتميز بطابع أكثر سياسة، وأشد عمقًا، وتهدف إلى تجديد الفكر والثقافة. وظهر فريق من البرجوازيين قليل العدد نشــيط المهمة، قاد هذه الحركات الإصــلاحية في العالم الإســلامي فيما بين تركيا وأندونســيا. ومن بين أعضــاء هذا الفريق كان هناك ســيد أحمد خان وميرعلي في الهند، والشــيخ محمد عبده في مصــر، وعبد الحق حامد ونامق كامل وتوفيق فكرة في تركيا، والحاج أغوس سليم في أندونسيا[٩٥].

---

٩٥ نفسه، ص ٦٣.

ويتضح من هذه المعالجة كيف كانت الحركة الإسلامية الروسية مرتبطة بحركة الجامعة الإسلامية ارتباطًا قويًا، من خلال الصلات الوثيقة بين المسلمين الروس والمسلمين الأتراك. فإذا علمنا أن عدد المسلمين الروس يبلغ ١٧% من عدد السكان في الاتحاد السوفيتي، لوجدنا أنه من الصعب اعتبارهم أقلية غير مؤثرة. كما أن ٧٥% من هذه العناصر الإسلامية السوفيتية من أصل تركي[٩٦].

وتتأكد هذه الصلات الإسلامية القوية التي جسدت شعار "وحدة الشرق" أو "وحدة الإسلام" في تقرير للمخابرات البريطانية، تلقاه الوكيل البريطاني ما يبرز في عام ١٩٢٦، يفيد التقرير بأن شخصية سياسية عراقية كانت على اتصال مع بعض الشخصيات الإسلامية في مصر.

---

[٩٦] Bennigsen, A., "Islam in the Soviet Union", **cp. cit.**

وأصبح مايرز يسمع في كل مكان حديثًا عن جبهة إسلامية صلبة، وهو يعتقد أن تركيا كانت وراء هذه الجهود، وأن الملك عبد العزيز يدعم هذه الجبهة. وكان لتبني الوفد الروسي لقضية الوحدة الإسلامية آثار إيجابية على السياسة السوفيتية في الشرق، وفي نفس الوقت كان سلاحًا قويًا في يده ضد الوجود الغربي في آسيا[٩٧].

[٩٧] Jeddah Report, Sept., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.

موقف بريطانيا من النشاط السوفيتي في الحجاز:

ذكرنا فيما سبق شيئًا من الشائعات التي أثيرت حول نشاط حكيموف في الفترة السابقة على موسم الحج، خلال صيف عام١٩٢٦ ، والبلبلة التي سببتها تلك الشائعات في الأوساط الدبلوماسية بجدة، وخاصة سفره إلى إرتريا لبدء نشاط شيوعي هناك. ترى هل أراد حكيموف أن يترك الميدان خلوًا في الحجاز من أي نشاط سوفيتي رسمي، بعد ما أثبت الوفد الروسي، غير الرسمي، نجاحًا في الدعاية للثورة السوفيتية بين الحجاج؟. لعل حكيموف أراد الابتعاد عن الحجاز إبعادا للشبهات التي دارت حوله. وفي تقديرنا أن هذه الموضوعات تحتاج إلى دليل في مادة وثائقية، وهو ما لم نضع أيدينا عليه بعد.

وتفيد الإشـــارات المتباعدة الواردة في تقارير الوكالة البريطانية في جدة. أن الشـــائعات انتشـــرت خلال شـــهر أغســـطس بين الدبلوماســـيين هناك بما يفيد أن الســـوفيت ســـيغلقون وكالتهم الســـياســـية، تاركين الباب مفتوحًا أمام النشـــاط القنصـــلي فقط[٩٨]. ترى هل كانت هذه الشـــائعات الأخيرة إضـــافة جديدة إلى ذلك الرصيد الضخم من الشائعات حول حقيقة النشاط السوفيتي؟. الواقع أنها كانت كذلك. فقد عاد حكيموف إلى الظهور فجأة في الأوساط الدبلوماسية بجدة، مؤكدًا على دوره الدبلوماسي ونشاطه الرسمي[٩٩].

وبعد ذلك كله يبقى السؤال الذي طرحناه حول نشاط الوكالة السوفيتية أثناء موسم الحج بغير إجابة، لأن كل ما وضعنا أيدينا عليه تبين فيما بعد أنه كان من الشائعات.

---

[٩٨] Jeddah Report, Aug., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.

[٩٩] Jeddah Report, Nov., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.

وعن رد الفعل البريطاني تجاه التحدي السوفيتي في الشرق، فقد سارت مقاومة النشاط السوفيتي في الشرق طبقًا لخط إستراتيجي واضح في السياسة البريطانية. وأعلن أوستن تشمبرلين، وزير الخارجية البريطاني، في ٢٠ أكتوبر ١٩٢٦ أن الدولية الثالثة Third International "التي جعلت من بين أهدافها إحداث ثورة عالمية، كانت منذ نشأتها تعمل ضد بريطانيا ... لأن بريطانيا هي الأولى التي تقف في وجه النشاط السوفيتي، وأن انتشار نفوذها يقتضي بأن يكون لها مواقع متقدمة لمولجهة مثل هذا النشاط، ولهذا فإن العملاء السوفيت يهاجموننا بحماس"[١٠٠].

وأكد تشمبرلين على عدم وجود "خطر" سوفيتي على المصالح البريطانية بصفة عامة. وإن كان هناك بالفعل "تهديد" لتلك المصالح في جنوبي

---

[١٠٠] Statement by Sir A. Chamberlain to The Imperial Conference, Oct., ٢٠, ١٩٢٦, **Documents on British Foreign Policy,** Vol. II, Series IA, pp. ٩٤٥-٧.

وجنوب شـرقي آسـيا، وفي إيران. ومع ذلك لم يشـر تشـمبرلين ــ في تقييمه للسـياسـة السـوفيتية التي تتحدى السـياسـة البريطانية ــ إلى التهديد السـوفيتي للمصـالح البريطانية في شـبه الجزيرة العربية. ويعني هذا أن التهديد السـوفيتي لم يكن في نظر البريطانيين عـام ١٩٢٦ قد وصـل إلى درجة الخطر، بل إن البريطانيين كانوا يشعرون أنهم مازالوا في مأمن من عمل سوفيتي مؤثر ضدهم.

ويلاحظ المتتبع لرد الفعل البريطاني في مواجهة النشـاط السـوفيتي على مسـتوى شـبه الجزيرة العربية وجود نوبات من التردد الواضح لدى صـناع القرار البريطانيين، سـواء أكانوا في جدة أو في لندن. فالوكالة البريطانية في جدة كانت تحذر مرة من النشـاط السـوفيتي، ثم تعود في أخرى فتقلل من شـأنه، ثم تشير في ثالثة إلى انحسـار شـبه تام للنشـاط الدبلوماسـي السـوفيتي. وتؤكد بعض تقارير جدة البريطانية على انعدام فرص النجاح أمام النشـاط السـوفيتي في تحدي النفوذ البريطاني في شبه الجزيرة العربية، وهذا صحيح إلى حد كبير

. ولكن الوكالـة البريطـانيـة في جـدة تعود لتؤكـد على أن مواطن الخطر السـوفيتي الحقيقي تأتي من خارج شـبه الجزيرة العربية، وخاصـة من إيران ومصـر والسودان.

ففي شـهر نوفمبر ١٩٢٦ أعلن لورد لويـد Lord Lloyd المندوب السـامي بالقاهرة، عن وجود نشـاط سـوفيتي في كل من مصـر والسـودان، ويؤكد على أن الدعاية التي يسعى السوفيت لنشرها في المنطقة من خلال عملائهم سيكون لها آثار سـلبية على المصـالح والنفوذ البريطانيين. واقترح لورد لويد ضـرورة العمل على إفسـاد العلاقات السـوفيتية ـ السعودية، وهو اقتراح سبق أن عرضه جوردن على حكومته. وأضـاف لويد أنه من الأفضـل إغراء الملك عبد العزيز بقطع علاقاته بالسـوفيت.

واقترح أن تكون زيارة جورج أنطونيوس للحجاز في ديسمبر من العام نفسه، فرصة طيبة لإقناع الملك عبد العزيز بهذا الاتجاه الجديد الذي يجب أن تتبناه الحكومة البريطانية[١٠١].

لم تجد حكومة لندن في تحذيرات كل من جوردن ولويد ما يدعو إلى العمل بنصحهما، خاصة وأنها وضعت في الاعتبار قضايا تتعلق بالعلاقات البريطانية - السعودية، والعلاقات البريطانية - الأوروبية. فقد كانت وزارة الخارجية معنية بالنظرة الشاملة إلى الأمور في سياسة بريطانيا الخارجية. بينما كان المسئولون البريطانيون في جدة والقاهرة معنيون بالإطار الإقليمي للمناطق الواقعة تحت مسئولياتهما. وهذا الاختلاف في النظرة إلى الأمور طبيعي بين كل من لندن من جهة والقاهرة وجدة من الجهة الأخرى.

---

[١٠١] Lord Lloyd (Cairo) to F.O., ١٩. Nov., ١٩٢٦, E٦٤٢٩/١٤٢٦/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٤٦;

Jeddah Report, Feb., ١٩٢٧, F. O. ٣٧١/١٢٢٥٠.

ولم تَنْقَدْ وزارة الخارجية وراء ممثليها في الميدان، وإنما بعثت إلى جدة برسالة في ٢٧ نوفمبر ١٩٢٦ تطلب من جوردن أن يتقصى الحقائق حول النشاط السوفيتي، وأن يخطر الملك عبد العزيز باقتراح لورد لويد. وبعد جدل طويل حول أسلوب التعامل مع هذا الموقف المعقد، آثرت وزارة الخارجية البريطانية أن تترك الأمر برمته لمهارة جوردن السياسية ليرى فيه ما يشاء من أساليب العلاج[١٠٢].

انقضى عام ١٩٢٦ والبريطانيون مازالوا مشغولين بالبحث عن حقيقة النشاط السوفيتي في الحجاز. ويستطيع من يقف على سيل البرقيات المتبادلة بين لندن من جهة وكل من القاهرة وجدة من الجهة الأخرى، أن يقدر حجم حالة القلق العامة التي فرضت نفسها على المسئولين البريطانيين في الشرق الأوسط ولندن.

[١٠٢] Chamberlain to Jordan, ٢٧. Nov., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٦

وأطل عام ١٩٢٧ بترديد شائعة جديدة، مفادها أن المفوضية الهولندية في مصر نشرت تقريرًا نقلته جريدة الأهرام المصرية، في ٢٨ نوفمبر١٩٢٦، عن نشاط أفراد شيوعيين من جاوة، بالتعاون مع الوكالة السياسية السوفيتية، بين الحجاج في مكة. ولكن حكومة الحجاز نفت وجود مثل هذا النشاط أصلاً في الأراضي المقدسة، وبدورها نشرت تكذيبًا لما ورد بالأهرام في جريدة أم القرى الصادرة في ٢٥ فبراير١٩٢٧. وطلبت حكومة الحجاز من الحكومة الهولندية التحقيق في الوقائع المنسوبة إلى قنصلها في مصر[١٠٣]. ولكن القنصل الهولندي راح هو الآخر يكذب النبأ وكل ما نشر حوله. ونفى نفيًا قاطعًا أي دور للمفوضية الهولندية فيه.

---

[١٠٣] انظر: **أم القرى**، ٢٥ فبراير ١٩٢٧.

ومهما يكن من أمر هذه الشـــائعة الأخيرة، فقد كانت بالدرجة الأولى تحذيرًا لبريطانيا. ولكن مايرز كان يرى أن التحذير موجه إلى الحكومة الســـوفيتية، لأن الدول الأوروبية صـــارت أكثر يقظة في مواجهة النشـــاط الســـوفيتي الفعلي عن ذي قبل. أما ترويج الشائعات من جانب موسكو فلن يؤدي في النهاية إلا إلى انتصارات مزيفة، ولن ينشر المبادئ البلشفية. ولعل أهم نتيجة فيما يتعلق بهذه الدراسة هي: أن الدول الكبرى بدأت تهتم برعاياها المســـافرين إلى الحجاز في موســـم الحج وتحذرهم مما قد ينتظرهم هناك من خطر بلشـــفي، وتعمل في الوقت نفســـه على الحيلولة دون نشوء مثل هذا الخطر[١٠٤].

١٠٤ Jeddah Report, Feb., ١٩٢٧, F. O. ٣٧١/١٢٢٥٠.

وتزعمت بريطانيا مثل تلك الخطى. وراح مايرز يتقصى من جديد حقيقة الدور السوفيتي، وكأن الأمور كانت تزداد غموضًا. وكان ذلك صحيحًا إلى حد كبير، فقد تبين مايرز أن حكيموف كان يستعد لمغادرة الحجاز. ومنذئذ لم يعد الحجاز وحده منطقة متابعة وملاحقة بريطانية للنشاط السوفيتي، وإنما صارت منطقة الشرق الأوسط بأكملها ميدانًا للتفتيش عن النشاط السوفيتي[١٠٥]. وتأكد هذا الاتجاه منذ زيارة مدير المخابرات البريطانية في الخرطوم لمدينة جدة في يناير ١٩٢٧، وأكد على ضرورة مشاركة المخابرات البريطانية في نشاط الوكالة السياسية البريطانية في جدة، واتفق مدير المخابرات والوكيل السياسي على عدم التراخي في ملاحقة النشاط السوفيتي[١٠٦].

---

[١٠٥] Mayers to Chamberlain, ٢٩. March, ١٩٢٧, E١٧٣٩/٣٢٣/٩١, F. O. ٣٧١/١٢٢٤٨.

[١٠٦] **Ibid.**

لم تكن مراقبة بريطانيا للنشاط السوفيتي في الحجاز أمرًا هينًا لسببين: الأول أن مثل هذه المتابعة كانت تتم بصورة موسمية في أيام الحج من كل عام، وفي مكة على وجه الخصوص، ولم يكن مسموحًا لأي مسئول بريطاني غير مسلم بدخول الأماكن المقدسة. والثاني أن تدبير عناصر إسلامية مناصرة لبريطانيا يمكن أن تندس وسط الحجاج الروس لم يكن أمرًا يسيرًا، لأن الاتجاه العام بين المسلمين كان معاديًا لبريطانيا.

ونلاحظ على كل حال أن تومتوف Tuimtoff، نائب حكيموف قد آثر أن يقضي أجازة طويلة في أسمرة، في الوقت الذي شدد البريطانيون مراقبتهم على الوكالة السوفيتية، لدرجة أن الوكالة بدت شبه مغلقة. لأن تومتوف اصطحب سيدتين من العاملين معه في رحلته. وخلال هذه الزيارة لإرتريا وسع تومتوف معرفته بأفريقيا، وبدأت مخاوف مدير المخابرات في السودان تزداد من احتمالات توسيع دائرة النشاط السوفيتي في أفريقيا عبر السودان انطلاقًا من جدة[١٠٧].

١٠٧ Ibid.

وعلى نفس مستوى اهتمام المخابرات البريطانية في السودان، بدأ قلم المخابرات في حكومة الهند البريطانية يراقب نشاط الحجاج المسلمين، القادمين إلى الحجازوالعائدين منه، ووضع ميناء بومباي تحت المراقبة الشديدة، ودارت الشكوك حول المطوفين الذين ينتقلون بين الهند والحجاز معظم العام، ووضعوا تحت المراقبة الشديدة[١٠٨].

قدمت مكة للسوفيت فرصة لا تتكرر في أي مكان آخر في العالم. ففيها يتجمع أكبر عدد من المسلمين من مختلف أنحاء العالم. وكانت بذلك ـــ كما يرى السوفيت ـــ منبرًا مناسبًا للغاية لمخاطبة شعوب العالم المختلفة. وإذا لم يكن في إمكان السوفيت التأثير على كثير من الحجاج، فإن بعضهم على الأقل قد وقع في شراك الدعاية الشيوعية، وخاصة أولئك الذين يقضون في الحجاز فترة أطول من غيرهم. ونجاح الروس في مكة وحدها هو ـ من الناحية العملية ـ نجاح لهم في منطقة تمتد من أندونسيا شرقًا إلى المغرب الأقصى غربًا.

[١٠٨] Ibid.

ويساعد على ذلك أن الحجاز يختلف عن كثير من بلاد العالم وقتئذ، لافتقاره إلى وسائل الاتصال السريعة، وإلى صحافة حرة، فضلاً عن حساسية المسلمين الوافدين تجاه الغرب، ورغبتهم في التخلص من براثنه، كل ذلك هيأ الفرصة لانتشار الدعاية البلشفية بصورة مباشرة، سواء أكان ذلك بصفة دائمة أو حتى في موسم الحج فقط.

ومع ذلك فإن جميع الممثلين الأوروبيين في جدة متفقون حول مسألة واحدة هي أنهم لم يستطيعوا تقديم دليل واحد على وجود مثل هذه الدعاية البلشفية، وبالطبع لم يستطيعوا مواجهة حكيموف أو أي من أعضاء الوكالة السوفيتية. وفي تقديرهم أنهم على صواب لأن "الحجاز مملكة صغيرة لا يخفى فيها سر"[١٠٩].

[١٠٩] Ibid.

ولو نظرنا إلى هذه المسألة من وجهة النظر السوفيتية، وافترضنا أن استراتيجية السوفيت كانت ترى في الحجاز جبهة مفيدة لنشر الأفكار البلشفية وتحدي الاستعمار الغربي، فلن يحقق السوفيت بالتأكيد أي نجاح، لأن الملك عبد العزيز كان صديقًا لبريطانيا، مع أنه كان غير راض عن جوانب كثيرة في سياستها، ولكن كان هذا هو واقع الأمر. كما أن كلاً من هولندا وفرنسا وألمانيا تدعمه اقتصاديًا، لهذا فالملك يرى أن أموره السياسية والاقتصادية لا يمكن أن تسير بدون التعامل مع الغرب. لذلك فهو لا يستطيع صراحة الانضمام إلى التيارات السياسية المعادية للغرب والتي يتزعمها الهنود والمغاربة ومسلمو جاوة، لأن ذلك سيقوده إلى الاصطدام ببريطانيا وفرنسا وهولندا على التوالي. والسوفيت يدركون ذلك جيدًا، ولذلك فهم يسيسون أمورهم بحكمة فلا يصطدمون بعبد العزيز آل سعود، ولا يظهرون نشاطهم

بما يسبب له حرجًا في مواجهة الدول الغربية. لذلك كله فهم حريصون على أن يكون لهم وجود وتمثيل دبلوماسي، أو قنصلي على الأقل. ولكن ليس من الضروري أن يكون هذا الوجود متألقًا، على العكس فإن الوجود الباهت يبعد الشكوك عنهم، كما هو الحال في الحجاز.

ولذلك كله حرص السوفيت على أن يؤكدوا على المستوى الرسمي أنهم طبيعيون جدًا، يأكلون ويشربون ويلهون وينطلقون ككل الناس، تاركين بذلك الدور الحقيقي للنشاط غير الرسمي، وهم يأملون في أن يكون الحجاج الروس ركيزة الدعوة إلى البلشفية بين الشعوب المستضعفة، وهذا أمر لا يمكن السيطرة عليه من جانب الغرب، خاصة وأن ما بين مائة ومائة وثلاثين ألفًا من الحجاج يزورون مكة سنويًا، وهذا عدد ضخم، وبالتأكيد سيكون بينه عناصر مؤثرة

، ومن جهة أخرى فإن محاولة التدخل من جانب حكومة الحجاز في شئون الحجاج الروس، أو تقييد نشاطهم، أو مراقبتهم، كان يعد أمرا مستحيلاً، وهو بالفعل كان كذلك، كما أن الحجازيين في النهاية ليسوا على استعداد للتضحية بمثل هذا العدد من الحجاج سنويًا.

لعل أهم ما يميز فترة الحضور السوفيتي فيما بين عامي ١٩٢٤ و١٩٢٧ أن حكيموف لعب خلالها دورًا غامضًا، لم تتكشف حقيقته بعد. ومن المؤكد أنه استطاع أن يخدع جميع الأطراف بمن فيهم زملاءه من الأوروبيين، وأن يمد النفوذ السوفيتي إلى اليمن، وأن يعبر به البحر الأحمر إلى إرتريا الإيطالية. وحين اقتربت هذه الفترة من نهايتها بدأ شخص حكيموف ينحسر تدريجيًا، ويظهر في نفي الوقت اسم تومستوف. وهذا يعني أن الإستراتيجية السوفيتية كانت مُقدِمة على برنامج عمل جديد لا يتناسب وإمكانيات حكيموف.

ونحن لا نتفق مع جوردن فيما ذهب إليه بادئ الأمر من أن حكيموف "شخص سكير غبي لا يفهم ماذا يعمل". والحق أن حكيموف كان يعرف جيدًا ماذا يعمل، وكان أحد أدوراه الأساسية هو إجادة فن التمويه واللامبالاة لتغطية دوره الحقيقي والإيجابي. وقد نجح حكيموف في إخفاء دوره الرسمي إبعادًا لكل الشبهات عن نفسه وعن وكالة بلاده السياسية. وحين كان عليه أن يغادر الحجاز نهائيًا، لم يفصح عن ذلك صراحة، وإنما أشاع أنه سيعود قريبًا إلى الحجاز في زيارات متقاربة، وأن حكومة الحجاز ستراه كثيرًا[١١٠]. إلى هذا الحد نجح حكيموف في إخفاء دوره.

وقبل أن يغادر حكيموف نهائيًا أرض الحجاز، كان مرافقوه قد سبقوه إلى إيطاليا، مع أن برنامج السفر الأصلي كان يقضي بأن يغادر الجميع دفعة واحدة[١١١]. وليس هناك من تفسير لذلك غير أن أساليب الأداء في تطبيق السياسة السوفيتية كانت غامضة. ولعل هذا الغموض والتكتم كان لا يزال سمة باقية للسياسة السوفيتية.

---

[١١٠] **Ibid.**

[١١١] Mayers to Chamberlain, ٢٩. March, ١٩٢٧, E١٧٣٩/٣٢٣/٩١, F. O. ٣٧١/١٢٢٤٨.

أما بريطانيا فقد أدركت أهمية وضـرورة إعادة صـياغة العلاقات مع الملك عبد العزيز الذي عظم شـــأنه في شـــبه الجزيرة العربية، وصـــار "ملكًا على الحجاز ونجـد"، بعـد أن كان "ســـلطانًـا على نجـد وملكًا على الحجـاز"[112]. وفي هـذا التطور الجديد أخذ الاتحاد السوفيتي زمام المبادرة من بريطانيا حين أعلن اعترافه الفوري بما أقدم عليه الملك عبد العزيز من توحيد الحجاز ونجد في ظل حكومة واحدة، وعندئذ تبعته هولندا وفرنسا وبريطانيا[113].

---

[112] **أم القرى**، ٨ أبريل ١٩٢٧.

[113] Yusuf Yasin to Hakimoff, ٣. April, ١٩٢٧;

Hakimoff to Yusuf Yasin. ١٥. April, ١٩٢٧, Ibrahim Al – Rashid: **Documents of The History OF Saudi Arabia,** Vol. ٣, PP. ٢١٦-١٧.

وهكذا تزامنت مرحلة تطوير العلاقات البريطانية ـ السعودية في عام ١٩٢٧ مع مرحلة استعداد السوفيت لتطبيق وسائل وأساليب جديدة في إستراتيجية العمل في الحجاز، وهذا مجال دراستنا في الفصل التالي.

الفصل الثالث

السعوديون والبريطانيون والدعاية السوفيتية

مرحلة الممارسة ١٩٢٧- ١٩٢٨

لعل أهم ما يميز العلاقات البريطانية - السعودية خلال فترة أواخر العشرينيات من القرن العشرين أنها قامت على أسس متكافئة من الناحية النظرية طبقًا لما ورد في معاهدة جدة في مايو ١٩٢٧[١١٤]. وكان لهذا التكافؤ في العلاقات بين البلدين تأثير سلبي على موقف الملك عبد العزيز آل سعود من النشاط السوفيتي في الحجاز، ذلك أن محاولات الملك في المرحلة السابقة لتطوير علاقاته ببريطانيا قد أثمرت ثمرة إيجابية كما كان يتمنى. وبالتالي فمن غير المتوقع ألا يكون للسوفيت عنده ما يجعله يُفضّلهم، أو حتى يساويهم بالبريطانيين.

ويسعى هذا الفصل إلى إظهار التغيرات الجديدة لدى مختلف الأطراف لتطويع أو تطوير سياستها بما يتناسب وطبيعة المرحلة الجديدة، فبعد الوقوف على الحقائق في "مرحلة الاستكشاف" التي تحدثنا عنها في الفصل السابق. أدرك السوفيت ضرورة وضع استراتيجية عمل جديدة تعتمد على "التقية" في الممارسة بأسلوب أفضل مما كانت عليه في السابق. بينما شدد البريطانيون الرقابة لملاحقة مختلف الأنشطة السوفيتية في منطقة البحر الأحمر

[١١٤] معاهدة جدة ١٩٢٧

، بعد أن منحوا الملك عبد العزيز معاهدة صداقة لم تُوقع مثلها دولة أخرى معه. ومع ذلك فقد ظل الملك عبد العزيز يلوح بذكاء ومهارة بورقة الســـوفيت في علاقاته مع بريطانيا آملا أن يحصل منها على المزيد من الدعم السياسي.

الملك عبد العزيز وبريطانيا والنشاط السوفيتي:

قد شهد شهر مايو ١٩٢٧، الذي وقعت فيه معاهدة جدة البريطانية. السعودية، بداية وصول أفواج الحجاج من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ومن بينهم ـ بالطبع ـ كانت وفود الحجاج الروس. وكانت بريطانيا قد استعدت لمواجهة المشاكل السياسية التي قد يثيرها المسلمون في موسم الحج الجديد. وتوقع البريطانيون أن يصل عدد الحجاج الروس إلى ما بين أربعة آلاف وعشرة آلاف حاج. هذا بالرغم من أن الأعداد التي وصلت منهم بالفعل خلال شهر مايو المذكور لم تزد عن ٣٦٠ حاجًا فقط. وتعني التقديرات البريطانية السابقة للحجاج الروس أن بريطانيا أخذت تُعد نفسها لأسوأ الاحتمالات، وأن شيئًا من القلق كان يسيطر على الأوساط البريطانية المعنية بالشرق من احتمال زيادة نشاط "عملاء الدعاية السوفيتية" في موسم الحج بمكة[١١٥].

[١١٥] Jeddah Report, May ١٩٢٧, F.O.٣٧١ / ١٢٢٥٠.

وفي محاولة من جانب قناصـــل كل من بريطانيا وهولندا ومصـــر، لتفادي الآثار السـلبية لمثل هذا النشـاط الدعائي السـوفيتي، قرر هؤلاء القناصـل مقابلة الأمير فيصـــل بن عبد العزيز نائب الملك في الحجاز، ليعبروا لـه عن مخاوفهم من الأنشــطة الدعـائية المتوقعة للحجاج الروس. ولكن الأمير طمأنهم إلى أن حكومة الحجاز مســتعدة لمراقبة الموقف عن كثب، وأنها لن تسـمح للســوفيت أو لعملائهم بممارســة أي نشـاط دعائي بين الحجاج في الحجاز. ولكن مخاوف القناصـل بدأت تتأكد حين نما إلى علمهم أنباء مفادها: أن الروس بدأوا في ممارسـة أسـاليب جديدة في سياستهم الدعائية، وأنهم أخذوا يطبقونها بالفعل خارج الحجاز. تَمثّل بعضها في الإعلان عن تخفيضـات كبيرة في أسـعار تذاكر الملاحة بين أوديسـا وجدة. تيسـيرًا على الحجاج الأفغان، وتشجيعًا لهم للسفر على سفن سوفيتية[١١٦].

١١٦ Ibid.

قد يهيئ نقل الحجاج الأفغان إلى الحجازعلى سفن سوفيتية فرصة طيبة للسوفيت لنشر الأفكار الشيوعية بينهم قبل الوصول إلى مكة. وبالتالي فإن مثل هذه العناصر يمكن أن تكون أكثر فعالية عند وصولها إلى الأراضي المقدسة حين تساهم في إذكاء روح الدعاية، التي قرر السوفيت إسنادها إلى عناصر غير روسية من الناحية الظاهرية. ومن ناحية أخرى فإن قيام السوفيت بنقل حجاج غير روس إنما يعني تهيئة فرصة أوسع، وربما فرصة أفضل لنشر دعايتهم بعيدًا عن الرقابة، التي يمكن لبريطانيا أن تفرضها في المناطق الواقعة تحت نفوذها، أو أي ضغط قد تضعه على الملك عبد العزيز في الحجاز.

ولا يبدو أن الملك عبد العزيز كان يجهل طموحات السوفيت أو مخاوف البريطانيين منها. فنراه يستغل تلك المخاوف بكياسة وفطنة. ويتضح ذلك من تقرير أعده سير جلبرت كلايتون، المندوب البريطاني فوق العادة إلى الملك عبد العزيز[١١٧]، والذي كان قد فرغ من مفاوضات مع الملك عبد العزيز حول معاهدة جدة (١٩٢٧) المذكورة. وفي هذا التقرير، كتب كلايتون إلى سير أوستن تشمبرلين، وزير الخارجية البريطاني، أن الملك أفضى له في اجتماع خاص عقب انتهائهما من صياغة بنود معاهدة جدة المذكورة عن تصوره لمواقف الدول المتربصة بشبه الجزيرة العربية، والساعية إلى طرد النفوذ البريطاني منها، أو لإسقاط حكم الملك عبد العزيز نفسه. وأشار الملك إلى أنه لا يريد من المعاهدة أن تكون مجرد إعلان للصداقة بين البلدين، وإنما تترجم إلى تعاون وثيق بينهما، حتى يتمكنا من التصدي للقوى المتربصة بهما في الحجاز[١١٨].

---

[١١٧] انظر: جمال حجر، "الملك عبد العزيز وسير جلبرت كلايتون .. دراسة في دبلوماسية التفاوض"، (لم ينشر بعد)

[١١٨] Clayton to Chamberlain, ٩ June ١٩٢٧, Documents on British Foreign Policy, no. ٥٢١, vol. VI. p.٧٦٢

وطبقًا لرواية كلايتون، وهي الرواية الوحيدة المتاحة في هذا الموضوع، فقد قسم الملك عبد العزيز الدول التي كانت تتربص به وببريطانيا إلى أربعة مجموعات: تضم الأولى روسيا وتركيا، وتضم الثانية إيطاليا وفرنسا، وتضم الثالثة مصر، وتضم الرابعة العراق وشرق الأردن.

أما تركيا وروسيا فكانتا في نظر الملك عبد العزيز ــ طبقًا لرواية كلايتون. تعملان ضده، وضد الحكومة البريطانية، وتسعيان إلى التأثير على حكومات أخريات كي تسير سيرتهما في معاداة بريطانيا. وأكد الملك على أن لديه دليلاً قويًا مفاده: أن روسيا تسعى سعيًا حثيثًا لعقد تحالف مع كل من تركيا وإيران وأفغانستان، للعمل معًا ضد السياسة البريطانية في الشرق. وأضاف الملك أن اتصالاً قد جرى معه بطريقة غير مباشرة لكي ينضم إلى ذلك التحالف المزمع تكوينه.

وبالرغم من أن الملك عبد العزيز أشار إلى الجهود السوفيتية المناوئة لبريطانيا، إلا أنه لم يقدم لكلايتون دليلاً واحدًا على أن السوفيت يعملون ضده. وعلى العكس من ذلك، نجد أن القنصل السوفيتي بجدة طلب من الملك أن يقبل دعوة الحكومة السوفيتية كي يزور الأمير فيصل موسكو زيارة رسمية. وفي الوقت نفسه ذكر أن القنصل السوفيتي وعده بأن يعمل الاتحاد السوفيتي على إقناع كل من إيران وأفغانستان على الاعتراف به. كان الملك حريصًا على أن يعرض أمام البريطانيين ملامح الصورة التي ترضيهم عن السوفيت، بصرف النظر عن قناعته الداخلية، وإدراكه طبقًا لمقتضى الحال أن علاقاته بالسوفيت هي أكثر نفعًا له من علاقاته بغيرهم. لقد تظاهر الملك، وهو يتحدث إلى كلايتون بأن عروض القنصل السوفيتي له، لم تكن مقنعة. في محاولة منه للتأكيد على ولائه للحكومة البريطانية، التي عقد معها معاهدة صداقة لم يكن مدادها قد جف بعد.

لكل ما سـبق، وفي إطاردبلوماسـيته المعهودة، عرض الملك عبد العزيز. تطوعًا ـــ على كلايتون أنه "لن يقبل الدخول في مثل هذا التحالف الجديد، لأنه لا يثق في الإيرانيين، ولا في التعامل مع باقي المسلمين تعاملاً طيبًا". ولكنه أكد في المقابل على ثقته المتزايدة في الحكومة البريطانية، التي يعتقد في أنها لن تتردد في معاملته معاملة طيبة، طيلة فترة تحملها لمسئولية الانتداب في كل من العراق وشرق الأردن، اللذان كانا في رأيه مصدرا للشـائعات المضـادة له، ولذلك فهو لن يتردد في مطالبة الحكومة البريطانية بأن تقف بحزم، وأن تمارس صلاحياتها ومسـئولياتها في إخماد الأصوات المضادة له والمنطلقة من مناطق الانتداب[١١٩].

[١١٩] Ibid.

إن إثارة الملك عبد العزيز لقضـية ما، بهدف الخوض في قضـية أخرى، هو أحد سمات دبلوماسيته في معظم مداولاته مع المسئولين البريطانيين، وهو أسلوب ذكي يهدف إلى إشـراك بريطانيا في تحمّل القسـط الأكبر من المسـئولية تجاه أمور بعينها، تكون دائمًا في رأسـه ولا يفصح عنها لمحدثه مباشـرة. كما أن توقيت عرض مخاوفه السابقة من الروس، فور الانتهاء من معاهدة الصداقة بينه وبين الإنجليز، يثير التسـاؤل حول حقيقة أهدافه. ترى هل كان الملك عبد العزيز مخلصًـا للإنجليز إلى هذا الحد، أم إنه كان حريصًـا على جلب المزيد من تأييدهم له، دون الإضـرار المباشـر بعلاقاته بدولة أخرى، وفي وقت كان يسـعى فيه لدعم مركزه في ممتلكاته الواسـعة، ويحتاج إلى دعم وتأييد جميع الدول، التي لها علاقة بشـبه الجزيرة العربية، سواء أكان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر.

كان الملك عبد العزيز مقتنعا بأسلوب الدبلوماسية الهادئة في معالجة المشاكل المحيطة به على المستويين المحلي والدولي، وكان قادرا على إقناع كلايتون بأن الإنجليز ليسوا وحدهم في الميدان، وأن لهم منافسين سياسيين أقوياء. ولم يكن كلايتون في حاجة إلى من يُذكِره بذلك، فهو خبير بشئون الشرق الأوسط، وكان من قبل خبيرًا مسئولاً عن جهاز المخابرات العسكرية البريطانية في مصر، وكان يعلم جيدًا طموحات الفرنسيين والإيطاليين، وتحينهم الفرص لتنمية مصالحهم وتطويرها على حساب المصالح البريطانية في الشرق الأوسط. ورغم ذلك لم يكن كلايتون يعلم بتفاصيل النشاط السوفيتي المعادي لبلاده، قبل أن يسمعه من الملك عبد العزيز، ويتبين ذلك من تحمسه الشديد والمفاجئ في معالجة هذا الأمر الخطير الذي صوره له الملك.

ولعل إفصـــاح الملك عبد العزيز لمســئول بريطاني عن طبيعة النشــاط السوفيتي، إنما يعني التأكيد على أن الخيار البريطاني - إذا كان للملك أن يختار- هو الخيار الأفضــل، فقد كان الملك يدرك جيدًا أن بريطانيا هي الدولة الوحيدة، التي كانت تملك معظم الأوراق في إدارة شــؤون الشــرق الأوســط، وأن عليه أن يأمن شـرورها، وأن يُؤّمن صـداقتها. وقد نجح في هذا نجاحًا مشـهودًا، والدليل على ذلك نجاحه في تغيير وضعه الدولي، الذي حكمته معاهدة دارين ١٩١٥[١٢٠]، بوضع أفضل قننته معاهدة جدة ١٩٢٧. وهذه الســياســية، التي قوّت علاقاته ببريطانيا خدمت ســياســته العامة، فالمعاهدة لم تفسـد علاقاته بالســوفيت، على العكس من ذلك تمامًا، أمّنت علاقاته بهم، وذلك من منطلق أنه ترك لبريطانيا مهمة التصــدي للطموحات السوفيتية في بلاده، نيابة عنه ودفاعًا عن مصالحها. ترى هل كان الملك يحاول أن يضـرب دولة كبرى بأخرى لتحقيق مصـالحه هو؟ هذا ما سـنتعرض له في مناسبة تالية.

---

[١٢٠] معاهدة دارين ١٩١٥

ومهما يكن من أمر، فقد وقَعَ تقرير كلايتون على آذان صماء في لندن. فالبريطانيون لم يكونوا واثقين من صحة وجود نشاط سوفيتي فعال في الحجاز. وفي حال وجوده فإنه لن ينجح في تحقيق أهدافه، لأسباب كثيرة تتعلق بحتمية الصدام الأيديولوجي بين الفكر الشيوعي والفكر الإسلامي، وبالتالي بتأهب المسلمين للتصدي لمثل هذه الأفكار. هذا إذا تناولنا النشاط السوفيتي من وجهة النظر العقائدية. أما إذا تناولنا النشاط السوفيتي من وجهة النظر السياسية، بمعنى التصدي للدعاية السوفيتية المضادة للاستعمار الغربي، فهذه قضية تهم بريطانيا والدول الأوروبية، وهم يعلمون أن قدرات الإتحاد السوفيتي كانت ـــ حتى ذلك الوقت. عاجزة عن ممارسة نشاط فعال في هذا المجال. وبالتالي فليس هناك وجاهة للمخاوف التي انتابت كلايتون أو غيره ممن شاركه الرأي. وأدى وصول أعداد قليلة من الحجاج الروس (نحو أربعمائة حاج) في موسم عام ١٩٢٧ إلى تقليل مخاوف البريطانيين من النشاط السوفيتي. وبعد انتهاء الموسم لم يستطع البريطانيون إثبات وجود أي نشاط لهذه المجموعة القليلة العدد.

ولعل في هبوط أعداد الحجاج الروس بشكل فجائي ما يدعو إلى التساؤل حول أسباب هذه الظاهرة الغريبة، التي تبدو وكأنها تعكس تراجعا ظاهريا في السياسة السوفيتية، وتبدو في الباطن غير ذلك. فلعل السوفيت قصدوا الإقلال من أعداد الحجاج الروس ـ بعد أن خاضوا تجربة سابقة عمرها ثلاث سنوات، في استخدام هؤلاء الحجاج بشكل مباشر في الدعاية السوفيتية ـ بهدف إيقاع الإنجليز في وهم جديد مفاده أن السوفيت لم يعودوا متلهفين على الوصول إلى الحجاز، كما كان الأمر من قبل، وأنهم عدلوا عن انتهاج سياستهم التي تعتمد على استخدام الحجاز مرتكزًا للانطلاق إلى آسيا وأفريقيا. ويتفق ما توصلنا إليه مع ما ذكره الوكيل البريطاني في جدة، من أن السوفيت يستخدمون إستراتيجية جديدة في الدعاية، لا تنهي دور مكة، وإنما تؤكد عليه، وذلك باستخدام عناصر جديدة وأساليب جديدة، إبعادًا للشبهات، وتفاديًا لصدام مباشر مع بريطانيا[١٢١].

[١٢١] Jeddah Report, June ١٩٢٧, F.O.٣٧١/ ١٢٢٥٠; Jeddah Report, July ١٩٢٧, F.O.٣٧١/ ١٢٢٥٠

الدعاية السوفيتية من خلال نشاط مسلمي جنوب شرقي آسيا:

سعى السوفيت خدمة لدعايتهم في مكة وفي الشرق إلى توجه جديد يعمل على توظيف عناصر إسلامية من جنوب شرقي آسيا، ومن سكان المستعمرات الأوروبية، فقد وفد دعاة الفكر البلشفي الجدد إلى موسم الحج عام ١٩٢٧، من حيث لم يتوقع أحد. فجاءوا من أقصى الشرق، من جاوة، المستعمرة الهولندية، التي اعتبرها الروس من قبل "المنطقة التي يتطلع الشيوعيون الروس إليها، باعتبارها بيئة مناسبة لنشر أفكارهم"[١٢٢]. ففي أندونسيا نشطت بعض الجمعيات لنشر الأفكار الشيوعية بين الحجاج خلال موسم الحج. وحين أدركت السلطات السعودية نشاطهم بادئ الأمر حملتهم على مغادرة الحجاز.

---

[١٢٢] Jordan to Chamberlain, ٣ July ١٩٢٦, E٤٣١٩/ ١٤٢٦/ ٩١, F.O, F.O.٣٧١/١١٤٤٦, "Report on the Activities of the Soviet Delegates to the Moslem Conference held at Mecca, June ١٩٢٦".

وقد كان لهذا النشـــاط غير المتوقع أصـــداء عديدة وردود فعل مختلفة في الحجاز وفي خارجه. ولكن الحكومة الهولندية كانت أكثر اهتماما بتلك التطورات. لذلك أبدى القنصـــل الهولندي في جدة اهتمامًا كبيرًا بهذا الأمر. وبين أيدينا تقرير أعده هذا القنصـــل وبعث به إلى الحاكم العام الهولندي في منطقة جنوب شـــرقي آســـيا في ١٧ يونية ١٩٢٧[١٢٣]. وأهم ما ورد في هذا التقرير الســـري هو اكتشـــاف جمعيتين تكونتا من بين أعضـاء بعثة الحج الاندونيسـية في مكة، قبل موسـم الحج مباشــرة، بهدف توســيع دائرة النشــاط الشــيوعي في الشــرق الأقصــى، بعد عودة الحجاج. وكانت كلتا الجمعيتين تحت رئاســـة ماهدارشـــيوعي من جاوة، وكان قد وصل إلى جدة دون وثيقة سفر.

---

١٢٣ Dutch Consular Representative at Jeddah to the Governer General of The Netherlands East Indies , ١٧ June ١٩٢٧, E ٣٧٤٢/٣٢٣/٩١ , F.O.٣٧١/ ١٢٢٤٨

أولى هاتين الجمعيتين هي "جمعية مشايخ أندونسيا". وكان يتولى مسئوليتها الحاج الشيخ عباس عراقي، الذي أعلن عدد من الحجاج تبعيتهم له وانضمامهم إلى جمعيته. وكان الشيخ عباس قد وعد أعضاء جمعيته بالتظاهر بعدم شغل نفسه، أكثر من اللازم، بالحجاج الذين انضموا إلى جمعيته، إمعانًا في التمويه والتغطية. وكان الشيخ عباس يتلقى رسم عضوية قدره ٢,٥ جلدر[١٢٤] من الحجاج الراغبين في الانضمام إلى هذه الجمعية. وكان على الأعضاء أن يصبحوا شيوعيين بمجرد انضمامهم، وأن عليهم التمهيد للنشاط الشيوعي، الذي سيأتي في مرحلة تالية. والواقع أن هذه الجمعية كانت بمثابة نوع من المدارس التي يتم من خلالها انتقاء العناصر المناسبة والراغبة في الالتحاق، وعلى هؤلاء الإقرار بأن يصبحوا أعضاء في المنظمة أو الجمعية الثانية التي كانت تسمى "جمعية إندونيسيا الإسلامية"[١٢٥].

---

[١٢٤] الجلدر عملة هولندية تعادل وقتئذ نصف جنيه استرليني

[١٢٥] Ibid.

وطبقًا للبرنامج الموضوع لهاتين الجمعيتين: "جمعية مشايخ إندونيسيا" و "جمعية إندونيسيا الإسلامية"، فإن ثلاثة من أعضاء "جمعية مشايخ إندونيسيا" سوف يعودون إلى الشرق الأقصى ليجندوا أعضاء جدد من بين العناصر المقيمة، والتي تتمكن من الذهاب إلى مكة، بهدف الدخول في عضوية الجمعية، حتى يتم تكوين مركز جديد لنشر الشيوعية، وجمع التبرعات لدعم "جمعية إندونيسيا الإسلامية"، وبعد ذلك يمكن تكوين جمعية جديدة كانت فكرتها قد طرحت من قبل وهي جمعية "الحاج" الإندونيسية.

أخذت "جمعية إندونيسيا الإسلامية" طابعًا دينيًا. وهو أمر يصطدم صراحة مع كونها جمعية لنشر الفكر الشيوعي، طبقًا لما أورده تقرير القنصلية الهولندية بجدة. ويبدو أن التقرير خلط بين معاداة الغرب ممثلاً في الاستعمار الهولندي، وبين مصادقة الثورة في الشرق ممثلة في الثورة البلشفية في روسيا. فقد كان رئيس الجمعية المهادار السابق الذكر، ومستشارها جنان الطيب،

وهو مواطن إندونيسـي، من سـوماطرة، تعلم في الأزهر بالقاهرة، وليس من المتوقع أن يتقبل مثل ذلك الرجل، الذي تعلم تعليمًا دينيًا أزهريًا، الفكر الشـيوعي، ناهيك عن تبني الدعوة إليه. اللهم إلا إذا كان المقصود هو الشيوعية السياسية.

ومن المفهوم أن "جمعية مشايخ إندونيسيا" كانت تمول "جمعية إندونيسيا الإسـلامية" بمبالغ تقدر بحوالي ألفي جنيه إسـترليني. وطبقًا لتقرير القنصـلية الهولندية كان من المقرر أن يعمل جنان الطيب مراسـلاً لهذه الجمعية في القاهرة، كما كان من المقرر إرسال بعض الأعضاء إلى جهات متفرقة بهدف عمل الاتصالات الضرورية لممارسة نشاط الجمعية، منها وفد إلى كانتون في الصين، وآخر إلى موسكو في روسـيا. وسـعت "جمعية مشـايخ إندونيسـيا" "لاقتراض نفقات إرسـال هؤلاء الوفود المبعوثين إلى بلدان إسـلامية مختلفة، حيث كان من المقرر صـرف ٣٠ جنيهًا إسترلينيًا لكل مبعوث"[١٢٦].

[١٢٦] Ibid.

وطبقًا لتقرير القنصلية الهولندية، فإن "جمعية إندونيسيا الإسلامية" أفصحت عن رأيها في حكم الملك عبد العزيز في الحجاز، في أول إشارة إلى هذا الموضوع، حين قالت: إذا لم يكن الملك حسين قادرًا على تأمين طرق الحجاج في الحجاز، فذلك كان مرجعه إلى قصور في الموارد المالية، ولكنه كان على كل حال يترك المسلمين يعبرون عن آرائهم ويناقشون أفكارهم.

أما الملك عبد العزيز ـ طبقًا للتقرير السابق نفسه ـ فقد جعل الطرق آمنة، وحقق له ذلك ميزة فرض الضرائب على الحجاج، الذين يستخدمون تلك الطرق، ولكنه في نفس الوقت سلب هؤلاء المسلمين حرية مناقشة آرائهم الدينية. وإذا كان ذلك يعد موقفًا سياسيًا لجمعية دينية، فإنها حذرت الملك عبد العزيز من أنها سوف تسعى لعمل اتصالات مع الإيرانيين وغيرهم من العناصر المعارضة للوجود البريطاني في الشرق الأقصى.

ولقي هذا الاتجاه تعاطفًا من بعض العناصر وبخاصة السوريين. ولكن الملك، الذي كان يرفض استخدام الأراضي المقدسة لأغراض سياسية، أمر السلطات السعودية في الحجاز: فقبضت على عدد كبير من أعضاء هاتين الجمعيتين[127].

الدعاية السوفيتية من خلال النشاط التجاري:

عرضنا لنموذج واحد من الأساليب الجديدة المستخدمة في إستراتيجية العمل السوفيتي في الحجاز، تمثل في التقية باستخدام عناصر غير روسية، من جنوب شرقي آسيا، وفيما يلي سنعرض لنموذج آخر من أساليب نشر الدعاية السوفيتية، وهو أسلوب قائم على أسس اقتصادية، ويعتمد على إغراق أسواق الحجاز بالسلع السوفيتية الرخيصة الثمن، بهدف طرد السلع الغربية، وخاصة البريطانية منها، والتي يرد معظمها من الهند.

[127] Jeddah Report, July ١٩٢٧, loc. cit. ; Jeddah Report, January ١٩٢٨, F.O.٣٧١/ ١٣٠١٠

وبعض هذه السلع حيوي كالدقيق والسكر والزيت والبترول، والمواد الغذائية الأخرى، لأن الحجاز لم يكن ينتج غذاءه.

بدأ السوفيت في تطبيق تلك السياسة الاقتصادية اعتبارًا من منتصف عام ١٩٢٧، بالتعاون مع الأتراك، عن طريق تنظيم رحلات بحرية منتظمة بين الموانى الروسية وميناء جدة. وقد أمّن السوفيت موقف الأتراك لتيسير ملاحة السفن السوفيتية في المياه الإقليمية التركية، وخاصة عبور البوسفور والدردنيل. وقد تبلور هذا التعاون في إنشاء خط ملاحي جديد يعمل بين أوديسا واستانبول من جهة، وموانئ شبه الجزيرة العربية من الجهة الأخرى، بما في ذلك ميناء عدن، الواقع بشكل مباشر تحت الاستعمار البريطاني. وكان الهدف الرئيس المعلن لهذا المشروع هو نقل الحجاج الروس والبضائع السوفيتية إلى موانئ البحر الأحمر

. أما الأهداف غير المعلنة فتتمثل في مطاردة بريطانيا بمختلف الوسائل السياسية والاقتصادية، حتى تتمكن من طردها كلية من الشرق. وهو مشروع طموح، بُدء في تنفيذه في شبه الجزيرة العربية، ربما لتنوع صور الحضور البريطاني فيها، مما ييسر التجربة السوفيتية في مقاومة الحضور الغربي في الشرق.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت تلك السياسة محصلة دراسة أعدتها بعثة اقتصادية سوفيتية رسمية إلى الحجاز، بإشراف إحدى الجماعات الإسلامية. ولكن جريدة "التايمز"[١٢٨] اللندنية ترى أن الاتجاه الاقتصادي في السياسة السوفيتية اتجاه ظاهري، وأنه ليس تعبيرًا عن سياسة واقعية قائمة بذاتها في المجال الاقتصادي. وإنما هو وسيلة إلى غاية محددة ذات طبيعة سياسية، هي ضرب النفوذ البريطاني عن طريق الحجاز واليمن وعسير وإريتريا على وجه التحديد، وغيرها من موانئ البحر الأحمر بصفة عامة.

[١٢٨] The Times, ١ Sept. ١٩٢٧

وجميعها يمكن أن تكون سوقًا مفتوحة لكثير من السلع السوفيتية مثل السكر والدقيق والكبريت والصابون والبترول والبطاطس والشعير.

وطبقًا لما أوردته جريدة "التايمز" فقد كشفت جريدة "إزفستيا" السوفيتية عن أن السوفيت يخططون "لابتلاع" المخططات البريطانية في هذه المنطقة الحيوية من العالم. ويعتبر الروس قيام أي نوع من التعاون بين بريطانيا والبلاد العربية مسألة غير مرغوب فيها. وكذا الحال بين البلاد العربية وبعضها، فالعلاقات التجارية بين مصر والحجاز، على سبيل المثال، ستكون ذات آثار سلبية على المشاريع والطموحات الروسية - التركية[١٢٩].

---

[١٢٩] The Times, ١٦ Sept. ١٩٢٧

ومهما يكن من أمر تفسير جريدة "التايمز" للسياسة الروسية في مظهرها الاقتصادي، فمما لا شك فيه، أن السوفيت قد نجحوا في الحصول على موطئ قدم في أسواق شبه الجزيرة العربية، ذلك أن البعثة الروسية ـ الإسلامية السابقة الذكر كانت قد لعبت دورًا رئيسيًا في إقناع صغار التجار في الحجاز بشراء البضائع الروسية الرخيصة الثمن. وأدت المحاولات الأولى في هذا الاتجاه إلى هبوط أسعار السلع في أسواق الحجاز بشكل لافت للنظر، وخاصة أسعار الدقيق والسكر البريطاني الوارد من الهند.

ولكن أسلوب السوفيت الجديد في مجال التنافس التجاري مع بريطانيا في الأسواق الشرقية كان سلاحًا ذا حدين، فمع أنه طرد السلع البريطانية من السوق الحجازي، إلا أنه في الوقت نفسه، وطبقًا لما أوردته "التايمز"، أتى بنتائج سلبية ظهرت على مخزون الاتحاد السوفيتي من السكر. إلى حد أن الحكومة السوفيتية اضطرت إلى العمل على تهدئة المواطنين السوفيت

الذين انعكست عليهم هذه السياسة بوضوح في كل من موسكو ولينينجراد، ووعدتهم بكميات من السكر المستورد يغطي احتياجات السوق المحلية[١٣٠].

وبعد نجاح المحاولة الأولى في إرسال وتوزيع الشحنة السوفيتية من البضائع، بدأت الحكومة السوفيتية في إرسال الشحنة الثانية، في أكتوبر ١٩٢٨، إلى الحجاز، على الخط الملاحي الجديد للتجارة بين أوديسا والبحر الأحمر، واستكمالاً للخطة السوفيتية وإحكامًا لها، بدأ التجار الروس أولاً بتفريغ الأسواق في الحجاز من السلع الواردة إليها من كل من هامبورج ولندن، وذلك بشراء كميات كبيرة منها وإخفائها، حتى لا يكون السوق خاليًا أمام البضائع السوفيتية، التي لا يمكن منافستها. وفي ظل هذه السياسة فلن يجد المستهلكون في الحجاز أمامهم سوى السلع السوفيتية الرخيصة الثمن فيقبلون على شرائها، ويعتادون عليها، خاصة وأنها كانت متوافرة في متناول الجميع[١٣١].

---

[١٣٠] The Times, ١٥ Oct. ١٩٢٧

[١٣١] Jeddah Report, Nov. ١٩٢٧, , F.O.٣٧١/ ١٢٢٥٠

وإذا كان التجار الروس قد نجحوا في الوصول إلى صغار التجار الحجازيين، فإن موقف كبار التجار في الحجاز كان مختلفًا تمامًا. فهؤلاء لم يكونوا رافضين فقط للأسلوب السوفيتي بل إنهم كانوا في الواقع متضررين منه، وبالتالي فإن خطتهم كانت تتركز في إقناع حكومة الحجاز بضرورة اتخاذ موقف رسمي يساعدهم على التصدي لغزو البضائع السوفيتية لأسواق الحجاز، التي كانت لزمن طويل مجالاً حيويًا لنشاطاتهم دون منافس. وما أن علم الحاج عبد الله (قائمقام جدة، وأحد كبار التجار بها، ووكيل لشركة تصدير هندية في بومباي) بأن السلع السوفيتية تباع في أسواق الحجاز بأسعار منافسة لسلع مماثلة تأتي من الهند البريطانية، حتى دعا كبار التجار بجدة إلى العمل معًا لمواجهة هذا الموقف الجديد والتصدي للتيار السوفيتي[١٣٢].

[١٣٢] Ibid.

كانت الخطوة الأولى في سياسة كبار التجار بجدة هي تنظيم لقاء عمل بينهم في بحره، الواقعة على الطريق من جدة إلى مكة، في ١٠ نوفمبر١٩٢٧. ودعي إلى هذا الاجتماع العام كل من الأمير فيصل بن عبد العزيز، نائب الملك في الحجاز، والدكتور عبد الله الدملوجي، مدير الشئون الخارجية. حيث عرضت فكرة فرض ضرائب عالية على السلع السوفيتية، بحيث يمكن تحقيق التوازن في الأسعار في الأسواق، ولكن روح التشدد العامة بين التجار غلبت على ذلك الاتجاه، وتقرر مقاطعة البضائع السوفيتية مقاطعة كاملة، وحرمان السوفيت من موطئ القدم الذي حصلوا عليه في مرة سابقة[١٣٣].

---

[١٣٣] **Jakins to Chamberlain, ٢٢ Nov. ١٩٢٧, E٥٣٠٩/ ٣٢٣/ ٩١, F.O, F.O.٣٧١/١٢٢٤٨; Jeddah Report, Jan. ١٩٢٨, , F.O.٣٧١/ ١٣٠١٠.**

أما الخطوة الثانية فقد كانت مترتبة على الخطوة الأولى، وذلك أن اجتماع مدينة بحره (الواقعة بين جدة ومكة) أسفر عن تكليف الدكتور عبد الله الدملوجي بالسفر إلى جدة في اليوم التالي (١١ نوفمبر١٩٢٧) وهو اليوم الذي كان من المتوقع فيه وصول السفينة الروسية "طومب Tomp" محملة بالبضائع إلى الميناء الحجازي. وكان على الدملوجي أن يخبر القناصل الأوروبيين بأن فكرة فرض ضرائب عالية على السلع السوفيتية لموازنة الأسعار في الأسواق، قد رفضت في اجتماع كبار التجار في بحره، وتقرر بدلاً منها المقاطعة الكاملة، وطلب الدملوجي من الجميع التعاون مع حكومة الحجاز لتحقيق هذا الهدف[١٣٤]. وهكذا أصبح موقف كبار التجار يشكل الموقف الرسمي لحكومة الحجاز تجاه السلع السوفيتية وتجاه سياسة إغراق الأسواق بها.

---

[١٣٤] Jakins to Chamberlain, ٢٢ Nov. ١٩٢٧, E٥٣٠٩/ ٣٢٣/ ٩١, F.O, F.O.٣٧١/١٢٢٤٨

تفاوتت ردود الفعل لدى القناصل الأوربيين وغيرهم في جدة. فقد استجاب القنصل الإيطالي، وكذا القنصل المصري للخط السياسي الجديد في مقاطعة السلع السوفيتية، وأصدرا تعليمات إلى التجار الذين يتعاونون معهم بعدم شراء السلع السوفيتية. وقد سُرت شركة جيلاتي ـ هانكي وشركاهما Messers Gellaty – Hankey and Company لانتهاج تلك السياسة، لأن مقاطعة السلع السوفيتية كانت تعني الاستغناء عن موارد البنزين السوفيتي، وكانت شركة جيلاتي ـ هانكي هي الشركة المحتكرة لتوزيع البترول نيابة عن شركة شل في الحجاز[١٣٥].

[١٣٥] Ibid.

غير أن هناك بعض العناصـــر التي لم تمتثل لهذا الاتجاه، مثل الأتراك، وبعض التجار من بخارى وســـوريا، لأنه ليس من المتوقع أن يعمل هؤلاء ضـــد المصالح السوفيتية لأسباب سياسية سبق أن أوضحناها، هذا من ناحية، ولأن القنصل الفرنسي كان يمارس تأثيرًا محدودًا عليهم، من الناحية الأخرى.

وفي ١٢ نوفمبر جرت بعض المناوشـــات بين الحاج عبد الله (قائمقام جدة) والروس، الذين كانوا يكظمون غيظهم في مواجهة المقاطعة شـــبه المحكمة، تفاديًا للنتيجة الفاشلة التي كانت تحيط بمهمتهم.

وفي اليوم التالي (١٣ نوفمبر) وصلت سفينة صغيرة عليها ستة أفراد روس[١٣٦]. وتنتمي إلى شركة روسية ـ تركية مقرها موسكو، ويرأسها دبلوماسي سابق يدعى غالب كمال بك. ويلاحظ من الوظائف التي شغلها هؤلاء الستة سابقًا، أو من وظائفهم في هذه المرحلة، أنهم ليسوا فقط من ذوي النشاط التجاري، وإنما هم في نفس الوقت دبلوماسيون، أو على الأقل كانوا كذلك في ماضيهم القريب. على كل حال، كان الهدف المعلن لهذا الطاقم هو أنهم جاءوا إلى جدة ليتولوا مسئولية النشاط الاقتصادي في الحجاز، من خلال مكتب تجاري سوفيتي بجدة، ولكن مهمتهم العاجلة كانت الإسراع في توزيع السلع التي سبقتهم إلى الحجاز على ظهر السفينة "طومب".

---

١٣٦ الأعضاء الستة كما سماهم جاكينز في تقريره السابق هم: نعوم بلكين Belkin المدير الإداري لشركة النقل التجاري بين أوديسا والحجاز؛ الإسكندر ستانسبتز Stancebitz مرشد دبلوماسي؛ فلاديمير أوزتروف Ozetrof مساعد مدير شؤون الشرق الأوسط في وزارة الخاجية، وكان من قبل وزيرا سوفيتيا في طهران؛ بنيامين ببادجان Babadjan طبيب كان يعمل من قبل مسؤولا في كابول؛ بودولف بلز Bilz وكان من المقرر أن يكون مدير فرع شركة النقل السوفيتية التركية في جدة؛ ستوبان Stupan سكرتير قنصل وكان يعمل من قبل ملحقا في السفارة السوفيتية في أنقرة.

وبينما تمكن الطاقم السوفيتي من النزول إلى الحجاز، لم تتمكن مجموعة من الإيطاليين بالنزول في جدة. واستشعر القنصل الإيطالي الإهانة، ودعا زميله البريطاني (جاكينز) لأن يتقدما معًا باحتجاج رسمي إلى حكومة الحجاز التي "تفتح أبوابها للروس". ولكن القنصل البريطاني رفض الانضمام إلى زميله الإيطالي، إلى أن يتلقى موافقة حكومته في هذا الشأن. أما عن علاقة ذلك بالروس، فقد أثار الاستشكال الإيطالي المسئولين في جدة، وبدأوا التحقيق في السماح للروس بدخول الحجاز، وتبين أن الطاقم الروسي لم يحصل على تصاريح الدخول الرسمية. وكانت هذه فرصة طيبة للحاج عبد الله، قائمقام جدة وكبير التجار فيها، أن يصدر تعليماته، التي تأمر الروس بمغادرة الحجاز على الفور. فلجأوا بدورهم إلى الوكالة السوفيتية. وحينما حاول بعضهم النزول إلى الشارع ألقتت الشرطة القبض عليهم[١٣٧].

[١٣٧] Ibid.

ثارت ثائرة القنصل السوفيتي بجدة، وقرر السفر إلى مكة لمقابلة الأمير فيصل، مهددًا بأنه سوف يتوجه إلى الرياض لمقابلة الملك عبد العزيز بشأن الموضوع، إذا لم يتلق ردًا مقنعًا حول أسباب المعاملة السيئة التي تعرض الطاقم السوفيتي لها. ويبدو أن القنصل السوفيتي لم يستطع تغيير الأوضاع إلى الأفضل كما كان يتمنى، أو معالجة هذا الموقف الطارئ بلباقة. ذلك أنه بُلّغ بأن حكومة الحجاز ليس لديها معلومات عن هذا الموضوع، وأن الملك عبد العزيز في الرياض لم يُستشر في هذا الشأن، وقد لا يكون من المدهش حقًا أن تكون السفينة قد دخلت جدة وخرجت منها دون أن يعلم الملك بذلك.

وسواء أكان الملك عبد العزيز وحكومة الحجاز على علم بموضوع الطاقم السوفيتي والسفينة "طومب"، أو لم يكونوا على علم بهما، فإنه لمن المؤكد أن الحاج عبد الله، بصفته قائمقام جدة، وبصفته كبير التجار فيها، كان يقف على دقائق الأمور فيما يتعلق بهاتين المسألتين، ولا نعتقد في أنه كان يتصرف بحرية مطلقة، دون علم الأمير فيصل أو الملك عبد العزيز أو كليهما معًا. وبكلمات أخرى فإن الملك عبد العزيز وقف موقفًا سلبيًا تجاه النشاط السوفيتي، فهو لم يعلن ترحيبه به، كما أنه لم يعلن مقاومته له، تاركًا القضية بين أيدي المعنيين بها بصورة مباشرة من التجار الحجازيين، الذين كان الضرر سيلحق بهم بكل تأكيد إذا أفرغت السفينة الروسية حمولتها. فإن وافقوا على إعطاء السوفيت فرصة للاتجار في بلادهم، فلن تتغير صورة الملك عبد العزيز أمام بريطانيا، وإن رفضوا فلن يخسر هو شيئًا، لا مع السوفيت أنفسهم، ولا مع الإنجليز، ولا مع التجار الحجازيين. ومع ذلك فإن الحاج عبد الله كان بصفته الرسمية يعكس موقفًا حكوميًا رسميًا، وإن كان موقفًا غير معلن. كما كان يعكس في نفس الوقت موقف التجار أصحاب المصلحة المباشرة.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت المقاطعة محكمة للسلع والبضائع السوفيتية الواردة إلى الحجازعلى السفينة "طومب"، واضطرت السفينة إلى مغادرة ميناء جدة في ١٦ نوفمبر، وعلى متنها أربعة من بين الأعضاء الستة الذين جاءوا إلى الحجازلتنظيم مكتب تجاري في جدة، بينما وافقت حكومة الحجازعلى استبقاء الاثنين الآخرين، فقد كان الأول منهما طبيبًا، وكان الثاني سكرتيرًا استشاريًا للقنصلية السوفيتية في جدة[١٣٨]. وليس من الواضح في الوثائق أسباب استبقاء السعوديين هذين الاثنين؟ هل كانت الحكومة السعودية تريد الاستفادة منهما كل في مجاله؟ أم أن هناك أسبابا أخرى لم يُفصح عنها بعد؟.

[١٣٨] Jeddah Report, Nov. ١٩٢٧, , F.O.٣٧١/ ١٢٢٥٠

وبعد أن نجح التجار الحجازيون، بمعاونة المسـئولين، في توجيه لطمة لأول محاولة جادة من جانب السـوفيت لتنظيم نشـاطهم التجاري إلى شـبه الجزيرة العربية، تطوع القنصـل المصـري وأبلغ ميناء السـويس: أن السـفينة السـوفيتية "طومب" غادرت جدة دون تصريح من الشئون الصحية، وأخبر القنصل الميناء بما جرى للسـفينة من سـوء اسـتقبال، كما أطلعه على سـياسـة المقاطعة الشـاملة للبضـائع التي حملتها، وعدم التصـريح بالإقامة لأربعة من أعضـاء المكتب التجاري السوفيتي، الذي كان من المقرر تشكيله في جدة[١٣٩].

ويُقيّم جـاكينز، الوكيـل البريطـاني في جـدة، التطورات الأخيرة ومـا جرى للسـفينة السـوفيتية "طومب"، بأنها كانت إجراء محببًا، لقي القبول لدى أطراف من الحجازيين، ومن ممثلي الدول الأجنبية على حد سـواء، "فليس هناك من يعتقد بأن السوفيت قد جاءوا إلى هنا (الحجاز)

١٣٩ Ibid

من أجل التجارة فقط". على كل حال، وكما يرى جاكينز، فإن "تجارة الدقيق والسكر في بلد فقير ومتخلف مثل الحجاز ليست تجارة مربحة". وبالتالي فلابد من وجود دوافع أخرى لدى السوفيت من وراء ذلك، خاصة وأن تاريخ الوكالة السوفيتية في جدة، كان يشير إلى وجود محاولات مؤكدة لتأسيس مكتب سياسي، لممارسة النشاط الخفي في الحجاز، في شكل وكالة تجارية[١٤٠].

ويبدو أن تقييم جاكينز للموقف ليس فيه افتراء على السوفيت، فقد اعترف نائب القنصل السوفيتي بأن أحد أفراد الطاقم السوفيتي من بين الأربعة الذين لم يُسمح لهم بالبقاء في الحجاز، وهو فلادمير أوزتروف، مساعد مدير شئون الشرق الأوسط بوزارة الخارجية السوفيتية، أكد على حقيقة الأهداف السياسية للبعثة واعترف بمحاولة تكوين مكتب سياسي[١٤١].

---

١٤٠ Ibid

١٤١ Jakins to Chamberlain, ٢٢ Nov. ١٩٢٧, E٥٣٠٩/ ٣٢٣/ ٩١, F.O, F.O.٣٧١/١٢٢٤٨

ويعيب هذه المحاولة الســوفيتية أنها افتقرت إلى التنظيم المحكم، ليس في المســـائل الكبيرة فقط، وإنمـا في أبســط الأمور المتعلقـة بـالجوازات والتراخيص الخاصة بالأفراد. وليس لدينا في الواقع تفسيرلذلك، ولكن السوفيت لابد وأنهم قد تعلموا الدرس، وأن هذه المحاولة لن تكون الأخيرة، خاصة وأن أساليبهم في الوصول إلى الحجازكانت ـــ كما رأينا ـــ خلال الفترة الســابقة متعددة ومتنوعة ويحوطها الغموض. في هذه الظروف قدم القنصل السوفيتي اعتذارًا للمسئولين في الحجاز، عن دخول بعض الرعايا السوفيت إلى البلاد، بدون الحصول على إذن مسبق، مما تسبب في تكسيرالقواعد المعمول بها دوليًا في مجال الجوازات.

لم يكن من المتوقع، طبقًا لرواية التقارير المعاصـــرة، أن تضـــيّع الحكومة السـوفيتية وقتًا وجهدًا في سـبيل الوصـول إلى هذه "المملكة البدائية". فالحجاز في حد ذاته لم يكن مطلبًا ســوفيتيًا، وإنما كان وســيلة إلى غاية أكثر طموحًا، فهو في نظرهم بوابة الشــرق، لأنه يقدم "فرصـــة نادرة وفريدة" لدعاية ســهلة وميســورة للســوفيت في الشــرق[١٤٢]. ولهذا فإن مثل هذا الطموح لا يمكن أن يتحقق لهم إلا في ظل حكومة حجازية قوية، قادرة على تأمين وصــول أكبر عدد من الحجاج إلى الأماكن المقدســة، وضـــمان ســلامتهم أثناء إقامتهم فيها، ولهذا أيضًــا فليس من المنطقي أن يعمل الاتحاد الســوفيتي ضــد الملك عبد العزيز، على العكس، فإن جميع الخطوات الســياســية والدبلوماســية والاقتصــادية، التي خطاها الاتحاد السوفيتي، كانت تدعم مركز الملك عبد العزيز، ولا تعمل ضده.

[١٤٢] Hbid

كان الملك عبد العزيز يعلم ذلك جيدًا ويَعيه، ولكنه لم يكن على اســتعداد للسير مع السوفيت إلى آخر المدى، وإن فعل فإنه لم يكن على استعداد لإعلان ذلك. وإن أعلن فهو ليس على اســتعداد للتشــهير بهم صــراحة في تلك المرحلة الحرجة، ولهذا فليس من المتوقع من حكومة الحجاز أن تتبنى موقفًا جادًا في معارضــة المصالح السوفيتية بطريقة درامية. وهذا يفسر لنا السبب أو الأسباب التي جعلت من تجار الحجاز أبطال معارضــة النشــاط الســوفيتي، وظهر هذا الموقف كله وكأن الملك عبد العزيز كان غير راغب في إعلان موقف صــريح في تلك المرحلة تجاه السوفيت، تاركًا لكل مجتهد أن يفهم حقيقة موقفه على طريقته، ولعل هذه البلبلة كانت هدفًا مقصودًا بقصد تضييع الحقائق حول الموضوع.

صحيح أن الدكتور عبد الله الدملوجي، مدير الشئون الخارجية للملك عبد العزيز، التقى بجاكينز، الوكيل البريطاني، وتحدث إليه طويلاً، عن الدور الذي تعتزم حكومة الحجاز القيام به في مقاومة النفوذ الســوفيتي، الذي كان يحاول أن يغرس جذوره، وقد لخص جاكينز هذا الدور في عبارة موجزة بأنه كان طلبًا من الملك عبد العزيز إلى الســوفيت في قنصــليتهم بجدة يأمرهم فيه بترك بلاده والرحيل عنها. ومع ذلك فإن صح محتوى هذا الموقف، فإن جاكينز يشـك في مدى قدرة الدملوجي أو حكومة الحجاز على ترجمته إلى واقع. ولم يوضح جاكينز أسباب ذلك، ولعله كان يقصد التشهير بحكومة الحجاز.

كان جاكينز يعتقد في أن الحاج عبد الله، قائمقام جدة، هو بطل هذه القضية الحقيقي، فهو أول من لفت الأنظار لخطورة قدوم السفينة "طومب"، وهو صاحب اقتراح المقاطعة الشاملة للسلع السوفيتية، وفي كل الأحوال كان الضرر سيلحق به إذا تمكن السوفيت من إقامة موطئ قدم لهم في الحجاز، وكانت شركة الدملوجي البحرية، وبيته التجاري في بومباي، سيتأثرا كثيرًا. ولا شك في أن أسلوب الحاج عبد الله قد أزعج الروس إلى حد أنهم "قد لا يفكرون في العودة إلى الحجاز مرة ثانية"[١٤٣]. ولكن حدثًا واحدًا كهذا، لا يمكن ـــ بأي حال ـــ أن يدفع السوفيت بعيدًا عن الاستمرار في سعيهم الدؤوب من أجل تثبيت أقدامهم على سواحل البحر الأحمر جنوبًا حتى عدن.

[١٤٣] Ibid.

موقف الملك عبد العزيز:

لعل أزمة السفينة "طومب" كانت بداية لمرحلة جديدة في السياسة السوفيتية تجاه الحجاز، وصدق حدس مايرز حين كتب في مارس ١٩٢٧: "إن علامات التغيير ستبدأ مع نهاية هذا العام"[١٤٤].

تجمعت لدى الملك عبد العزيز، مع نهاية عام ١٩٢٧، الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ مزيد من خطوات التقارب مع بريطانيا، باستخدام ورقة النشاط السوفيتي في الحجاز عاملاً مساعدًا للإسراع بتحريك الموقف البريطاني، ودفعه دفعًا نحو تحقيق أهدافه هو. ولم يتردد الملك في مخاطبة المندوب السامي البريطاني بالقاهرة برسالة حملها إليه مستشاره الشيخ حافظ وهبة في ديسمبر١٩٢٧.

---

[١٤٤] Mayers to Chamberlain, ١٨. March, ١٩٢٧, E١٦٠٦/٣٢٣/٩١, F.O. ٣٧١/١٢٢٤٨.

وفيها يستحث الملك الحكومة البريطانية للاهتمام بمصالحها في شبه الجزيرة العربية، لأن هناك بعض القوى الأجنبية التي تسعى سعيًا حثيثًا من أجل تثبيت وجودها في شبه الجزيرة العربية. ويضيف الملك: "ونحن نقاوم نفوذ تلك الدول التي تسعى لتحقيق السيطرة الاقتصادية في الجزيرة العربية، وهذا نابع من رغبتنا في حماية المصالح البريطانية، ومنع معارضيها من أن يمسوا هذه المصالح، لأن حقوق الصداقة بيننا وبين البريطانيين تفرض علينا أن ننتبه جيدًا لمصالحنا ومصالحهم"[١٤٥].

---

[١٤٥] Ibn Saud to Lloyd, ٦. Dec., ١٩٢٧, Clayton Papers, Durham university, Box No. ٤٧٢/٢.

لخص الملك عبد العزيز في الرسالة السابقة ذاتها الموقف كما رآه، محددًا العناصر والقوى التي قصد الحديث عنها، فقال: إن إيطاليا تتخذ موقفًا جديدًا بالسعي المستمر لتأكيد وجودها في الجزيرة العربية، وأنها عرضت عليه الدخول في مفاوضات معها، لعقد اتفاق بينهما، وكان ذلك قبل أن تحرز نجاحًا في مثل هذا المجال مع إمام اليمن، وأن ما أنجزه الإيطاليون مع الإمام كان دافعه الأول هو فشلهم في تحقيقه في الحجاز.

ونلاحظ على هذه الرسالة أمرين: الأول أنها لم تسر عبر قنوات الاتصال المألوفة، فقد كان يجب أن توجه إلى لندن عبر الوكيل السياسي البريطاني في جدة، ولكن تخطي هذا المسئول البريطاني في جدة، ومخاطبة مسئول بريطاني آخر في القاهرة مباشرة، له دلالتان، إحداهما عدم الانسجام الكامل بين الملك وإدارته من ناحية، وبينه وبين الوكالة السياسية البريطانية في جدة من الناحية الأخرى.

ويشهد على ذلك حركة التغيير المستمرة والمتلاحقة في الوكلاء السياسيين البريطانيين في هذه الفترة. أما الدلالة الأخرى، فهي أن الملك أراد أن يخاطب بريطانيا من خلال كافة القنوات المتاحة للتواصل معها، في محاولة للتأثير على توجهات قراراتها السياسية فيما يتعلق بالمنطقة ككل.

والأمر الثاني الذي نلاحظه على رسالة الملك عبد العزيز إلى لورد لويد في القاهرة، أن الرسالة تسعى إلى إثارة فضول بريطانيا حول الأحداث والتداخلات في المنطقة، كي يستقطبها إلي جانبه دون غيره من الحكام في الجزيرة العربية. ويتضح ذلك من إشارته إلى علاقاته المتوترة بالهاشميين في كل من العراق وشرق الأردن، الذين كانت بريطانيا تساندهم بحكم مسئولياتها عن مناطق الانتداب، وبحكم حمايتها لمصالحها في التخطيط للطريق البري، الذي يصل بين شرق البحر المتوسط، ورأس الخليج العربي. وحذر الملك بريطانيا من أنها لو تركته بهذا الشكل دون مساندة مباشرة منها، فإن تلك السياسة سوف تسفر عن نتائج ضارة بها. ومن الملاحظ أن

الملك عبد العزيز عرض في رسالة واحدة ثلاث مشاكل كانت تواجهه:

الأولى: تدور حول النفوذ الإيطالي المتنامي في اليمن، والذي كان يدعم الإمام في مواجهته، وهذا النفوذ ما كان ليكون ذا مغزى بالنسبة للملك عبد العزيز، لولا أنه كان يخشى تفوق الإمام السياسي والعسكري في الجزيرة العربية.

والثانية: تدور حول إمكانية تحالف الهاشميين في العراق وشرق الأردن، وإحكام السيطرة على الحدود الشمالية، خاصة وأن تصريحاتهم فيما يتعلق باسترداد الحجاز منه بالقوة كانت تتردد وقتئذ.

والثالثة: وهي بيت القصيد في هذا المقام فتتعلق بالنشاط السوفيتي.

كان الملك عبد العزيز في عرضه لهذه النقطة الأخيرة أكثر صراحة عن ذي قبل. فهو حين يتحدث عن محاولات السوفيت إيجاد ركائز لنفوذهم الاقتصادي في جزيرة العرب، إنما أراد أن يقول للإنجليز: "إننا نعلن لكم صراحة رأينا في هذا الموضوع ... لقد تبنينا منذ البداية اتخاذ إجراءات تتفق وقوانين التجارة الحرة في العالم، ولكن من الناحية الأخرى، اتخذنا بعض الإجراءات الاحتياطية التي تحول دون أي تقدم لنفوذهم (السوفيت) في بلادنا". أي أن الملك عبد العزيز كان يسعى إلى تطبيق مبدأ حرية التجارة، الذي تسير عليه بريطانيا، وفي نفس الوقت يضع قيودًا في مواجهة العناصر المنافسة لها، وكأنه كان يقضي على مبدأ حرية التجارة. هذا بالرغم من أن التجارة مع السوفيت كانت أكثر فائدة له ولبلاده من الناحية الاقتصادية.

وبكلمات الملك عبد العزيز نفسه إلى لويد:"إن منح أية تسهيلات تجارية للروس سوف تكون ذات فائدة لبلادنا، ولكن هذا سيضر بالسلع المنتجة في الأراضي البريطانية، بالرغم من عدم وجود معاهدة تجارية بيننا وبين الحكومة البريطانية لحماية منتجاتها (في بلادنا). إن حكومة الحجاز تسعى برغبة صادقة لحماية المصالح البريطانية، ومقاومة منافسيها، وتبني مواقف لابد وأنها وصلت إلى أسماعكم. ولكن الروس لم يدخروا وسعًا لكي يقيموا الاتصالات معنا، ويقدموا المساعدات لنا، وهم يقفون إلى جانب بلاد شرقية، إننا لا نزال نسعى لتوكيد علاقاتنا مع الحكومة البريطانية. وحينما أبعث إليكم بهذه الأفكار، فلعلكم تفكرون في تصحيح الأوضاع الاقتصادية بين بلدينا، ولعلكم علمتم كذلك من مواقفنا هذه بالإجراءات التي اتخذناها من جانبنا لحماية مصالحكم"[١٤٦].

[١٤٦] Ibid.

كان الملك عبد العزيز مخلصًا في سعيه لتوطيد أركان حكمه في شبه الجزيرة العربية. وهو في سبيل تحقيق هذا الهدف الأصيل يحتاج إلى الأمن الخارجي، فضلاً عن الأمن الداخلي، وكان يدرك أن ذلك لن يتحقق إلا إذا نال تأييد بريطانيا له في هذا الصدد، أو على الأقل لقي عدم معارضتها. ولهذا كان الخيار البريطاني أمامه خيارًا حتميًا. فبريطانيا لابد أن تكون له صديقًا، أو على الأقل لا يجب أن تكون عدوًا.

ونلاحظ من النص السابق الذكر، أن الملك عبد العزيز لا يطرح مسألة السوفيت ونشاطهم الدعائي والاقتصادي في الحجاز كقضية مستقلة قائمة بذاتها، كما أنه لا يطرحها لأن المصالح البريطانية في بلاده كانت حقيقة في خطر، وإنما هو يعرضها من منطق هذه الفكرة: "إذا أردت أن تأخذ فلابد أن تعطي أولاً". وبكلمات أخرى، فإن الملك عبد العزيز كان يساوم الإنجليز بورقة السوفيت، التي يمسك بها في كلتا يديه. وهو في الوقت نفسه، يحاول أن يثبت للإنجليز أنه ند لهم. يعطي بقدر ما يأخذ، وعلى الإنجليز أن يقدموا له شيئًا في المقابل دائمًا.

والأسـلوب الذي عرض به الملك عبد العزيز تلك الحزمة من الموضـوعات، هو أسلوب ذوي الحصافة الدبلوماسية، وذوي المهارة، الذين يستثمرون الظروف المحيطة بهم، ويوجهونها لخدمة مصـالحهم. والملك يجيد ذلك، وله في هذا المجال مواقف كثيرة سـابقة، وأخرى لاحقة. والواقع أنه أراد أن يقول للإنجليز: "إن هناك مسـألة ما كان يجب أن أتخذ فيها ذلك الموقف الذي اتخذته، أو أن أحول بين مصـالح بلادي ـــ التي هي مصـالحي تمامًا ـــ وبين دولة كبرى عرضـت خدماتها الاقتصادية علينا، من أجل خدمات قدمناها لهم ولم يطلبها الإنجليز منا".

إذا كان الأسلوب السابق هو الأسلوب الذي فضله الملك عبد العزيز، وهو يعطي دون أن يُطلب منه، فإنه يتوقع من إنجلترا أن تعامله بنفس الطريقة، أو على الأقل أن تجيبه إلى ما يطلب، وأن تساعده على حل المشاكل التي تعترض طريقه.

لقد كان الملك عبد العزيز يضع في رأسه حين كتب إلى لورد لويد قضيتين أساسيتين:

القضية الأولى: تتعلق بالوجود الهاشمي المعادي له في كل من العراق متمثلاً في الملك فيصل بن الحسين، وشرق الأردن متمثلاً في الأمير عبد الله بن الحسين. وكان الملك ينظر إلى الأخوين الحاكمين في مناطق الانتداب البريطاني على أنهما خطر جاثم على أطراف بلاده، يهدد بإسقاطه في أي لحظة، واسترداد الحجاز منه.

والقضية الثانية: تتعلق بالنفوذ الإيطالي المتنامي في اليمن. وهي بلاد كان إمامها ينازع الملك عبد العزيز طموحاته في الجزيرة العربية. وأدى ذلك إلى توتر على جانبي الحدود، تعاظم في فترة تالية (١٩٣٤) إلى حد الحرب، فضلاً عن أن الحدود نفسها لم تكن قد استقرت بعد، وكانت لا تزال موضع مناقشة.

لقد كان عرض الملك عبد العزيز عرضًا غير مباشر، فبينما يركز على التهديدات الهاشمية في الشمال، والطموحات الإيطالية في الجنوب انطلاقًا من اليمن، نجد أنه كان يريد أن يلفت انتباه بريطانيا في القضية الأولى إلى أن مصالحها في شبه الجزيرة العربية، يمكن أن تتحقق من خلاله، وليس من خلال الهاشميين، وبالتالي فلا تجب مناصرتهم على حسابه. وفي القضية الثانية أراد أن يلفت انتباه بريطانيا إلى أن هناك قوة كبرى أخرى بدأت تدخل مجال المنافسة معها في جزيرة العرب، ولبريطانيا أن تتصدى من خلاله لهذه القوة إذا ساندته، كما تساند إيطاليا إمام اليمن على الأقل.

لقد أبدى الملك اســتعداده للتعاون مع بريطانيا، دون أن يكون بينه وبينها معاهدة تنظم إطار ذلك التعاون، وتمثل ذلك في مقاومة حكومته للطموحات الاقتصــادية للســوفيت في الحجاز. بينما نجد على الجانب الآخر أن إيطاليا قد عقدت فعلاً اتفاقية تجارية مع اليمن عام ١٩٢٦[١٤٧]. وبرؤية شاملة لمختلف جوانب هذا الموضــوع المعقد المتشــابك، يربط الملك عبد العزيز بين طموحاته هو وبين تطلعات السوفيت في الحجاز، ونجاح الإيطاليين في إيجاد ركيزة لنفوذهم في اليمن، والمصــالح البريطانية في الشــرق الأوســط. وفي ذكاء غير عادي يحول الملك موقف الضــعف إلى موقف قوة، فيطلب من الإنجليز عقد معاهدة تجارية معه، وإلا فإنه ســيقبل أول عرض يقدم له من أية دولة كبرى إذا رفضــت بريطانيا ذلك. كانت بريطانيا تعرف كل الحقائق حول إمكانيات الملك وحدود التدخل الســوفيتي أو الإيطالي في الحجاز، ولذا كانت ردود أفعالها سلبية.

[١٤٧] وقعت إيطاليا واليمن إتفاقية صداقة وتجارة بين البلدين في ٢ سبتمبر ١٩٢٦ تعطي لإيطاليا أفضلية على الساحل الشرقي للبحلر الأحمر، وقد سبب ذلك قلقا للملك عبد العزيز آل سعود

لقد كان الملك يشـــير إلى كل من الســـوفيت والإيطاليين، وفي ذهنه أهداف واضحة المعالم. فتعامله مع السـوفيت يمكن أن يكون ضـربة ذات آثار مدمرة على مستقبل بريطانيا في آسيا، والسوفيت كانوا على استعداد لتقديم كل التسهيلات في ســبيل تحقيق هذا الهدف. أما تعامله مع الإيطاليين فقد كان هدفه تحييد الدور الإيطالي في مناصرة إمام اليمن ضده.

يتفق التحليل السابق للموقف المعقد المحيط بالملك عبد العزيز، في جوانبه والسياسة الاقتصادية، مع ما أبداه الشيخ حافظ وهبة من ملاحظات إلى لورد لويد، حول الرسالة المذكورة، التي حملها إليه من الملك عبد العزيز. ذلك أنه بعد لقائه بوهبة، كتب لويد إلى تشمبرلين في لندن يقول: إن الشيخ حافظ وهبة ربط بوضوح بين طبيعة وحجم التعامل بين إيطاليا والإمام من ناحية التسليح والتجارة، وتشجيعها له على ضم عسير إلى اليمن. وفي ظل تزويد إيطاليا للإمام بالسلاح فإنه من المتوقع أن ينتصر الإمام على الملك عبد العزيز صديق بريطانيا، الذي تركته دون مساعدة حقيقية، وهذا بالطبع موقف مزعج للملك عبد العزيز، وخطر على مستقبل المصالح البريطانية.[١٤٨]

---

[١٤٨] Lloyd to Chamberlain, ١٤. Jan., ١٩٢٨, E٣٨٤/٨٠/٩١, Clayton Papers, Durham university, Box No. ٤٧٢/٢.

وفي الوقت نفسه وضح حافظ وهبة أن السوفيت يتسللون اقتصاديًا إلى الحجازواليمن في آن واحد، وأكد أن هذا التسلل الاقتصادي هو مقدمة لعمل سياسي موجه ضد بريطانيا بالدرجة الأولى، وفيما يتعلق بالحجازصرح وهبة أن الملك عبد العزيزوحكومة الحجازوقفوا موقفًا صارمًا تجاه السفينة السوفيتية "طومب"، وهذا الموقف دليل واضح على حسن نوايا الملك عبد العزيزتجاه بريطانيا، فضلاً عن عدم استعداده للتعامل مع السوفيت، وهو موقف يختلف عن موقف الإمام، الذي يعادي بريطانيا علنًا، ويتعامل مع إيطاليا، ومن غيرالمتوقع أن يرفض التعامل مع السوفيت، وهكذا يؤكد وهبة على وجهة النظر الأصلية للملك عبد العزيز، حين يضع نفسه موضع المقارنة مع إمام اليمن فيما يتعلق بعلاقاته بكل من السوفيت والإنجليز. وبينما يكون الإمام بهذا الشكل مستفيدًا من كل من السوفيت والإيطاليين، لا يستطيع الملك عبد العزيزالحصول على مجرد التأييد السياسي البريطاني له.

ويذهب وهبة مذهبًا آخر في إضافة مزيد من المخاوف على العقلية السياسية البريطانية حين يثير مسألة وجود عدد من المستشارين السوريين حول الملك عبد العزيز، والذين يهمهم طرد الفرنسيين من سوريا، أكثر مما تهمهم مصالح الحجاز. وبكلمات أخرى فإن هؤلاء المستشارين سيضعون كلا من الإنجليز والفرنسيين في الجانب المعادي لهم، وهذا يعني أنهم على استعداد لتلقي مساعدة السوفيت لتأييد مطالب السوريين القومية، ومن هذا المنطلق فإن زيارة الأمير شكيب أرسلان لموسكو، حول ذلك الوقت، تعتبر ذات مغزى. كما أن ضغوط هذا العدد من المستشارين السوريين على الملك عبد العزيز قد يسفر في النهاية عن ميل الملك نحو السوفيت.

وفي النهاية وضع حافظ وهبة النقاط على الحروف مبنا أنه لو تركت بريطانيا الملك عبد العزيز وشأنه في ظل الظروف المحيطة به من ضغوط دولية ممثلة في السوفيت والإيطاليين، وأخرى قومية ممثله في المستشارين السوريين، وثالثة إقليمية ممثلة في منافسة إمام اليمن وتهديدات الهاشميين، فإن الملك عبد العزيز قد لا يتردد في أن يقبل التعاون مع أي دولة كبرى أخرى تعينه على مواجهة هذه التحديات، وسيكون ذلك بالطبع على حساب المصالح البريطانية.

ويبدو أن لويد كان مقتنعًا بما طرحه حافظ وهبة من أفكار حول تقييم الموقف الذي يواجهه الملك عبد العزيز. فكتب إلى حكومته في لندن يستحثها على الاهتمام بالملك عبد العزيز الذي "إذا أقنعته بريطانيا بأنه يمكنه أن يعتمد عليها، فإنه سوف يظل وفيًا لنا في مقاومة الروس"[١٤٩].

[١٤٩] Ibid.

موقف بريطانيا:

لم يظهر اللورد لويد تعاطفه بشأن الرسالة التي حملها إليه الشيخ حافظ وهبة، وإن كان في داخله أكثر ميلاً من أي مسئول آخر في القاهرة أو في لندن نحو تبني موقف الملك عبد العزيز، لتمكينه من مواجهة السوفيت. كان لويد دبلوماسيا ماهرا، فقد وعد وهبة بتبليغ رسالته إلى حكومة لندن، وعبر عن ارتياحه الشخصي للملك عبد العزيز، الذي تمكن من إقامة علاقات ثابتة مع بريطانيا، بالرغم من أن كل شيء في بلاه في حالة تغير دائم. ولعل تصريح لويد هذا يبين أنه كان يمارس صلاحياته بلباقة وحرص على حماية مصالح بلاده، ولا يجب أن يفهم موقفه هذا بأنه كان تعاطفا مع الملك عبد العزيز.

وفي تقريره إلى لندن عن هذا الموضـــوع، أبدى لويد موقفًا قويًا في مواجهة النشـــاط الســـوفيتي في منطقة البحر الأحمر، وقال: "إننا لا نســتطيع أن نترك ابن ســعود بدون إرشــاد ومســاعدة في مســائل لها تلك الأهمية الخطيرة، مثل التســلل الروسـي إلى غربي الجزيرة العربية، ومثل الصـراع اليمني ـــ العسـيري (السـعودي) المعقد نتيجة لتأييد إيطاليا للإمام يحيى". وأضـــاف لويد "إنه لا يحتاج إلى التأكيد على الخطورة الواضـحة الواقعة علينا نتيجة لنجاح الدعاية الروســية في بلد كالحجاز، الذي هو الملتقى السنوي لكثير من رعايانا، أو رعايا بلاد مجاورة لنا".

ويواصـل لويد طرح وجهة نظره، فيضـع كلتا يديه على ما في رأس الملك عبد العزيز من خطط وأفكار، ويقول: إن الملك "يحاول بطريقة ســاذجة أن يجرنا إلى اليمن كثمن لوقوفه ضـد الروس". ثم يحذر لويد من التخاذل في التعاون مع الملك، لأن بريطانيا إذا لم تقدم له المساعدة المطلوبة "

فإنه قد يغير سياسته تجاهنا تحت تأثير العناصر السورية، وذلك سيتعارض ومصالحنا في مصر والسودان". وفي النهاية يضع لويد تصوره لاحتمالات المستقبل فيقول: "بقدر ما أستطيع أن أرى المستقبل، فإن جنوب غربي الجزيرة العربية سيكون المجال المناسب الذي يجب علينا أن نساعد ابن سعود فيه وأن نشجعه كي يظل في دائرتنا"[١٥٠].

لم يكن تشمبرلين مقتنعًا بالحجج التي ساقها الملك عبد العزيز في رسالته إلى لويد، فيما يتعلق بموقفه من السوفيت والأهداف التي يسعى لتحقيقها. فالملك عبد العزيز كان يحاول في نظر تشمبرلين "أن يبتز الحكومة البريطانية" بتبنيه لذلك الموقف من السوفيت. ويتفق الوكيل البريطاني بجدة (ستونهيور بيرد) مع تشمبرلين فيما ذهب إليه،

---

[١٥٠] Ibid.

حين قـال إنـه بـالرغم من أن الملـك عبـد العزيز لم يتخـذ مواقف تتعـارض والمصـالح البريطانية، إلا أنه تصـرف بهذا الشـكل عن رغبة خاصـة حماية لمصـالحه هو ولأسباب يعلمها هو[١٥١].

لم تأخذ الحكومة البريطانية مبادرة الملك عبد العزيز مآخذ الجد، وأكثر من ذلك أنها أساءت فهمها وتفسيرها، وأخذت تكيل له الاتهامات بأنه يسعى إلى تحقيق مصـالحه الخاصـة فقط مسـتخدمًا بريطانيا وسـيلة إلى تحقيق تلك المصـالح، ولم يتردد تشمبرلين في أن يصف هذا الأسلوب بأنه "ابتزاز" لحكومته. ربما كان تشمبرلين مخطئًا فيما ذهب إليه، ذلك أن مصـدرًا آخر انطلق بالتحذير من الخطر السـوفيتي نفسه على المصالح البريطانية في الشرق الأوسط،

---

[١٥١] Bird to Chamberlain, ٣٠. April, ١٩٢٨, E٢٢٦٣/٣٣٢/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٠٠٨; Documents on British Foreign Policy, Series. IA, Vol. VII, No. ٣٣٤, p ٦٠٤; Oliphant to C.O., ١٥. Feb., ١٩٢٨, E٦١٢/٣٣٢/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٠٠٨.

وجاء التحذير هذه المرة من قنصل مصر في جدة (أمين بك توفيق) الذي نُقل حديثًا إلى بيروت. فقد أفصح أمين بك إلى أحد موظفي المقيمية البريطانية بالقاهرة، عن بعض المعلومات حول النشاط السوفيتي، وأكدت هذه المعلومات على مخاوف لورد لويد التي سبق أن عرضها على تشمبرلين.

ولم يتردد لويد، الذي لم يكن قد عرف بعد حقيقة موقف حكومته، في أن يتبع رسالته الأولى بعد عشرة أيام برسالة ثانية إلى تشمبرلين في ٢٨ يناير ١٩٢٨، يقول فيها: إن أمين بك توفيق أخبره أن الشركة الروسية ــ التركية المالكة للسفينة "طومب"، التي أصيبت بخيبة أمل في أول محاولة لها في الحجاز في صيف عام ١٩٢٧، هذه الشركة لم تيأس من فشلها الأول، بل أعادت الكرة مع الملك عبد العزيز، وحصلت على تصريح منه بتأسيس وكالة لها في جدة، ووقع الاختيار بالفعل على مواطن تركي من أصل بخاري، يدعى أحرار خوجة الذي كان مقيمًا في مكة. وكذلك وقع الاختيار على عدد من السياسيين السابقين

، فلحقوا به كمساعدين لإقامة صرح ذلك النشاط السوفيتي المتخفي وراء النشاط الاقتصادي الظاهري. وأضاف أمين بك توفيق: "من المتوقع أن يقوم عدد من السفن التابعة لتلك الشركة بزيارة جدة، في أقرب فرصة، وهي محملة بالسكر والدقيق؛ بهدف التضييق على النشاط التجاري البريطاني وطرده من الحجاز في النهاية"[152].

ويرى أمين بك توفيق أن الوكيل التركي قد ساند زميله السوفيتي في كل خططه المتعلقة بالوكالة التركية ــ الروسية في الحجاز، وفي العمل على كسب تأييد الملك عبد العزيز لخطاهما. ويؤكد أمين بك توفيق على أن الوجود السوفيتي في الحجاز يشكل خطرًا حقيقيًا على تلك الدول

[152] Lloyd to Chamberlain, ٢٨. January., ١٩٢٨, E٦١٢/٣٣٢/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠٠٨.

، التي يذهب حجاجها كل عام إلى مكة، كما يؤكد على ذلك الاتجاه الأساسي، الذي يرى أن مكة تعتبر أنسب مكان يُمكّن الروس من تحقيق نجاح مؤكد في حملتهم ضد بريطانيا وسياستها الشرقية. كما يشارك أمين بك توفيق الشيخ حافظ وهبة في مخاوفه من العناصر السورية المحيطة بالملك عبد العزيز، لأن الروس يستطيعون استخدام هذه العناصر بنجاح لتحقيق أهدافهم.

وفي ضوء المخاوف التي عرضها أمين بك توفيق، يسعى لورد لويد إلى حكومته من جديد، ويردد التحذيرات السابقة، ويبين ما فيها من مخاوف ومحاذير، ويطلب إلى حكومته أن تسارع بتحديد موقف حاسم لمساعدة الملك عبد العزيز ومساندته، وتأسيس علاقات قوية معه، لا تستطيع دول أخرى أن تنفذ من خلالها إلى جزيرة العرب. كذلك ركز لورد لويد على خطورة وقوع بعض العناصر الإسلامية البريطانية فريسة للدعاية السوفيتية، التي تسعى لمحاصرة بريطانيا في الشرق، وأشار لويد إلى العناصر المصرية والسودانية، وهي العناصر التي يعني بها لويد بالدرجة الأولى، لأنها تقع في دائرة مسئولياته السياسية.

وحذر من الاستخفاف باقتراحاته، أو بالنشاط السوفيتي، فمن المؤكد أنه ليس من مصلحة عبد العزيز أن يجد السوفيت ثغرة للدخول إلى بلاده، وبنفس القدر ليس من مصلحة بريطانيا أن ينجح السوفيت في خلق تلك الثغرة، التي سيعملون من خلالها ضد المصالح البريطانية في الحجاز، وفي الشرق بصفة عامة. ونبه لورد لويد إلى أن عزوف بريطانيا عن التعاون معه، وتحمل مسئولياتها في مواجهة الخطر الشيوعي، سوف يدفعه بالضرورة إلى أن يخطوا خطى سريعة في سبيل تدعيم علاقاته بدول كبرى أخرى[١٥٣].

[١٥٣] Ibid.

الواقع أن الملك عبد العزيز لم يكن يفضل ذلك الخيار الأخير، الذي يلجأ فيه إلى الاتحاد السوفيتي بدلاً من بريطانيا، لأن ذلك يتعارض أصلاً مع ميوله واتجاهاته، ومن جهة أخرى، فإنه لو فعل ذلك فسوف يفقد الكثير، لأن بلاده ستكون منبرًا للدعاية الشيوعية بين الحجاج المسلمين، وسوف تسعى بريطانيا في مثل هذه الحالة إلى الحد من حركة الحجاج إلى الأراضي المقدسة، وسيكون لذلك آثار سلبية خطيرة على الاقتصاد السعودي، وفي مجال السياسة سوف تضع بريطانيا الملك عبد العزيز في صف القوى المعادية لها، وإن شاءت فإنها يمكنها أن تلحق به ضررًا كثيرًا، انطلاقًا من مناطق الانتداب، أو من مصر والسودان، أو من إمارات الخليج العربي، وكان الملك عبد العزيز يقدر ذلك، ويعرف أن الخيار البريطاني هو خياره الوحيد.

ويميـل لورد لويـد إلى الاعتقـاد في أن الملـك عبـد العزيز وحكومتـه على استعداد للتعاون مع بريطانيا في الحد من النشـاط السـوفيتي، ولكنه في مثل هذه الحالة لن يقوم بطرد السـوفيت مرة واحدة، لأن لذلك آثارًا جانبية سـوف تنعكس على أوضاع الملك الداخلية، وتتعلق بالاقتصاد والسياسة معًا. ولذلك حرص لورد لويد على تذكير حكومته بأنها في مثل هذه الحالة، سـوف تجني بريطانيا ثمارًا طيبة في منطقة جنوب شـرقي آسـيا، بنفس القدر الذي تجني فيه ثمارًا طيبة في جنوب غربي آسيا، إذا حالت بين الروس وبين الحجاز[١٥٤].

[١٥٤] Ibid.

لم تلق التحذيرات السـابقة آذانًا صـماء هذه المرة في لندن، فقد وجد تشمبرلين نفسه ـــ مع كثرة التحذيرات ورغم قناعته بالخطر السوفيتي المزعوم. يكتب إلى وزارة المستعمرات ووزارة الهند في ١٥ فبراير١٩٢٨، طالبًا الرأي فيما ينسب إلى الروس من نشاط في الحجازيمكن أن يلحق الضرر بالمصالح البريطانية، ومؤكدًا على أن المستفيد الأول من أي تحرك بريطاني في هذا الشأن هو الملك عبد العزيز نفسه، ومشيرًا إلى أن الملك لو كان قد وجد شيئًا من الفائدة في التعامل مع السوفيت لما لجأ إلى بريطانيا، ولما تردد لحظة في السماح للسوفيت بالنزول إلى بلاده، وممارسة نشاطاتهم الاقتصادية فيها[١٥٥].

[١٥٥] Oliphant (F. O.) to C.O., ١٥. Feb., ١٩٢٨, Oliphant to I.O., ١٥. Feb., ١٩٢٨, E٦١٢/٣٣٢/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٠٠٨.

لا يختلف رأي بيرد[١٥٦]، الوكيل البريطاني بجدة، عن رأي تشـمبرلين، ويحاول بيرد أن يبرر موقف وزير خارجيته تجاه النشـــاط الســـوفيتي، ويؤكد على أن الملك عبد العزيز هو صاحب المصلحة العليا في إثارة قضية السوفيت في الحجاز. وبيرد لا يكتب رأيه من تقارير رســـمية، وإنما هو يســجل ملاحظاته من الموقع، وبالتالي فقد يكون لرأيه شيء من الأهمية الخاصة.

يوضـح بيرد في المقام الأول أن التجارة بين الحجاز والهند تجارة قديمة، ولها قواعد وأصـول ثابتة، وليس من اليسـير تحويلها إلى مجال آخر. كما أن تجار الحجاز ليس لهم بيوت تجارية في بومباي، وأن أي تحويل لمصــادر هذه التجارة ســوف يضــر التجار الحجازيين بصورة مباشرة.

---

[١٥٦] Bird to Chamberlain, ٩. April, ١٩٢٨, E٢٢٦٣/٣٣٢/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٠٠٨.

ومن بينهم حاكم جدة (الحاج عبد الله) وهؤلاء التجار هم سند الملك عبد العزيز المالي في أوقات الأزمات، وهذا صحيح إلى حد كبير، ومن هنا تكون مصلحته في مساندة موقفهم في معارضته للتجارة السوفيتية. وهكذا صارت مقاومة السوفيت، من هذه الناحية، مسئولية الملك عبد العزيز، وليست مسئولية بريطانيا.

أما فيما يتعلق بالدعاية السوفيتية ومخاطرها، فإن بيرد يعترف بأن مصالح بريطانيا سوف تضار منها، لا في الحجاز وحده، ولكن في الشرق بصفة عامة، بما في ذلك مصر، ويقترح للحد من تأثير هذه الدعاية: أن تتحكم بريطانيا وهولندا في أعداد الحجاج الوافدين إلى الأماكن المقدسة في البلاد التي تخضع لهما. وبوسع هاتين الدولتين أن تفعلا ذلك، إذا رأت فيه مصلحتهما،

لأن الآثار السلبية الناجمة عن هذا الأسلوب سوف تنعكس بكاملها على اقتصاديات الملك عبد العزيز وحكومته، وليس هناك مبالغة في الأمر، إذا قلنا أن تطبيق أفكار كهذه سوف تدمر اقتصاد الحجاز بشكل واضح[157]. فالحجاز هو السوق السنوي الذي يفد إليه حجاج جنوبي وجنوب شرقي آسيا، وأن أي محاولة لتقليص دور حجاج هذه المناطق، سوف يفقد الحجاز كثيرًا من عناصر اقتصاده الأساسية.

ومن جهة أخرى، فإن بريطانيا تستطيع ــ لو أرادت ــ أن تفصل الحجاج القادمين من أراضيها عن باقي الحجاج،

---

[157] Ibid.;

وانظر: جمال محمود حجر: السعوديون والأزمة المالية ١٩٢٩ – ١٩٣٣ (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣).

وأن تضــع الصــعـاب أمام أي محاولة للتأثير عليهم، وذلك بوضـــعهم فور وصـولهم إلى الحجاز، تحت إشـراف مطوفين من العناصـر الموالية لبريطانيا، فدور المطوف نحو الحـاج أكبر من دور الـداعيـة، وإذا أقـام المطوف نظـامًـا لمجموعـات الحجاج المســئولين منه، فإنه يســتطيع أن يفصــل بين حجاجه وباقي الحجاج دون مصاعب. ولذا اقترح بيرد على المطوفين أن يعزلوا أي شخص غير مسئول يحاول أن يندس بين الحجاج التابعين لبريطانيا[١٥٨].

[١٥٨] Bird to Chamberlain, ٣٠. April, ١٩٢٨, Loc. Cit.

حول المواقف السعودية والبريطانية من السوفيت:

في الوقت الذي كانت فيه الحكومة البريطانية مشغولة بصناعة القرار بشأن النشاط السوفيتي في الحجاز، كان السوفيت أنفسهم قد صنعوا قرارهم تجاه الموقف الجديد، الذي يجب عليهم أن يتبنوه في المرحلة التالية. لدفع السلبيات التي نجمت عن حادث السفينة "طومب". وتقرر أن يقطع حكيموف إجازته المرضية في أوروبا، وأن يعود فورًا إلى جدة، ليعيد تنظيم نشاط الوكالة السوفيتية في الأمور التي فشل نائبه تومتوف Tumetoff في معالجتها[١٥٩].

ووصل حكيموف إلى جدة في ٢١ يناير١٩٢٨، ولم يكن قد غاب عنها أكثر من ثلاثة شهور، منذ غادرها إلى أوروبا للعلاج في سبتمبر١٩٢٧. وليس هناك شك في أن الآثار السلبية التي نجمت عن حادث السفينة "طومب" كانت السبب الرئيسي لاستدعائه إلى جدة.

---

[١٥٩] Jeddah Report, January, ١٩٢٨; Jeddah Report, March, ١٩٢٨, E١٩٩٩/٤٨٦/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.

وقد كان تومتوف حريصًا على أن يقنع المسئولين في الحجاز باستقبال حكيموف لدى وصوله استقبالاً رسميًا، ولكن الدكتور عبد الله الدملوجي رفض ذلك لتعارضه مع التقاليد الدبلوماسية المعروفة، حيث يجرى استقبال رسمي فقط عند وصول المبعوث لأول مرة[١٦٠]. ويفهم من اقتراح تومتوف مدى حرصه على إظهار رئيسه بمظهر الهيبة والاحترام في الوسط الدبلوماسي بجدة. كما يفهم منه ضمنًا أن حكيموف ربما كان قد أنهى خدمته في جدة قبل ثلاثة شهور من عودته هذه المرة، وأنه يستحق استقبالاً رسميًا؛ نظرًا لإعادة تعيينه في ذات المنصب الذي تركه. على كل حال، كانت الصفة الرسمية لحكيموف في هذه المرحلة غامضة. ولكن المواقف المعقدة التي نتجت عن غيابه كشفت عن الدور الإيجابي الذي كان يلعبه لصالح بلاده، وهو دور سبق أن ثارت حوله التساؤلات من جانب الإنجليز.

---

١٦٠ Ibid.

لم يكن حكيموف سـعيدًا بعودته إلى جدة، فقد جاء الأمر بالنسبة له مفاجأة لم يكن قد أعد نفسه لها. وهو يعتقد في أن الأمل ضعيف في استعادة ما فقدته بلاده بعد حادثة "طومب". فالحادثة قد أثرت على أعداد الحجاج بشكل واضح، خاصة من يأتي منهم في موسم عام ١٩٢٨. وبالتالي فإن استمرار وجود المفوضية السوفيتية صار بغير ذي معنى، وأن العلاقات السوفيتية ــ السعودية صارت عبئًا ماليًا بغير عائد سياسي، والوكالة السوفيتية بها ١٥ عضوًا، منهم ٦ مسئولين، و٩ خدم، ولا يقدمون لحكومتهم خدمة تساوي أجورهم. ويبدو أن حكيموف فتح قلبه لزميله الإيطالي، فكشف عن كثير من المرارة التي يكنها نحو البريطانيين بسبب حملتهم المضادة على النشاط السوفيتي، "ولنشرهم وثائق مزيفة" حول هذا الموضوع[١٦١].

[١٦١] Jeddah Report, March, ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.

على كل حال كان موسم الحج يقترب، والسوفيت يستعدون لمواجهة جديدة. وفي برقية سرية عاجلة في ٢١ فبراير١٩٢٨، كتب أوليفانت من الخارجية البريطانية إلى بيرد في جدة يقول: "إن السوفيت يعدون العدة لإرسال إمدادات الطعام وغيره إلى جدة، لتوزيعه في صورة هدايا على الحجاج، وأن بعثة من الدعاة سوف ترافق هذه الإمدادات لتنشط بين الحجاج"[١٦٢]. كانت هذه بالطبع دعوة من وزارة الخارجية البريطانية إلى الوكيل البريطاني، لينتبه إلى خطورة موسم الحج الجديد. وإذا صدق ما ذكره أوليفانت، فإنه إنما يعني أن السوفيت أقدموا على استعمال أسلوب آخر جديد، لم يسبق لهم استخدامه في نشر دعايتهم بين الحجاج.

---

[١٦٢] Oliphant to Bird, ٢١. Feb., ١٩٢٨, E٨٥٢/٣٣٢/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠٠٨.

من اللافت للنظر أن موسم الحج لعام ١٩٢٨، كان موسمًا فاترًا. ولا نعتقد في أن للسوفيت دخل في ذلك، ومن المشكوك فيه أن يكون للإنجليز دخل أيضًا. وربما يعود ذلك إلى الاضطراب المالي والاقتصادي الذي بدأ يظهر حول ذلك الوقت كمقدمات للأزمة المالية الكبرى، أو ما يعرف باسم "الكساد العظيم" (١٩٢٩-١٩٣٣)[١٦٣]. ومع ذلك فلم يغب السوفيت عن ساحة الحجاز. فقد آثار تاجر سوفيتي يدعى Leon Elkon ليون الكونين شكوك بريطانيا حوله، وتبودلت البرقيات بين جدة والقاهرة ولندن حول طبيعة نشاط هذا التاجر الذي لم ترض بريطانيا عن وجوده بالحجاز.

[١٦٣] انظر: جمال حجر، السعوديون والأزمة المالية في الحجاز ١٩٢٩-١٩٣٣ (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣)؛ وانظر أيضا: الريال العربي السعودي في الأزمة المالية العالمية ١٩٢٩-١٩٣٢، مجلة **رواق التاريخ والتراث**، العدد صفر (يونية ٢٠١٥)

وبينما كانت مسألة الكونين ساخنة، وصلت في ١٩ يونيه معلومات عن قرب وصول سفينتين سوفيتيتين إلى جدة. ورأي بيرد أن هذه فرصة مناسبة كي يبعث بمذكرة إلى الدكتور عبد الله الدملوجي، يذكره فيها بما داربينهما سلفًا بشأن مقاومة النشاط السوفيتي. وفي ٢١ يونيه التقى الدملوجي ببيرد في جدة، وأخبره أن مجلس الشورى ناقش مسألة النشاط السوفيتي في حضور الملك عبد العزيز، وأن المجلس رفض النغمة البريطانية في إملاء الأسلوب الذي يجب أن تتبعه حكومة الحجازفي مقاومة النشاط السوفيتي، أوحتى في التعامل معهم، وقد عبرالمجلس بقوة عن امتعاضه من أسلوب المراوغة البريطاني، ولا شك أن موقف المجلس كان مساندًا لموقف الملك عبد العزيزفي مواجهة بريطانيا.

اندهش بيرد لهذه التطورات السلبية، ولكن الدملوجي كان جاهزًا بالرد، فأكد له أن الصيغة التي تلقاها بشأن تحجيم نشاك الكونين، يمكن قراءتها على أنها تعليمات إلى حكومة الحجاز. وهكذا جاء هذا الموقف من الملك عبد العزيزومن مجلس الشورى صفعة لبريطانيا التي اعتادت أن تكيل الاتهامات للملك.عندئذ أطلع الدملوجي بيرد على صيغة مسودة الرد المقترح من حكومة الحجازعلى الحكومة البريطانية بشأن الكونين. وفي هذه المسودة أكدت حكومة الحجازعلى أن من حقها أن تسمح لالكونين بالدخول إلى الحجاز، إذا رأت أن ذلك لا يضر بمصالحها، وأنها هي التي تقرر منعه من دخول الحجاز، إذا رأت أن ذلك يناسبها[١٦٤].

[١٦٤] Bird to Chamberlain, ٢. June, ١٩٢٨, E٣٢٤٧/٣٣٢/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٠١٢.

رأى بيرد أن عليه أن يخفف من حدة نغمته، فحاول تبرير موقفه في مسـألة الكونين بقوله: إن الحكومة البريطانية حكومة صديقة لحكومة الحجاز، ومن هذا المنطلق فإنها استشعرت أن من واجبها أن تقدم النصح والتوجيه المناسب في مسألة تهم الحكومتين معًا، وأن تحذر حكومة الحجاز من الأخطار المحتملة لوجود مثل هذا الشخص وغيره من السوفيت بالحجاز. وأضاف بيرد أن ما رأته حكومة الحجاز على أنه أوامر ليس إلا صيغة متعارف عليها، وأنها يمكن أن توجه من حكومة كبرى إلى حكومة دولة أخرى دون حساسية. ولكن الدملوجي فوّت الفرصة على بيرد حين ذكّره بأن الحجاز ليس دولة كبرى، ولكنه أمة شابة "لا تزال قدرتها على الهضم ضعيفة"[165]. وأشار إلى أنه بينما يمكن أن تقبل الحكومة الفرنسية أو الحكومة الإيطالية من حكومة بريطانيا مثل هذا الموقف، تبقى للأمم الشرقية حساسيتها تجاه كل ما تقوله الدول الغربية، وتزداد هذه الحساسية إذ كان الأمر يتعلق بالحجاز تحديدا.

---

[165] Ibid.

كان بيرد يعلم أن الملك عبد العزيز حوله عناصر حريصة على تأكيد سلامة الحجاز، واستقلال قراره السياسي، وحريته في تبني المواقف التي يراها مناسبة. وحسمًا لهذه المشكلة أظهر الدملوجي قناعته بوجهة النظر التي عرضها بيرد، ووعده بإعادة النظر في قرار حكومة الحجاز في شأن الكونين. فقد تبين أن الكونين لم يكن من بين ركاب إحدى السفينتين السابقتي الذكر. ولكن هذا الموقف، على كل حال، جعل بيرد يفهم أن الدملوجي أصبح مسلوب الإرادة ومحدد النفوذ، وأن نفوذ الشيخ يوسف ياسين أصبح متفوقًا على غيره، وأن الدملوجي نفسه بدأ يفكر وقتئذ في مغادرة الحجاز إلى العراق، بحثًا عن وظيفة مناسبة[١٦٦].

[١٦٦] Ibid.

وفي سبتمبر ١٩٢٨، استقال الدملوجي من منصب "مدير الشئون الخارجية"، وخلفه فيه الشيخ يوسف ياسين. وقد انزعج الإنجليز كثيرًا لذهاب الدملوجي، رغم اتهامهم له بضعف الشخصية، ذلك أنه كان في نظرهم أفضل كثيرًا من يوسف ياسين، أو حتى فؤاد حمزة، وكلاهما كان من بين مساعديه الذين يناوؤن النفوذ البريطاني. وساعد موقف الشيخ حافظ وهبة على تعقيد الأمر أمام الحكومة البريطانية، حين أفصح للوكيل البريطاني في جدة عن خشيته من أن يضغط يوسف ياسين، بكل ما وراءه من ثقل ونفوذ سوري في الحجاز، على الملك عبد العزيز كي يعقد معاهدة مع السوفيت وأخرى مع الأتراك، وهو ما سينعكس سلبًا على مركز بريطانيا هناك[١٦٧].

[١٦٧] Jeddah Report, Sep., ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.

كان حافظ وهبة مناوئًا للنفوذ السوري المحيط بالملك عبد العزيز، وكان يرى أن الملك عبد العزيز لو تُرك للسوريين وحدهم فإنه سيعقد معاهدة مع السوفيت، وهي معاهدة لو عقدت فإنها ستكون بغير ذات نفع للحجاز، وأن الهدف منها هو "إرباك الحكومة البريطانية"[١٦٨]، وهذا يعني أن حافظ وهبة كان جادًا في مقاومته النفوذ السوفيتي كما أراد الملك عبد العزيز. على كل حال، فلا يمكم إنكار التأثيرات السورية على قرار الملك عبد العزيز خلال هذه الفترة وما تلاها حتى الثلاثينيات.

[١٦٨] Ibid.

أما السـفينتان السـوفيتيتان اللتان أثارتا تلك الزوبعة لدى وصـولهما إلى جدة، فقد وصـل على ظهر إحداهما مسـئول روسـي يدعى حسـينوف، ليتولى مسئولية إدارة شئون الشركة الروسية ــ التركية. ومع أن السفينتين تُركتا لتفريغ حمولتهما من الدقيق والسكر، إلا أن حكومة الحجاز لم تسمح لحسينوف بالبقاء في الحجاز لفترة أطول من ثلاثة أسابيع[١٦٩].

وفي يونيه غادرت السـفينتان الحجاز، وعلى ظهر إحداهما الحجاج الروس العائدون إلى بلادهم، أما الأخرى فقد توجهت إلى الحديدة في اليمن، في طريقها إلى عدن والخليج العربي، في مهام تجارية. أما حكيموف فكان يسـتعد وقتئذ لمغادرة الحجاز نهائيا، ليحل محله ناصر توركولوف[١٧٠] Nasir Turaculoff وهو تركستاني الأصل، جاء ليشغل منصب أول وزير مفوض سوفيتي في الحجاز،

---

[١٦٩] Jeddah Report, May, ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.

[١٧٠] Jeddah Report, June, ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.

بعد أن رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي السوفيتي من مستوى "الوكالة" إلى مستوى "المفوضية". ولا شك في أن العلاقات السعودية ــ السوفيتية قد نمت نسبيًا في ظل هذا التطور الدبلوماسي الجديد.

ولدى مغادرة حكيموف جدة في ١٣ أكتوبر كان جاكينز، القنصل البريطاني، في وداعه، وفي هذه المناسبة أهداه حكيموف زجاجة خمر، وأثناء تبادلهما أطرف الحديث، صب حكيموف جام غضبه على "الوهابيين" حين قال لزميله البريطاني: "إن الحنابلة بمن فيهم الوهابيين سيكونون آخر من يدخل الجنة". وكما هي عادته في إحاطة نفسه بهالة من الغموض، أعلن حكيموف أنه سيعود إلى جدة بعد مرور عام واحد[١٧١].

---

[١٧١] Jeddah Report, Oct., ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.

ومهما يكن من أمر، فإن سياسة السوفيت المناهضة للغرب في الشرق نجحت في تهيئة أذهان بعض الحكومات وبعض الزعامات الشعبية في الشرق، خاصة في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى، حين تكشفت هذه وتلك خداع الغرب لشعوب منطقة الشرق الأوسط. وقد أبرزت صحيفة برافدا السوفيتية الصادرة في ١١ أغسطس هذا المعنى، وأشارت إشارة مباشرة إلى فلسطين، ذلك البلد الذي صار "معسكرًا للاستعمار البريطاني"، ووجه الأمير (علي) حيدر الدعوة إلى الحزب الشيوعي السوفيتي ليتحرك بسرعة، لمواجهة التفوق الاستعماري البريطاني، الذي أفرزته الحرب العالمية الأولى في فلسطين وشبه الجزيرة العربية، وأكد حيدر على أن المنطقة صارت العدو الأول للاستعمار البريطاني، وأنها مستعدة لاستقبال السوفيت "الذين يعيشون في قلوب الناس كرمز لتحرر الشعوب"[١٧٢].

---

[١٧٢] Moscow Pravda, No. ١٨٥, ١١. Aug., ١٩٢٨, Copied in: Ibrahim Al – Rashid: Documents of The History OF Saudi Arabia, Vol. ٣, P. ٢١٩, (Salisbury: ١٩٧٦).

وهكذا مع نهاية عام ١٩٢٨، كان السـوفيت قد وجدوا لأنفسـهم أرضـية شـعبية في سـوريا وفلسـطين، ونجحوا في توقيع معاهدة مع إمام اليمن، ولكن السكون خيم على نشاطهم في الحجاز[١٧٣].

---

[١٧٣] Jeddah Report, Dec., ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨;

See The Soviet – Yemeni Treaty of Friendship and Commerce, Signed at Sanaa on ١. Nov., ١٩٢٨, in: British and Foreign State Papers, Vol. ١٢٩, p ٩٤٩ – ٩٥١.

الفصل الرابع

السعوديون والبريطانيون والدعاية السوفيتية

مرحلة الحوار ١٩٢٩-١٩٣١

يتناول هذا الفصل دراسة للحوار الذي دار بين المسئولين السعوديين والمسئولين البريطانيين حول النشاط السوفيتي. وقد أخذ السعوديون المبادرة في إثارته، ليكون وسيلة إلى غاية. وفي الوقت نفسه، وجد البريطانيون أنفسهم وقد فتحوا أبواب الحوار الداخلي فيما بينهم، في محاولة لتجنب تصديق "الادعاءات" السعودية بخطورة النشاط السوفيتي. وكان هذا هو الاتجاه الغالب بينهم منذ البداية، ولكنه تطور إلى دعوة لمساندة الملك عبد العزيز في مواجهة هذا الخطر، الذي بات يهدد، ويهدد الحضور البريطاني في شبه الجزيرة العربية وفي كل من فلسطين ومصر.

لقد أنفق البريطانيون كثيرًا من الوقت والجهد والمال في محاولة للوصـــول إلى الحقيقة القائمة بينهم، والتي لا يرغبون في تصديقها، اعتقادًا منهم أن المستفيد الأول من الترويج لها هو الملك عبد العزيز نفســـه. ومن الطريف أنه بينما كان البريطانيون على هذا الحال، كان الســـوفيت قد حزموا أمرهم، وحســـموا قرارهم بشـــأن ما يجب عليهم عمله في الحجاز، وبدأوا في الانحســـار، فقد تغيرت طبيعة العلاقات الدولية في الثلاثينيات، وأخذت القوى الكبرى تعيد ترتيب توازناتها من جديد.

صدى نجاح السوفيت في اليمن:

لم يكن الملك عبد العزيز آل سعود في أي وقت من أنصار السوفيت. وأن ما ورد من علامات تدل على استعداده للتعاون معهم إنما كانت محاولات سياسية من جانبه للضغط على بريطانيا في عدة مجالات بعضها سياسي وبعضها اقتصادي؛ بهدف تحقيق منافع له ولبلاده. وهو ما سبق أن أشرنا إليه باسم "ورقة السوفيت"، ومع أن ردود بريطانيا على الملك عبد العزيز في مسألة النشاط السوفيتي كانت إما غائبة أو سلبية طوال المرحلة السابقة، إلا أنه لم ييأس أو يمل من إثارة المسألة بين الحين والآخر. ذلك أنه كتب في مطلع عام ١٩٢٩ رسالة إلى لورد لويد بالقاهرة حملها إليه حافظ. وفيها وضح موقفه من السوفيت، وأكد على صداقته مع بريطانيا حين كتب يقول:

"... بقدر علمنا، فإنكم تسعون إلى توثيق العلاقات بين بلادنا والحكومة البريطانية، وقد شجعنا ذلك على أن نضع أمامكم تلك المسائل ذات الاهتمام المشترك، على أمل أن تكونوا خير وسيط يضع الصورة كاملة أمام الحكومة البريطانية، كي تتمكن من الوصول إلى حل للصعوبات التي توجهنا معًا ..."[١٧٤].

في الجزء الأخير من الرسالة السابقة حاول الملك عبد العزيز أن يكسب إلى جانبه لورد لويد، وأن ينسب إليه مهمة القيام بتوثيق العلاقات البريطانية . السعودية، ثم يبين له حرصه على أن يكون وسيطًا بين حكومة الحجاز والحكومة البريطانية، لحل كثير من المشاكل المتعلقة بينهما، وأهمها علاقاته بالأشراف في كل من العراق وشرق الأردن، ثم علاقاته بإمام اليمن. ومع أن الملك عبد العزيز يشير إلى ذلك بصورة سريعة، إلا أنه يركز في رسالته على موضوع السوفيت، ويعتبره الموضوع الرئيس المشترك الذي يشغله، أو يجب أن يشغل الحكومة البريطانية، بنفس القدر الذي يشغله هو شخصيًا، فيقول :

---

[١٧٤] Ibn Saud to Lord Lloyd, ٢٦. Gamad Thani ١٣٤٧ (January ١٩٢٩) E٨٨٦/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.

"إننا نواجه اليوم مســألة مهمة للغاية، ســبق أن حدثناكم فيها من قبل، ولكن إلى الآن لم تبد الحكومة البريطانية أي اهتمام بها، وإننا نود منك أن تلفت نظرها إلى تلك المســألة، ولعلنا نتلقى وجهة نظرها. ذلك أن كثيرًا من الدول الأجنبية تنشــط حاليًا للعمل على طرد التجارة البريطانية من الحجازواحتكارالأســواق هناك، وأن أكثرهذه العناصــرنشــاطًا هم الروس، وكما أبلغناكم من قبل فإننا نعمل على إجهاض نشــاطاتهم، ومنعهم من الوصــول إلى غاياتهم، آملين أن تعقد الحكومة البريطانية معنا معاهدة تجارية، يكون بمقتضــاها لحكومتنا وشــعبنا بعض الفوائد، مقابل مقاومتنا للنشــاط الروســي. ولكن الحكومة البريطانية لم تخط خطوة واحدة في هذا الاتجاه ...

وفي هذا العام عاود السوفيت نشاطهم، وكان وهدفهم ببساطة هو طرد البضائع البريطانية من الحجاز، ومن اليمن وربما من مناطق أخرى ... إننا نود أن نعرف بصراحة ووضوح ما إذا كانت الحكومة البريطانية مستعدة للموافقة على أن نحمي لها تجارتها في بلادنا، وأن نعوّق تجارة الآخرين ... فإذا كانت الحكومة البريطانية مهتمة بهذه القضية، فعليها أن تبدأ معنا مفاوضات من خلال مسئوليهم في الحجاز. أما إذا كانت المسألة لا تهمهم كثيرًا، فإننا لسنا مستعدين لإزعاجهم حول أي شيء ..."[١٧٥].

[١٧٥] Ibid.

تبين الرسالة السابقة أحد أنماط دبلوماسية الملك عبد العزيز. فهو يخفي هدفه الحقيقي وراء أهداف ومطالب أخرى، وهو يتظاهر بالسعي نحو الحصول على مطالب تجارية، ولكنه في الواقع يسعى لتحقيق منافع سياسية وتجارية معًا. وفي تقديرنا أن الدافع الحقيقي وراء إثارة مسألة السوفيت هذه المرة، هو نجاح هؤلاء في عقد معاهدة صداقة وتجارة مع إمام اليمن، في ١ نوفمبر١٩٢٨[١٧٦].

علمت لندن بالمعاهدة السوفيتية ـ اليمنية، ونشرتها صحيفة "التايمز" في عددها الصادر في ٢٥ يناير ١٩٢٩. وقللت الجريدة من الأهمية الاقتصادية للمعاهدة، ولكنها أشارت إلى أنها تنظم العلاقات التجارية بين البلدين. ولم تستطع الجريدة إخفاء أهمية تلك الخطوة "لعملاء الشيوعية الدولية الذين قد يسعون إلى استخدام اليمن قاعدة للعمل الدعائي السوفيتي في الهند". ونسبت الصحيفة إلى مثل هؤلاء العملاء عملية إفساد العلاقات في مرحلة سابقة بين اليمن ومحمية عدن[١٧٧].

[١٧٦] British and Foreign State Papers, vol. ١٩٢, pp ٤٤٩-٥١.

[١٧٧] The Times, ٢٥. January ١٩٢٩.

استشعر الملك عبد العزيز أن المعاهدة السوفيتية – اليمنية أساءت إليه، وأن صداقته لبريطانيا هي صداقة بغير ثمرات، بينما نجح الإمام في كسب السوفيت إلى جانبه بسرعة، وأدى ذلك إلى تغير توازن القوى في شبه الجزيرة العربية لغير صالحه، فبريطانيا التي كانت تتفرد بالنفوذ هناك، لم تعد كذلك، بعد أن نجح السوفيت في إيجاد موطئ قدم لهم في اليمن. وأن الملك عبد العزيز صار يرى منافسة إمام اليمن، مدعومًا بقوة دولة كبرى في المجالين الاقتصادي والسياسي. ونظرًا لأنه لم يكن قد عقد معاهدة تجارية من قبل مع بريطانيا، فقد أراد هذه المرة ألا تفوته فرصة إثارة المسألة مع البريطانيين، في محاولة من جانبه لإعادة التوازن لصالحه، في مواجهة منافسة إمام اليمن، وفي الوقت نفسه، بدا الملك وكأنه يدعو بريطانيا إلى أن تبقى على تفوقها المطلق في شبه الجزيرة العربية، في مواجهة أي قوة أجنبية أخرى.

وزيادة في إضــفاء الغموض على موقفه، قدم الملك عبد العزيز المصــالح البريطانية على مصــالحه حين عرض الأمر على لورد لويد. ولعله أراد هذه المرة خلق حالة من الصــدام الســياســي بين القوتين المتصــادمتين أيديولوجيًا في الأصــل (الاتحاد السوفيتي وبريطانيا)، والمصطدمتين سياسيًا في مناطق أخرى من آسيا.

ومن وجهة النظر الاقتصــادية، فقد كان الملك حريصًــا على حماية مصــالح مواطنيه التجارية، وهي مصــالح بنيت وتطورت على أســاس الارتباط بالتجارة مع الهند البريطانية، وأن أي نشــاط تجاري خارج إطار هذه الدائرة، كتوجيه التجارة نحو الاتحاد الســوفيتي، ســوف يلحق ضــررًا بالغًا بالتجار الحجازيين، كما رأينا في مناســبة ســابقة، حين عرضــنا لموقف الحاج عبد الله، قائمقام جدة وكبير التجار فيها[١٧٨]. ولكن هذا التوجه الاقتصادي الذي فرضه تجار جدة لم يهيئ فرصة للملك كي يستفيد من التنافس الدولي حول بلاده.

---

[١٧٨] Jeddah Report, Feb., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.

فمع أنه كان يميل إلى التعامل مع مصادر تجارية ذات أسعار منخفضة، كما هو الشأن بالنسبة للسوفيت، إلا أنه كان يميل سياسيًا إلى التعامل مع بريطانيا لاعتبارات أخرى أكثر أهمية، أشرنا إليها في غير هذا الموضع. ومرة أخرى نؤكد على أن الخيار البريطاني كان خيارًا حتميًا.

ولكي يؤكد الملك عبد العزيز لبريطانيا على حسن نواياه، أصدر تعليماته بعدم التعامل مع أية سفينة سوفيتية تصل إلى جدة. وبالطبع كان هذا الموقف خطوة نحو إرضاء التجار الحجازيين، الذين كانوا سنده الأول في الأزمات الاقتصادية التي واجهها[١٧٩]. وحين وصلت السفينة السوفيتية "كوميونست" Kommunist إلى جدة في ٣ فبراير ١٩٢٩، رفضت حكومة الحجاز تفريغ شحنتها، واضطرت السفينة إلى التوجه إلى اليمن حيث أفرغت حمولتها.

[١٧٩] انظر تفاصيل ذلك في: جمال محمود حجر: السعوديون والأزمة المالية ١٩٢٩- ١٩٣٣ (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣).

ويجب التنويه هنا إلى أن ذات السفينة وصلت إلى جدة في ١٣ أكتوبر ١٩٢٨ ولم تفلح في إنزال حمولتها بالميناء، حيث صدرت الأوامر لها بمغادرة الميناء في اليوم نفسه[١٨٠].

وفي ٩ فبراير ١٩٢٩ كتب بوند (الوكيل السياسي البريطاني في جدة) إلى تشمبرلين (وزير خارجية بلاده) أن فؤاد حمزة اتصل به بناء على تعليمات صدرت إليه من الملك عبد العزيز ليشرح له سياسة الملك تجاه السوفيت، ودوافعه في تبني تلك السياسة. وأشار فؤاد حمزة إلى موضوع السفينة "كوميونست" قائلا: "إنه يعرف أن من مصلحة كل من بريطانيا والملك عبد العزيز وقف النشاط السوفيتي في الحجاز، وأكد على أنه لا يجب أن أخشى (بوند) شيئًا في هذا المجال ... ذلك أن الملك بذل أقصى ما في وسعه لوقف تفريغ حمولة السفينة ..

---

[١٨٠] Jeddah Report, Oct., ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠; Jeddah Report, Feb., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.

. واضـطرت إلى الإبحار بحمولتها ... وقد تصـرف الملك من تلقاء نفسـه في مواجهة السـوفيت، رغم أن السـلع التي أحضـروها كانت رخيصـة الثمن. وبالطبع فقد خلق الملك لنفسـه مشـكلة أخرى، نتيجة هذا التصـرف، فقد كان عليه أن يواجه الحجاج الذين يدفعون رسـومًا عالية، وأسـعارًا عالية للسـلع القادمة من الهند، بينما كان من الممكن أن يشـتروا سـلعًا أرخص (من تلك التي أحضـرها السوفيت) ومن هذه الزاوية يكون الملك قد ألحق الضرر بشعبه"[١٨١].

[١٨١] Bird to Chamberlain, ٩. Feb., ١٩٢٩, Documents on British Foreign Policy (D. B. F.P.), Series IA, Vol. IX, No. ٤٣٥.

لم يســـتطع بيرد أن يفعل شـــيئًا لفؤاد حمزة أكثر من التعبير له عن تقديره لهذه الخطوة من جانب الملك عبد العزيز، باعتبارها دليلاً جديدًا على الصـــداقة بين بلديهما. ولكنه أراد في الوقت نفســه التقليل من الأهمية المطلقة، التي أعطاها فؤاد حمزة لهذه الخطوة، فأشـار بيرد إلى أن طرد السـلع السـوفيتية عن الحجاز تم بناء على رغبة التجار الحجازيين بالدرجة الأولى، وهو بذلك لن يكون خدمة مباشـرة للتجارة البريطانية من جانب الملك. وأضاف بيرد أن السـوفيت لن يمكنهم الاستمرار في بيع بضـــائعهم بأســـعار زهيدة إلى الأبد، لأن الأســـعار المعمول بها في ذلك الوقت كانت تهدف إلى الدعاية للسوفيت كي يجدوا موطئ قدم لهم في الحجاز، فإذا نجحوا في ذلك فسيرفعون أسعار سلعهم إلى مستواها الطبيعي[١٨٢].

[١٨٢] Ibid.

كان فؤاد حمزة يسعى لإبراز فضل الملك عبد العزيز في خدمة المصالح البريطانية، بينما كان بيرد يسعى لإظهار أن الأمر ليس بهذه الصورة تمامًا، فالملك يعرف أين وكيف يحقق مصالحه الخاصة، التي لابد وأن تكون لها الأولوية. وبكلمات أخرى فبينما كان فؤاد حمزة يسعى لمزج المصالح البريطانية بمصالح بلاده، كان بوند حريصًا على تحقيق الفعل الدقيق بينهما. ولكن حمزة، الذي مزج السياسة بالاقتصاد في حواره هذا مع بيرد، وجد أنه لا مفر من التصريح بهدفه الحقيقي من وراء الحوار، وأشار إلى أن الملك عبد العزيز ينتظر من بريطانيا أن تقدر جهوده في مواجهة السوفيت، وأن هذا التقدير يمكن أن يصاغ في شكل معاهدة تجارية بين الحجاز وبريطانيا على شاكلة الاتفاقية الإيطالية اليمنية[١٨٣].

[١٨٣] Ibid.

وكان لورد لويد قد كتب كلامًا مشـــابهًا لما كتبه بوند، حين التقى حافظ وهبة في مطلع عـام ١٩٢٨ في القـاهرة. وطلـب منـه وهبة إظهار تقدير بريطانيا لـه بإمداده بالســلاح والذخيرة. والآن نلاحظ أن التقدير يأخذ شــكلاً جديدًا، يتمثل في معاهدة تجارية، أو معونة مالية. ولعل هذا التطور الأخير يؤكد على ما ســبق أن توصــلنا إليه، من أن الملك عبد العزيز كان يراقب الأحداث من حوله بدقة وحذر شـديدين للاسـتفادة من تطوراتها. وأن نجاح السـوفيت في عقد معاهدة تجارية مع اليمن، كان هو المحرك الأول لإثارة موضـــوع الســـوفيت ومحاولة طرحه من خلال جدة والقاهرة على الحكومة البريطانية.

مواقف البريطانيين في لندن والقاهرة من الدعاية السوفيتية:

وفي ٥ فبراير ١٩٢٩ خاطب هور R. H. Hoare نيابة عن لورد لويد، المندوب السامي بالقاهرة، وزير الخارجية البريطانية، سير أوستن تشمبرلين، وأبدى ملاحظات حول موقف الملك عبد العزيز من السوفيت[١٨٤]. وقال: إن قضية السوفيت ليست جديدة على القاهرة، التي تعلم الكثير من التفاصيل حولها منذ عام، وأن الحكومة البريطانية واجهتها بشيء من الفتور في حينها. ورغم ذلك لم يفقد الملك عبد العزيز الأمل في مساندة بريطانية له في هذا المجال، فعاد وفاتح سير جلبرت كلايتون، الذي كان في زيارته في صيف عام ١٩٢٨، ولكن لندن التزمت الصمت تجاه إعادة تحريك الموضوع. وأدى هذا الصمت البريطاني تجاه المسألة إلى قلق الملك حول حقيقة الصداقة البريطانية ـــ السعودية، وتساءل عن إمكانية ترجمتها إلى سلوك ملموس وتعاون واضح بينه وبين بريطانيا. ولذا عاد أخيرًا إلى إثارة الموضوع من جديد، وكان في هذه المرة واضحًا، كما لم يكن من قبل.

---

[١٨٤] R. H. Hoare to Chamberlain, ٥. Feb., ١٩٢٩, E٨٨٦/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١; Note I Page ٧٣٥, D. B. F. P., ١٩١٩-١٩٣٩, Vol. VII, Series IA.

وفيما يتعلق بطلب الملك عبد العزيز عقد معاهدة تجارية مع بريطانيا، قال هور لوزير خارجية بلاده: "إنه لمن الصعب أن نرى معاهدة تجارية تعقد بين بريطانيا وابن سعود، دون أن تثير سخطًا شديدًا بين الدول الكبرى في المنطقة". وإذا كان للندن رؤية أخرى، وشاءت أن تلبي رغبة الملك، ففي هذه الحالة لا يجب أن تفضل بريطانيا تجارتها على تجارة الدول الأوروبية الأخرى في الحجاز بمقتضى معاهدة، وإنما يجب أن "يمنح ابن سعود تفضيلاً لتجارة جميع الدول دون تجارة السوفيت". ويبدو أن لاهور كان طموحًا أكثر مما ينبغي أن يكون عليه طموح مسئول سياسي. فأخذ يراجع نفسه حين تساءل "كيف يمكن للحكومة البريطانية أن تنفذ فكرة كهذه، لأنها فكرة غير عادية؟"[١٨٥].

[١٨٥] R. H. Hoare to Chamberlain, ٥. Feb., ١٩٢٩, Loc. Cit.

كان هور يعلم جيدًا أن وراء طلب الملك عبد العزيز عقد معاهدة تجارية أهدافًا أبعد من مجرد عقد المعاهدة. فهو على حد تعبير لاهور "يريد أن يختبر مدى صدق الحكومة البريطانية في مواقفها من تسوية المشاكل المعلقة بينه وبين الأشراف ... ومع أنه يُظهر دائمًا حسن نية بريطانيا تجاهه، ويقدر صداقتها معه، إلا أنه يبدو قلقًا، ويحتاج إلى برهان قوي من بريطانيا على صدق مشاعرها، إنه في حاجة ماسة إلى تفاهم شامل أكثر من تلك المقترحات العامة والسطحية ..."[١٨٦].

[١٨٦] Ibid.

وإذا كان هور قد أوضـح لحكومته خطورة الإقدام على خطوة كهذه، فإنه لم يخف اتجـاهـاتـه السـلبيـة عن حـافظ وهبـة، حين بين لـه في ٣ ينـاير ١٩٢٩، الصعوبات التي ستواجهها بريطانيا إذا ما سعت لعقد مثل "هذه المعاهدة التجارية غير المتوازنة والتي تميز بين دولة وأخرى". أما مطالب الملك غير المباشـرة، فهذه لا يمكن للندن أن تحققها له طبقًا لسياسة قديمة تبنتها بريطانيا. وبالنسبة للنشاط السـوفيتي فهذا "أمر يخص ابن سـعود وحده، أكثر مما يخص بريطانيا ...". وزيادة في الحيطة، طلب هور من حافظ وهبة أن ينقل هذه الصـورة كما هي إلى الملك عبد العزيز، كما بعث بصـورة من خطابه السـابق إلى الوكيل والقنصـل البريطاني بجدة[١٨٧].

---

[١٨٧] **Ibid.**

لقد حاول هور أن يغسل يدي حكومته من موضوع السوفيت، كما حاول أن يجنبها الانخراط في تلبية أي من مطالب الملك عبد العزيز، لأن ذلك لا ينسجم وسياستها العامة في الشرق الأوسط. وهكذا لم تفلح محاولات الملك من خلال فؤاد حمزة مع بيرد في جدة، أو من خلال حافظ وهبة مع هور في القاهرة. ووجد لورد لويد، الذي كان يعطي أهمية خاصة لموضوع السوفيت، بعد عودته من لندن، أن من الضروري الكتابة مباشرة إلى الملك عبد العزيز ليكون أكثر وضوحًا، ولكن رد الملك جاء. طبقًا لما أورده لويد نفسه. "غامضًا ومختصرًا" ولا يضيف جديدًا لما هو معروف في الأوساط البريطانية في لندن والقاهرة[١٨٨].

---

١٨٨ Lloyd to Chamberlain, ٢٢. March, ١٩٢٩, E١٦٦٨/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١,

ولكن حافظ وهبة كشــف عما كان في رأس الملك عبد العزيز، حين قال إن الملك "كان يقصــد من وراء إثارة موضــوع الروس الحصــول على معونة مالية". فتطلعات الملك وخططه السياسية والعسكرية في شبه الجزيرة العربية، وطبيعة التعامل مع البدو وكسب ودهم وضبطهم، فضلاً عن عمليات التحديث والتطوير، ومحاولات ضــبط الحدود وتغيير المفاهيم حولها. كل ذلك يحتاج بشــدة إلى المال. ولســوء حظ الملك عبد العزيز كانت موارد بلاده محدودة للغاية، ولا تتناســب وحاجته لإظهار الكرم مع القبائل، كضرورة سياسية واجتماعية في بيئة تتبدل فيها الولاءات القبلية بسرعة، ويستطيع المال وحده أن يضبطها[١٨٩].

[١٨٩] انظر: جمال محمود حجر: السعوديون والأزمة المالية ١٩٢٩-١٩٣٣.

ويحاول حافظ وهبة، بعد إظهار ذلك كله أن يوضح للقاهرة أن المعونة المالية التي كانت بريطانيا تقدمها للملك عبد العزيز فيما سبق، كانت "تكلف الحكومة البريطانية أقل كثيرًا مما تتكلفه حكومة الانتداب البريطاني في المناطق المجاورة الآن لتحريك القوات والعربات والطائرات ضد القبائل النجدية المتمردة"، وهي ذات القبائل التي يواجه الملك عبد العزيز صعوبة في السيطرة عليها. ولو أن بريطانيا قدمت المال للملك لأمكنه ضبطها وحماية الحدود الشمالية من غاراتها[١٩٠].

[١٩٠] انظر: جمال محمود حجر: "الآثار السلبية للسياسة الغربية في شمال شبه الجزيرة العربية، قصر الأزرق وحدود نجد الجديدة" مجلة الدارة، العدد الأول، السنة ١١ (١٩٨٥).

ومع أن لورد لويد لم يظهر شيئًا من التعاطف تجاه المواقف الصعبة التي يواجهها الملك عبد العزيز، إلا أنه لم يخف مشاعره الحقيقية أمام سير أوستن تشمبرلين، حين قال: "إن وضع ابن سعود يستحق دراسة متعاطفة معه، نظرًا لأوضاعه الحرجة بين القبائل المتمردة عليه من ناحية وعداوة الأشراف له في مناطق الانتداب من الناحية الأخرى"[١٩١].

إن بعض ما ذكره لورد لويد منسوبًا إلى حافظ وهبة يحتاج إلى شيء من التدقيق، فحركة الإخوان لم يكن سببها حاجة القبائل إلى المال، وإنما هي مردودة إلى جملة أسباب سياسية ودينية، وتعتبر السياسة البريطانية في المنطقة مسئولة عنها في المقام الأول.

---

١٩١ Lloyd to Chamberlain, ٢٢. March, ١٩٢٩, Loc. Cit.

ولكن المال كان مطلوبًا لقمع مثل هذه الحركة إرضــاء لبريطانيا، وتحقيقًا للأمن الداخلي. وقد سـبق لنا أن عالجنا هذا الأمر بالتفصـيل في دراسـة أخرى[١٩٢]. هذا بالإضـافة إلى أن الملك كان في حاجة إلى المال لاسـتقطاب تلك العناصـر التي لم تكن قد تمردت بعد ولم تفصــح عن اتجاهاتها. ولا يجب أن يغيب عن الذهن أن اضـــطرابات الإخوان أدت إلى توقف بعد، ولم تفصــح عن اتجاهاتها. ولا يجب أن يغيب عن الذهن أن اضـطرابات الإخوان أدت إلى توقف وتدمير واسـتنزاف كثير من الأنشـطة والموارد الاقتصـادية، وهذا يفسـر لنا أسـباب سـعي الملك لحل مشـكلة داخلية باسـتخدام مسـألة خارجية، تتعلق بالسـوفيت والبريطانيين ومصـالحهما في شبه الجزيرة العربية.

[١٩٢] G. M. Hagar: Britain, Her Middle East Mandates and Emergence of Saudi-Arabia, ١٩٢٦-١٩٣٢, (Unpublished Ph.D. Thesis, University of Keele, England, ١٩٨١) Chapter ٤.

ومهما يكن من أمر حقيقة أوضاع الملك عبد العزيز، وحقيقة التنافس الأنجلو– سوفيتي في شبه الجزيرة العربية، فقد رأى تشمبرلين، في أبريل ١٩٢٩، أن مسألة عقد معاهدة تجارية بين بريطانيا والحجاز أمر وارد. وأمر جاكينز، الوكيل البريطاني في جدة، أن يحيط فؤاد حمزة علمًا بأن "الحكومة البريطانية عازمة على مشاركة ابن سعود آراءه في أن عقد معاهدة بين البلدين تخدم مصالحهما". ولكن اللافت للنظر أن تشمبرلين عاد وطلب إلى جاكينز "ألا يغذي الأمل" عند السعوديين حول أي موقف إيجابي من بريطانيا. ولم ينس تشمبرلين أن يذكّر جاكينز بأن هذا التحفظ الأخير "سري جدًا"[١٩٣].

---

[١٩٣] Chamberlain to Jakins, ١٧. April, ١٩٢٩, D. B. F. P., ١٩١٩-١٩٣٩, Vol. VII, No. ٤٥٦, P. ٧٦٠.

يكشف التحفظ الذي وضعه تشمبرلين في رسالته إلى جاكينزعن حالة من التردد وعدم الوضوح في السياسة البريطانية، يمكن القول.دون تردد من جانبنا.أن هذه كانت سمة السياسة البريطانية تجاه شبه الجزيرة العربية في هذه الفترة. ويمكن أن نفهم الدوافع من وراء موقف تشمبرلين عند قراءة المذكرة التي وضعها جورج رندل (السكرتير الأول بوزارة الخارجية البريطانية) في مايو ١٩٢٩، ووافقه عليها كل من مونتيجل Montegle وأوليفانت Oliphant، وهما معنيان بشئون الشرق الأوسط بالوزارة نفسها. كتب رندل في مذكرته يقول:

"جاء اقتراح ابن سعود بتجديد المعونة (البريطانية) له كرد سريع وطارئ على مطلبنا إليه أن

يحدد لنا ماذا يريد. إن مثل هذا التجديد مسألة غيرواردة بالطبع. وأنا لا أعتقد أن ابن سعود يتوقع أن يُجاب إلى طلبه، ومن ناحيتنا فلن ننظر فيه"[١٩٤].

[١٩٤] Minute by G. Randel, ٦. May, ١٩٢٩, E٢٢٢٢/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.

ويضيف رندل : إن المتأمل في رسالة الملك عبد العزيز في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٤٧هـ[١٩٥]، وفي رسالة يرد حول الموضوع نفسه، يلاحظ اتصالاً وثيقًا بين الاقتراح الخاص بالمعاهدة التجارية والاقتراح الآخر الخاص بمواجهة النفوذ البلشفي في شبه الجزيرة العربية. ويذهب رندل إلى أبعد من ذلك حين يقول "إن ابن سعود يريد بعض الامتيازات الاقتصادية، مقابل جهوده في صد النفوذ الروسي. ولكن مساعدته في هذا المجال لن تحل بالتأكيد مشكلته الأصلية". كان رندل يشير إلى الأزمة المالية التي يواجهها الملك، باعتبارها القضية الأصلية التي دفعته "لابتزاز" بريطانيا. ولو أن بريطانيا ساعدت الملك في الأزمة المالية، فإن ذلك في نظر رندل قد يجعل الملك "يعتقد أننا أكثر أهمية له مما لو وقفنا ضد النشاط السوفيتي في شبه الجزيرة العربية"[١٩٦].

[١٩٥] Ibn Saud to Lord Lloyd, ٢٦. Gamad Thani ١٣٤٧ (January ١٩٢٩) E٨٨٦/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.

[١٩٦] Minute by G. Randel, ٦. May, ١٩٢٩, Loc. Cit.

كان رندل يرى أن حل المشــكلة المالية التي هي مشــكلة الملك عبد العزيز الأولى، يجب أن يتم دون مواربة؛ لأن ذلك سوف يؤدي بالضرورة إلى إسقاط قضية السـوفيت من الحوار. ومع ذلك كان رندل يخشــى من أن يغالي الملك في طلباته، لو أنه أجيب إلى هذا الطلب بهذه الصورة. ويعتقد رندل أن الأخذ بأي من الافتراضين (المعاهدة التجارية أو تجديد المعونة المالية) يتطلب دراسة ميدانية جيدة، لأوضاع الملك المالية والاقتصادية، واستطلاع رأي جاكينز حول حقيقة الموقف في الحجاز، والنتائج المنتظرة لتنفيذ أي من الخطوتين[١٩٧].

١٩٧ Ibid.

ولفت رندل نظر وزارة الخارجية إلى أن سير جلبرت كلايتون، الذي كان مكلفًا بإثارة هذه المسائل مع الملك عبد العزيز في العام السابق ــ إذا وجد فرصة مناسبة لذلك ــ لم يفعل، اعتقادًا منه أن إثارة المسألة ستلحق أضرارًا ببريطانيا، وأن وزارة المستعمرات يجب أن تُستشر أولاً، كما يجب أن يُستطلع رأي وزارة الهند لارتباط ظروف الحجاز بأحوال الحجاج القادمين من جنوبي وجنوب شرقي آسيا[١٩٨].

يلاحظ المتتبع للرسائل المتبادلة بين "محور جدة - القاهرة – لندن" خلال الفترة التي بين أيدينا، أن كل الرسائل كانت تدعو إلى تدعيم وتقوية مركز الملك عبد العزيز في الحجاز، عدا رسائل وزارة الخارجية البريطانية التي كان لها رأي مخالف، وكانت تبدو باردة تجاه أساليب التعامل مع الموقف كله.

---

١٩٨ Ibid.

ويتبين ذلك بوضـــوح في مذكرة رندل السـابقة الذكر. فقد كانت وزارة الخارجية ترى أن النفوذ السـوفيتي أو الدعاية السـوفيتية أمريخص الملك عبد العزيزوحده، ولهذا السـبب لم تُجارالوزارة الملك أو أنصـاره فيما يتعلق بالتحمس للجري وراء وهم يسـمى خطرالسـوفيت. وحذررندل من أن نجاح الملك عبد العزيز "قد يجرنا إلى إعطاء القضـية مزيدًا من الاهتمام أكثرمما نفعل نحن أو تسـتحق هي، لأن ذلك سيكون ثمنًا غاليًا".

وبالرغم من أن لندن لم تتخذ أي قرار فيما يتعلق بالسوفيت والحجاز، عدا ذلك الوعد الباهت بعقد معاهدة تجارية مع الملك عبد العزيز، إلا أن جلدوين جب Gladwvn Jebb (وكيل وزارة الخارجية) لاحظ أن المسألة تفرض نفسها في لندن، بصرف النظر عن تفاوت وجهات النظر حولها ولذا أعد مذكرة في ٢٣ مايو[١٩٩]، أشار فيها إلى المحاولات العديدة التي سعى خلالها الملك للفت نظر بريطانيا إلى موضوع السوفيت في شبه الجزيرة العربية، وبذلك فتح باب الحوار من جديد حول الموضوع.

وفي هذه الظروف من الحماسة المتجددة لإثارة الموضوع، اقترحت وزارة المستعمرات أن تقدم وزارة الخارجية المعلومات اللازمة والكافية للملك عبد العزيز حول مروِّجي الدعاية السوفيتية،

---

[١٩٩] Memo. By Gladwyn Jebb (Under Secretary of State ١٩٢١-٣١, F. O.) On: "Bolshevik Influence in Arabia", ٢٣. May, ١٩٢٩, E٢٦٣١/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١,

حتى يتمكن من تحييد أدوارهم، أو منعهم من دخول الحجاز[٢٠٠]. ووجدت وزارة الخارجية، التي كانت عزوفًا في الماضي القريب عن تقديم أي نوع من المساعدة للملك، أن اقتراح وزارة المستعمرات ما يزال غير كاف. وراح جب يدعو إلى ضرورة تقديم المال للملك، لأن أي محاولة في هذا المجال بدون المال سوف تكون عديمة الجدوى. حتى تلك المعاهدة التي طلبها الملك ليست هي المطلب الحقيقي الذي كان يسعى إليه. وبعد كل هذه الحماسة يرى جب أن قضية المعونة المالية ما تزال غير ممكنة[٢٠١].

انضم جب إلى باقي أعضاء وزارة الخارجية الذين يرون أن الملك عبد العزيز كان يحاول "ابتزاز" الحكومة البريطانية. وراح يفتش عما إذا كان الملك "يخدعنا". وكيف يمكن "أن نرى خداعة لنا ونبقى على موقفنا كما هو". كان جب في حيرة شديدة حول أمرين:

[٢٠٠] E٨٣١; E٨٨٦; E١٠٣٥; E١٦٦٨; E٢٢٢٢/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.

[٢٠١] Memo. By Gladwyn Jebb, ٢٣. May, ١٩٢٩, Loc. Cit.

الأول: إمكانية عقد "معاهدة تجارية بريئة تمامًا" مع الملك عبد العزيز تربطه ببريطانيا.

والثاني: أن يُترك الملك وشأنه للسوفيت، وفي هذه الحالة، يطرح جب عدة تساؤلات : أولها : يبحث فيما إذا كانت هناك فرصة حقيقية أمام السوفيت في الحجاز ليبيعوا بضائعهم. وثانيها : يبحث فيما إذا كان في الإمكان عمليًا عقد معاهدة تجارية بينهم وبين الملك، على غرار معاهدتهم مع اليمن .

وثالثها : يبحث فيما إذا كان من الممكن للملك أن يطلق الدعاة والوكلاء السوفيت ليمارسوا نشاطهم في جدة ومكة، ليعملوا على "توحيد الشرق" باعتباره هدفًا استراتيجيًا.

لقد أفلح جب في إثارة كل هذه الاستفسارات، ولم يستطع أن يصل إلى إجابة بشأنها. ولكن استفساراته أضفت مزيدًا من الغموض على الموقف، وعلى إمكانية صناعة قرار واضح ومحدد في الوقت المناسب. وخرج جب بعد ذلك كله بخلاصة مؤداها "إن الخيار صعب بين الاستسلام للملك عبد العزيز أو تركه يستسلم للروس"[٢٠٢].

ولا يبدو أن جب توقف طويلاً أمام هذا الخيار المحير، فراح يلتمس الأعذار للملك عبد العزيز، ويراجع موقف بريطانيا منه، واستبعد أن يكون تعسفيًا في قراره، واعترف بأن العلاقات البريطانية- السعودية مبنية على أسس طيبة، وأن الملك كان حريصًا على استمرارها بهذا الشكل، حتى في المسائل الشائكة والمتصلة بعلاقاته بالهاشميين في مناطق الانتداب البريطاني،

[٢٠٢] Ibid.

وأنه تعاون مع بريطانيا في القضـــاء على حركة الإخوان[٢٠٣]، وأنه وظف طيارين بريطانيين لتنظيم قواته الجوية، وتجشـــم عناء التصـــادم مع العناصـــر القومية والإسلامية في الهند إرضاء لبريطانيا[٢٠٤].

وفي مقابل ما قدمه الملك عبد العزيز لبريطانيا، ماذا قدمت بريطانيا له؟ يعترف جب "إننا قد أعطيناه قدر ما نســتطيع من المســاعدة والدعم المعنوي، فاعترافنا به حاكمًا، واعترافنا بادعاءاته في عســير (ضــد ادعاءات اليمن)، وما زلنا على اســتعداد لمعاونته في مقاومة العناصــر المتمردة عليه في الكويت (حركة الإخوان) وهكذا فكلانا تبنى مواقف مبنية على الصـــداقة، وأي خروج عليها سينعكس على الطرفين معًا، وأكثر من هذا فإن أي تعاون بين ابن سعود والسوفيت سيكون خروجًا على سياسته الأصلية التي ينتهجها"[٢٠٥].

---

٢٠٣ G. Hagar, Britain, Her Middle East Mandates and Emergence of Saudi-Arabia, ١٩٢٦-١٩٣٢, Chapter ٥.

٢٠٤ Memo. By Gladwyn Jebb, ٢٣. May, ١٩٢٩, Loc. Cit.

٢٠٥ Ibid.

لقد طرح جب الموقف على النحو السـابق، وهو يعرف جيدًا أن الملك عبد العزيز سيكون المستفيد الأول لو دخل السوفيت الحجاز، مع أن ذلك سيكون ضد مصـالح تجار جدة، المرتبطين في تجارتهم مع الهند البريطانية، هذا إذا نظرنا إلى المسألة من زاوية اقتصادية محضة. أما المستفيد الثاني فهم السوفيت أنفسهم، لأن ذلك ينسجم واستراتيجية عملهم في الشرق، فضلاً عن أنهم سيكسبون أهمية خاصة في حال عقدهم معاهدة تجارة وصداقة مع الحجاز. وسوف ترفع مثل هذه المعاهدة من مركز الملك عبد العزيز في نظر العناصر الشرقية المعادية لبريطانيا. وعندئذ ـ يقول جب ـ "تصير شبه الجزيرة العربية أكثر استقلالاً، ويخبو النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط، وعلى حسابه ينمو النفوذ السوفيتي". وأخطر من ذلك كله على مستقبل الحضور السياسي البريطاني في المنطقة، أن العملاء السوفيت يمكن أن ينشطوا في الحجاز، ومنه إلى مناطق أخرى في العالم الإسلامي، وبالطبع سيتوقف نشاط الملك عبد العزيز في مراقبة هذه العناصر،

وهو دور كان ولا يزال يمارســـه دون أن يتلقى مقابلاً من بريطانيا. ومع أنه ليس من الوجاهة التســليم بالافتراض القائل بأن الملك ســيســمح للســوفيت بممارسة نشاطهم بحرية في الحجاز، إلا أنه قد يجد نفسه في موقف ضعيف يضطر فيه إلى ذلك.

هذا التحليل الأخير للموقفين البريطاني والســعودي تجاه البلاشــفة، دفع جلادوين جب إلى تقديم النصح لوزارته بإعادة النظر في مطالب الملك عبد العزيز، ومنحِه أكثر من مجرد معاهدة تجارية، وأكثر من مجرد التعاطف المعنوي معه. وحذر من المواقف السلبية. وفي هذا السبيل أوصى جب بتقديم الأسلحة اللازمة للملك عبد العزيز، حتى يتمكن من تقوية مركزه في الداخل. وأبدى معارضــة لأي محاولة للضغط عليه برفض تقديم الأسلحة، إلا أن تكون مقابلاً لبعض الضمانات كتبني موقف معاد للبلاشفة في الحجاز،

لأن ذلك سوف يبين له "أننا قد خذلناه ساعة حاجته إلينا". واعتبر جب الديون المستحقة على الملك لحكومة الهند، والتي تبلغ حوالي ٣٤,٠٠٠ جنيه إسترليني، ديونًا مبالغًا فيها، كثمن لأسلحة مستعملة، فكيف يكون الأمر والقصد مساعدة الملك في محنته؟[٢٠٦].

أظهر جلادوين جب مزيدًا من التعاطف مع الملك عبد العزيز، من منطلق حرصه على مصالح بلاده أولاً، حين يشير إلى "أن هناك ورقة رابحة يجب أن نلعبها، فحتى الآن لا يبدو أن ابن سعود قد أظهر قلقا من أسعار الأسلحة المرتفعة، وهو في الغالب لن يرفضها. وحتى إذا رفضها، فيجب علينا أن نعفيه من ثمن هذه الأسلحة، على أن يتحمل تكلفة نقلها إليه فقط.

---

[٢٠٦] انظر: جمال محمود حجر: السعوديون والأزمة المالية في الحجاز ١٩٢٩-١٩٣٣.

ونظرًا لأن هـذه المسـألـة تتعلق بـالإمبراطوريـة، فيجـب على الحكومـة البريطانية أن تدفع نصـف التكلفة لحكومة الهند، بتزويدها بأسـلحة بديلة من مخازنها في فلسـطين أو في غيرها، وبهذه الطريقة فلن تتأثر ميزانية الإمبراطورية أو حكومة الهند"[٢٠٧]. ومهما يكن من أمر، فقد كانت المساعدة المقترحة مساعدة مشروطة، وهي حالة تقع بين السلبية التامة والإيجابية المطلقة.

---

[٢٠٧] Memo. By Gladwyn Jebb, ٢٣. May, ١٩٢٩, Loc. Cit.

يُعد موقف جلادوين جب لمســة تطور إيجابية في موقف وزارة الخارجية البريطانية، تجاه الملك عبد العزيز. ووافقتها وزارة الهند في أغســطس ١٩٢٩ على اقتراحاتها المبدئية، مع إظهار بعض التحفظ على مســألة الإعانة المالية. ولكنها سعت ــ في الوقت نفسه ــ إلى إيجاد مخرج عملي بديل عن تقديم المال للملك. كأن تتخذ الحكومة البريطانية خطوات جادة لتخليص الملك من المآزق السياسية، وأن تســاعده على تدعيم مركزه في الداخل، وأن تحافظ باســتمرار على علاقات طيبة معه[٢٠٨].

كثر الحديث حول مسألة المساعدات المالية للملك عبد العزيز، وفي البرلمان البريطاني أثيرت المســألة مع إجماع على رفضــها، وتبين من المناقشــة أن الملك عبد العزيز لم يتلق أية مســاعدات مالية من بريطانيا قبل عام ١٩١٧، ولا بعد عام ١٩٢٤، أي قبيل دخوله الحجاز مباشرة. وأن إجمالي المساعدات التي تلقاها ما بين عامي ١٩١٧ و١٩٢٤ تبلغ حوالي ٥٤٢ ألف جنيه إسترليني فقط.

---

[٢٠٨] I. O. to F. O., ٢٧. Aug., ١٩٢٩, E٤٢٦٢/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣٢.

وأن هذه المبالغ قدمت له لمساعدته على الوقوف ضد تركيا. أما أية مبالغ أخرى دفعتها بريطانيا للملك بعد استيلائه على الحجاز، فقد كان الهدف منها مساعدته على

تأمين طرق الحج وسلامة الحجيج، الذين كان معظمهم من بين الحجاج البريطانيين[٢٠٩].

لقد شهدت الفترة ما بين مايو وأغسطس ١٩٢٩ مراجعة شاملة لتاريخ العلاقات البريطانية ــ السعودية، ومناقشات برلمانية حولها، وموقع السوفيت في هذه العلاقات. ولا شك في أن القاهرة، وخاصة لورد لويد، كان لها شأن كبير في التأثير على شكل الحوار. ففي ٢٨ مايو حذر لورد لويد وزارة الخارجية من نشاط الأمير شكيب أرسلان، الذي كان يتردد على الحجاز، ويتقرب من الملك عبد العزيز، ويقدم له الهدايا، ومعروف عنه أنه كان من أنصار السوفيت[٢١٠].

---

[٢٠٩] Answer to A Question in the House of Commons, E١٣٣٦/١٣٣٦/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠١٢.

[٢١٠] راجع نشاط شكيب أرسلان في الحجاز وعلاقته بالملك عبد العزيز فيما بعد.

E٢٩٣٥/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.

هذه النغمة التي طالما رددها لورد لويد، والمبنية على أساس معاداة أي نشاط سوفيتي في الشرق، مهما قل حجمه أو تأثيره، كانت في الواقع دعمًا غير مباشر لموقف الملك عبد العزيز. ففي ٥ يونيه، وبعد أسبوع واحد فقط من رسالته السابقة، أكد لويد رأيه الخاص في أسلوب معاونة الملك حين أبرق إلى لندن تحذيرات جديدة من الخطر البلشفي في مصر واليمن وفلسطين، وأكد على أن النشاط السوفيتي واضح في فلسطين، وأن الخطر يصير محدقًا بالمصالح البريطانية إذا تُرك السوفيت وشأنهم في الحجاز. وللحيلولة دون ذلك، اقترح لويد ضرورة أن تسعى الحكومة البريطانية لتأمين موقف الملك عبد العزيز المعادي للسوفيت[٢١١].

[٢١١] Lord Lloyd to F. O., ٥. June, ١٩٢٩, E٣٠٦١/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.

وفي الوقت نفســه، كتب الوكيل والقنصــل البريطاني في جدة إلى وزارة الخارجية يؤكد على أفكار لورد لويد، ويضــيف أن كريم حكيموف مر بجدة، خلال شــهر يونيه، في طريقه إلى اليمن، ليعمل ممثلاً تجاريًا لبلاده هناك[٢١٢]. ويعتبر مرور حكيموف بجدة، واختياره بالذات ليشغل هذا المنصب في اليمن، ذا دلالة سياسية ودعائية، وإعلانًا بالتحدي للســاســة البريطانيين، الذين أنهكوا أنفســهم في كتابة التقارير، وأرهقوا أذهانهم في مناقشــتها، دون أن يفعلوا شــيئًا. هذا بالإضــافة إلى تقارير أخرى سرية وصلت إلى لندن عن نشاط عناصر إسلامية موالية للسوفيت، تتلقى تدريبات في موســكو، وتســعى لنشــر أفكارها بين القبائل في شــبه الجزيرة العربية. ومع أن هذا أمر مشــكوك في صـحته، إلا أنه يبين حالة القلق والتوتر التي يمكن استكشافها من خلال التقارير.

[٢١٢] Jeddah Report, June., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.

ويبدو أن لويد كان مصـــابًا بتلك الحالة من القلق. فنجده يبعث في أعقاب برقيته السـابقة إلى لندن برسـالة تفصـيلية عن التطور الذي لمسـه على النشـاط السـوفيتي في البحر الأحمر منذ توقيع المعاهدة التجارية بين السـوفيت واليمن[٢١٣]، ويقول إن حركة الملاحة بين ميناء أوديسـا على البحر الأسـود وموانئ البحر الأحمر، مرورًا بقناة السويس، يمكن أن توصف بأنها "حيوية". وقد وصلت لندن مجموعة من التقارير السـرية، التي ينسـب بعضـها إلى المخابرات السـياسـية البريطانية في عدن، والتي تؤكد على ذات المعنى.

---

٢١٣ E١٢٤٥/٥٤٣/٩١; E١٢٢٣/٢٠/٩١; E١٦٦٨/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.

ويضـــيف لويد أن التقارير الحديثة للبوليس المصــري، والمســتخرجة من محادثات جرت مع الضــباط والبحارة الســوفيت، الذين ترقد ســفنهم في المياه المصرية، تشير إلى زيادة واضحة في عدد السفن السوفيتية، التي تتحرك بين أوديسا والخليج العربي، مرورًا بالســواحل الغربية لشــبه الجزيرة العربية. ولم يكن الأمر كذلك قبل الثورة البلشـفية، فلم يكن عدد الســفن يزيد عن أربعة ســفن فقط في العام. ومن غير المقبول القول بأن النشاط التجاري للإتحاد السوفيتي صار أضخم مما كان عليه أيام روســيا القيصــرية. ويحاول لورد لويد الربط بين الاضــطرابات الجارية في ذلك الوقت بين عمال شـركة البترول الأنجلوــ فارسـية في عبادان وبين مرور تلك الســفن الســوفيتية بموانئ الخليج العربي، ويقول إنها "تقدم دليلاً على الخطر الذي يمكن أن يلحقه الروس بالموانئ التي يمرون بها"[٢١٤].

[٢١٤] Lord Lloyd to F. O., ٥. June, ١٩٢٩, Loc. Cit.

أما ما يجري في فلسطين فقد أزعج لويد كثيرًا، ذلك أن فلسطين ـ كما يعلم البريطانيون من مصادر أخرى. قد صارت قاعدة متقدمة للسوفيت، الذين "يمكنهم القفز منها إلى شبه الجزيرة العربية ومصر"، ذلك أن المهاجرين اليهود من الإتحاد السوفيتي ومن أوروبا الشرقية يمكنهم أن يلعبوا هذا الدور الخطير انطلاقًا من فلسطين. وأبلغ لويد حكومته أن وزارة الداخلية المصرية نشطة في متابعتها لهذا الموضوع. وفي فلسطين ذاتها، أضاف لويد أن اتخاذ موقف حاسم "ضد ما أصبح الآن مركزًا خطيرًا لنشر العدوى البلشفية" صار أمرًا صعبًا[٢١٥].

[٢١٥] Ibid.

سـجل وجيه باشـا (وكيل وزارة الخارجية في مصـر) ملحوظة هامة على دخول العناصـر البولندية إلى مصـر، أثناء مناقشـة دارت بينه وبين السـكرتير الشـرقي، تتعلق بالإجراءات التي وضـعها قسـم الأمن العام Public Security Department على دخول الأجانب. فقد اعتبر وجيه باشـا، أن القيود المفروضـة على البولنديين أكثر مما هو مطلوب، واعتبر أن الموقف الذي اتخذ ضـد بولندا "يبدو سخيفًا بالنظر إلى التساهل الواضح في فلسطين فيما يتعلق بهذا الموضوع، مع أن كل الشيوعيين الذين أحدثوا اضطرابًا في مصر جاءوا أصلاً من فلسطين". لقد حاول لورد لويد إدانة التسيب في فلسطين تجاه النشاط البلشفي، ودافع عن بولندا باعتبارها كانت تقف وقتئذ ضـد الشـيوعية، كما يمكن اعتبارها من الحكومات التي تتعاون مع مصر في هذا المجال[٢١٦].

---

٢١٦ Ibid.

وفيما يتعلق بالعالم الإسـلامي، يعتقد لويد أن هناك عناصـر دفاع ذاتية قائمة بالضـرورة تتصـدى للمد الشـيوعي، بعضـها حكومي، والبعض الآخر ديني، وبعضـها اجتماعي يتعلق بالعادات والتقاليد. ففي معظم أنحاء شـبه الجزيرة العربية، التي يخشى البريطانيون عليها من السوفيت، توجد عناصر كابحة لأي مد شـيوعي. ولكن البريطانيين يجب أن يحسـبوا ألف حسـاب لميول بعض الحكومات القائمة في شـبه الجزيرة العربية، والذين يحاولون اسـتخدام البلاشـفة في تحقيق الأهداف القومية، وفي حل المشـاكل المحلية، دون السـماح للفكر البلشـفي بالانتشار.[٢١٧]

[٢١٧] Ibid.

ومن الخطر ـ في نظر لويد على الأقل ـ ترك هذه الحكومات تتصرف على هذا النحو، "لأن الفكر البلشفي يمكن أن يتسرب إلى رعاياها، وخاصة العناصر القبلية، فيفسدها وتخرج عن هويتها". وسوف تضار المصالح البريطانية في كل الأحوال، لأن الحكومات، حتى لو نجحت في ضبط الفكر الشيوعي وحجبه عن التسرب إلى المجتمعات القبلية، يبقى أن نواياها القومية ستنمو وتتضخم نتيجة للوفاق بينها وبين الأفكار البلشفية، وهذه النوايا القومية، كالخطر الشيوعي تمامًا مدمرة للمصالح البريطانية[٢١٨].

ويخلص لويد إلى القول بأن التحذيرات التي أطلقها كافية للتنبيه إلى الخطر. ويدعو حكومته إلى التعاون مع الملك عبد العزيز "أقوى حكام شبه الجزيرة العربية، الذي يعرض علينا التعاون لصد الهجمة السوفيتية". ويضيف لويد في ختام رسالته إلى وزارة الخارجية البريطانية، التي ستضع القرار النهائي في هذا الموضوع المعقد،

---

[٢١٨] Ibid.

بقوله: "إننا لابد أن نتردد قبل أن نرفض مثل هذا العرض. لابد أن يكون هناك شيء من التضحية من جانبنا من أجل التحالف مع هذا الحاكم القوي. إنني أعلم بأن هناك اعتراضات كثيرة لتجديد العون المالي لابن سعود، وإنني لست واثقًا مما إذا كانت هذه الاعتراضات تستحق أن نضحي بها من أجل التحالف مع حاكم قوي. إنني واثق أن المشكلة سوف تدرس برمتها جيدًا للبحث عن وسائل جديدة لصد الغزو البلشفي، ليس فقط من خلال ابن سعود، ولكن كذلك من خلال إمام اليمن"[٢١٩].

[٢١٩] Ibid.

شكيب أرسلان وقضية الدعاية السوفيتية:

في هذه الظروف، التي كانت فيها جميع الأطراف البريطانية مشدودة وتحاول أن تحسم أمرها، جاء موضوع شكيب أرسلان، الذي أشرنا إليه من قبل بطريقة عابرة، ليؤكد على مخاوف العناصر البريطانية المؤرقة من الدعاية السوفيتية في الشرق. وفي ٢٨ مايو بعث موريس بيترسون (السكرتير الأول بالسفارة البريطانية في القاهرة) برسالة إلى جدة يستفسر فيها عن نشاط شكيب أرسلان، وعن حقيقة علاقته بالملك عبد العزيز. وأرفق بالرسالة ملخصًا سريًا عن حياة أرسلان ورد فيه:

أن "الأمير شكيب أرسلان من الدروز، بدأ حياته العملية مناصرًا للأتراك (العثمانيين)، ومؤيدًا لحركة الجامعة الإسلامية، ومناهضًا للحركة العربية، وبعد الحرب العالمية الأولى عادى الفرنسيين وساند السوريين

. وحديثًا زار موسكو. وفي الغالب يعمل بإرشاد من السوفيت ... ومنذ وقت قليل مر بمصر وهو يحمل هدايا لابن سعود، وفي أحاديثه مع أشخاص كثيرين كشف عن ميوله للقادة السوفيت ... وهناك أهداف أخرى كثيرة من وراء زيارته للحجاز، منها محاولة إقناع ابن سعود بعقد معاهدة مع السوفيت، على نمط معاهدتهم مع اليمن. وهو ينوي تنظيم دعاية مناصرة للبلاشفة ومضادة لبريطانيا في شبه الجزيرة العربية. وهناك من يرى أنه يسعى لإغراء ابن سعود كي يختاره وكيلاً له في برلين، حيث تنشط الدعاية المضادة لبريطانيا، وينظمها المتطرفون من العناصر الشرقية بالتعاون مع بعض العناصر الشيوعية ..."[٢٢٠]

[٢٢٠] Maurice Peterson (First Sec. Cairo) to Bond (Jeddah), ٢٨. May, ١٩٢٩, E٢٩٣٥/٢٩٣٥/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٤٠.

ولعل شكيب أرسلان، طبقا لبترسون، كان حريصا على توسيع النشاط السوفيتي عن طريق إقناع الملك عبد العزيز "باختيار فؤاد سليم وكيلاً للحجاز في فارس". بينما "كانت الجمعية السورية. الفلسطينية تعارض شكيب أرسلان، وتخشى من نجاحه في إقناع ابن سعود باتخاذ خطوات مدمرة بالنسبة لسوريا".[٢٢١]

وبعد شهر من رسالة القاهرة السابقة إلى جدة، رد بوند من جدة في ٢٨ يونيه يطلع القاهرة على صعوبة متابعة نشاط شكيب أرسلان، الذي كان يقيم في مكة ضيفًا على فؤاد حمزة (القائم بأعمال وزارة الخارجية). وكان أرسلان يسعى وقتئذ للحصول على تصريح من حكومة فلسطين لزيارة أقاربه هناك، وبالطبع رُفض طلبه، ولا يخلو الأمر من أن تكون ميوله نحو السوفيت وراء قرار الرفض. ويؤكد بوند أن "أرسلان يعاود المحاولة آملاً في الاستجابة إلى طلبه. وهو قريب إلى ابن سعود، ويشجعه على تحسين علاقاته بسوريا. أما ابن سعود فيبدو أنه يدخر شكيب أرسلان ليكون ممثلاً له في أوروبا"[٢٢٢].

[٢٢١] Ibid.

[٢٢٢] **Bond to Cairo, ٢٨. June ١٩٢٩, E٣٧٠٧/٢٩٣٥/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٤٠.**

وبعد إقامة دامت أربعة أشهر في الحجاز، وفي ١٣ سبتمبر ١٩٢٩، غادر شكيب أرسلان جدة إلى أوروبا مارًا بمصر. يقول بوند في رسالة إلى المندوب السامي بالقاهرة، إن شكيب أرسلان قوبل أثناء إقامته بالحجاز "بكل الود والاحترام من الملك عبد العزيز، وابنه الأمير فيصل، ومسئولي الحكومة، وعلية القوم". ويضيف بوند أن أرسلان ألقى العديد من الكلمات والخطب بصورة علنية، نشرت مقتطفات منها في أم القرى، وصفها بوند بأنها "أحاديث مخططة يتملق فيها جهود ابن سعود للنهوض بالشعب العربي لوضعه في موقعه المناسب بين شعوب العالم".[٢٢٣]

[٢٢٣] Bond to High Comm. (Cairo), ١٨. Sept., ١٩٢٩, E٥١٤٦/٢٩٣٥,٩١, F.O. ٣٧١/١٣٧٤٠.

وعلى وليمة أعدها فؤاد حمزة على شـرفه، ألقى شـكيب أرسـلان كلمة قال فيها "مثلما أن مكة هي الآن العاصـمة الدينية لكل المسـلمين، فإنه يأمل أن يراها في المستقبل القريب العاصمة السياسية لكل المسلمين"[٢٢٤]. وهذه العبارة توضح. بغير شك ـ اتجاهات أرسلان الإسلامية، التي كان يتمنى أن يرى فيها الأمة الإسلامية، وقد اسـتيقظت من نومها والتفت حول عاصـمتها الدينية، مكونة الدولة الإسـلامية الكبرى، التي تدور حول مكة إلى الأبد كعاصـمة سـياسـية إلى جانب كونها عاصـمة دينية، وهو ما يمكن اعتباره دعوة إلى صحوة إسلامية تجدد بها الأمة ذاتها.

[٢٢٤] Ibid.

ولا يفوت أرسلان بعد أن حدد أمنيته بشأن الدولة الإسلامية الكبرى، أن يشير إلى الملك عبد العزيز كزعيم مرشح لقيادة هذه الدولة. فيقول: "إنه لم الواضح أن العرب تحت زعامة قائد عربي عظيم قد استيقظت من نومها العميق الطويل لتفيق إلى الأخطار المحيطة بها"[٢٢٥]. ولا شك أن هذه الإشارة الأخيرة تحوي في داخلها عند أرسلان اتجاهات عربية، ليس من اليسير إهمالها.

وطبقا لبوند، عظّم أرسلان الحجاز وحكومته، وفي كلمة أخرى "استمرت لمدة ساعتين". وبّخ المسلمين. ذكر بوند أن حملة أرسلان هذه جاءت بسبب ما كان يراه بين المسلمين من إهمال وانصراف عن أوامر القرآن. ودعاهم في النهاية، ولعل هذا هو الأهم فيما يتعلق ببريطانيا، إلى أن "يضحوا بكل شيء في سبيل المحافظة على استقلال بلادهم وسلامتها". وذكّرهم بأن مثل هذه التضحية هي التي مكنت الأمم الأوروبية من التفوق على المسلمين

---

[٢٢٥] Ibid.

في هذه المرحلة من المدنية الحديثة. وتحدث أرسلان عن العناصر العربية، التي ما تزال تعيش في ظل السيطرة الغربية، "وتخشى أن تتخلص من الولاء لها خوفًا من النتائج"، وقال إن هؤلاء العرب مثل الجنود، ما عليهم إلا إطاعة الأوامر، وهم بذلك يقدمون خدمات جليلة للأجانب، مع أنهم لو تصدوا للحاكم الأجنبي لكان أجدى وأهم وأكثر ادخارًا للعناصر العربية، التي تموت في سبيل تحقيق أهداف الحاكم الأجنبي بدلاً من أن تموت في سبيل التخلص منه. وتوجه أرسلان إلى مستمعيه، ودعاهم ألا يكونوا مثل هؤلاء، وألا يتجنبوا الموت، وأن يتلاقوا معًا[٢٢٦].

ترى هل كان لزيارة شكيب أرسلان وخطبه وكلماته لجمع شمل المسلمين أثر إيجابي على موقف بريطانيا من دعوة الملك عبد العزيز لها بالتعاون معًا للحد من النشاط السوفيتي في الشرق؟.

[٢٢٦] Ibid.

ليس بين أيدينا ـــــ في الواقع ـــــ دليل وثائقي يحســم الإجابة على مثل هذا السـؤال. ولكن شـواهد الأمور وتطوراتها في المرحلة التالية مباشـرة، تؤكد على أن الإجابة يمكن أن تكون بنعم.

فمن رســالة لورد لويد إلى وزير خارجيته هندرسـون، في منتصـف يونيه ١٩٢٩، يتضح كيف أن لويد حاول ـ من جانبه ـ استغلال إمكانية تطوير العلاقات المصرية ــ السعودية لكسب الملك عبد العزيز إلى جانب بريطانيا، واعتبار تحقيق اعتراف مصر به خدمة له، في مقابل وقوفه ضد محاولات السوفيت التقرب منه[٢٢٧]. خاصة وأن الملك سعى إلى كسب اعتراف مصر به عدة مرات، ولم يوفق في تحقيق مأربه. وكانت الجهود المكثفة المبذولة في هذا الاتجاه قد بدأت منذ عام ١٩٢٨،

---

[٢٢٧] Lloyd to Henderson, ١٥. June, ١٩٢٩, E٣٢١٤/٢١٣٧/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٧٣٥.

فقد لعب حافظ وهبة، باعتباره مصريًا، دورًا غير موفق في هذا السبيل. وكذلك سعى حمد الباسل باشا، وكامل الخشم بك، إلى جانب جهود عبد الرحمن عزام وفيلبي في هذا المجال[٢٢٨].

وقد سعى لويد هذه المرة إلى وضع الصورة بكل وضوح أمام لندن حين قال: "لقد حان الوقت كي نضغط على الحكومة المصرية لتعترف بابن سعود، فقد تسبب تأخر الاعتراف به، خلال السنوات الثلاث الماضية، في كثير من المشاكل لجميع الأطراف المعنية". كان الملك عبد العزيز متضايقًا من موقف الملك فؤاد تجاهه، وانعكس ذلك بوضوح على القنصل المصري بجدة، الذي لم يستطع ممارسة صلاحياته كاملة، كما يمارسها القناصل رسميًا، وفي المقابل أهملت الحكومة المصرية فوزان السابق ممثل الملك عبد العزيز في القاهرة[٢٢٩].

---

[٢٢٨] Bird to Chamberlain, ١٦. June, ١٩٢٨, E٣٤٩٧/٢٨٠٦/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠١٥.

[٢٢٩] Lloyd to Henderson, ١٥. June, ١٩٢٩, Loc. Cit.

وقد سعى لورد لويد من جانبه لتحسين العلاقات "فتحدثت إلى عديد من رؤساء الوزارة والوزراء المصريين السابقين حول هذا الموضوع ووجدت لديهم الاستعداد. وبالرغم من الأثر السيئ الذي تركته حادثة المحمل على المسئولين المصريين، إلا أن الحكومة المصرية ومعظم المسئولين المصريين كانوا يشجعون فكرة الاعتراف بابن سعود، ويريدون وضع حد لهذا الوضع الشاذ بين دولتين إسلاميتين متجاورتين"[٢٣٠].

وبالنسبة لموقف الملك فؤاد، يقول لويد: "لقد تحدثت معه حول هذا الموضوع، ولكنه قرر عدم الاعتراف بابن سعود، وبنى موقفه هذا على حادثة المحمل، وعلي معارضة للاتجاهات الوهابية،

---

٢٣٠ Ibid.

وهو يعارض أن تكون الأراضي المقدسة في أيدي أناس لا يعترف (المسلمون) باتجاهاتهم الدينية". ويرى لويد أن طموحات الملك فؤاد نحو الخلافة الإسلامية، ورغبته في أن يلعب دورًا مؤثرًا في شبه الجزيرة العربية لهما تأثير واضح على رفضه الاعتراف بالملك عبد العزيز ملكًا على الحجاز. وبينما يتبنى الملك فؤاد هذه الاتجاهات السلبية بالنسبة للملك عبد العزيز، يطور في الوقت نفسه علاقاته مع إمام اليمن بشكل لافت للانتباه، ولعل ذلك قصد به إحكام الخناق حول الملك عبد العزيز الذي كان على خلاف مع إمام اليمن بشأن الحدود[٢٣١].

[٢٣١] Ibid.

ونظرًا للخلاف في وجهات النظر بين الحكومة المصرية والملك فؤاد، عجزت الحكومة عن الضغط على الملك، لإنهاء حالة التردي في العلاقات المصرية. السعودية، ورأى لورد لويد ضرورة أن تتدخل الحكومة البريطانية لدى الملك فؤاد لإقناعه بالعدول عن موقف الرفض. وألا يشير إلى أن الأمر يتعلق بالمسلمين وحدهم، لأن ذلك ييسر استغلال كل الفرص المتاحة لاستخدم الملك عبد العزيز استخدمًا جيدًا في مقاومة النشاط السوفيتي. وفي نفس الوقت يحذر لويد من ترك الملك عبد العزيز دون إظهار ترجمة حقيقية وعملية لكلمات الود، لأنه " لو تُرك هكذا قد يتوجه نحو البلاشفة، والسوفيت يلعبون الآن دورًا واضحًا في شبه الجزيرة العربية، وزيارة شكيب أرسلان الأخيرة تؤيد هذا الاتجاه"[٢٣٢].

---

٢٣٢ Ibid.

ويلقي لورد لويد بآخر ما في جعبته حين يبين لحكومته أنه ليس وحده الذي يتبنى هذا الاتجاه بل "إن المندوب السـامي في العراق سـيسـاند وجهة نظره هذه". وإذا أدرك الملك عبد العزيز "مدى الفائدة من ورائنا فسـيبقى على علاقات طيبة معنا". هذا فضلاً عن أن "اعتراف مصر به سيعطيه قناعة معنوية متزايدة بنفسه، وإذا تم هذا الاعتراف من خلالنا فسـتكون ميزة لنا، لأننا سـنزيد من قوة نفوذنا عليه"[٢٣٣].

هكذا أثارت تحركات شـكيب أرسـلان وعلاقته بالملك عبد العزيز موضـوع النشاط السـوفيتي من جديد. وأثار هذا بدوره مسألة تحسين العلاقات المصرية. السـعودية، ولا يعنينا هنا الآن متابعة هذا الموضـوع الأخير، بقدر ما يعنينا أنه كان أحد وسائل بريطانيا في مقاومة النشاط السوفيتي في شبه الجزيرة العربية. ولا شك أن لورد لويد وضع مصالح بريطانيا أولاً وقبل أي شيء آخر، حتى بدا وكأنه معني بها وحده قبل أي مسئول آخر، سواء أكان في لندن أو في المنطقة.

---

[٢٣٣] Ibid.

ما قبل النهاية:

يستطيع المراقب لتطور الأحداث في الحجازونجد في النصف الثاني من عام ١٩٢٩أن يرصد بوضوح تدني الأوضاع السياسية والاقتصادية والأمنية، وعلى سبيل المثال: كان على الملك أن يبقي على قوة عسكرية كبيرة في الإحساء لمقاومة تمرد الإخوان، وكان ذلك من بين الأسباب التي أرهقت خزانة البلاد. حتى أن الضرائب كانت تجمع مقدمًا بقيمة أقل من قيمتها، فيما لو دفعت في مواعيدها الأصلية[٢٣٤]. وفي الشهر التالي، أكد بوند على أن الأوضاع السيئة قد تعقدت، "وأن الحكومة لم يعد لديها أية أرصدة وأنها مدينة إلى حد كبير"[٢٣٥]. وفي سبتمبر جرت محاولات غير موفقة لتدبير سلفة للملك من التجار الحجازيين[٢٣٦].

[٢٣٤] Jeddah Report, July., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.

[٢٣٥] Jeddah Report, Aug.., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.

[٢٣٦] Jeddah Report, Sept., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.

تلك المواقف الحادة لم تكن غائبة عن المسـئولين البريطانيين، الذين كان يعنيهم ـ إلى حد كبير ـ تحقيق الاستقرار والأمن في الأراضي المجاورة لمناطق الانتداب، وفي المناطق المقدسـة، ضـمانًا لسـلامة الحجاج البريطانيين. ومع ذلك فقد بدت مسألة تزويد الملك بالمال أمرًا غير قابل للمناقشة، وأن عليه وحده أن يدبر شئونه، وأن على بريطانيا أن تغسل كلتا يديها من هذا الموضوع.

وبينما يبدو عزوف بريطانيا واضحًا وصريحًا، تصل بعثة طبية سوفيتية إلى جدة في مطلع عام ١٩٣٠، وتلحق بالوفد السـوفيتي إلى الحجاز، وتقوم بمعالجة الأمراض المحلية دون مقابل[٢٣٧]، وتساهم في تدعيم مركز السوفيت هناك. وفي هذه الظروف يسعى السوفيت لتطوير تمثيلهم الدبلوماسي في الحجاز، فيقدم ناصر توراكولوف (الممثل الدبلوماسي السوفيتي) في ٢٦ فبراير ١٩٣٠ أوراق اعتماده إلى حكومة الحجاز باعتباره وزيرًا مفوضًا ومندوبًا فوق العادة. ومنذئذ صار ناصر توراكولوف عميد الدبلوماسيين في جدة[٢٣٨].

---

[٢٣٧] Jeddah Report, Jan., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠.

[٢٣٨] حول موضوع تطور التمثيل الدبلوماسي السوفيتي في الحجاز، انظر:
Bond to F. O., ٢. Jan., ١٩٣٠, E٢٩/٢٩/٩١, F. O. ٣٧١/١٤٤٥٥; Bond to F. O., ٦. March., ١٩٣٠, E١٥٤٠/٢٩/٩١, F. O. ٣٧١/١٤٤٥٥; Rayan to Henderson, ٦. Jan., ١٩٣١, E٤٠٨/٤٠٨/٢٥, F. O. ٣٧١/١٥٢٩٦; American Charge d' Affair (Moscow) to the Secretary of State (Washington)

أما الخطوة التالية في اتجاه تطور العلاقات السـوفيتية بالحجاز فتتمثل في تنشـيط حركة التجارة السـوفيتية إليه. ففي أول أبريل عام ١٩٣٠ وصـل إلى جدة مركـب سـوفيتي يـدعى ميكويـان Mikoyan محمـل بـالسـكر. ولم يبـد التجـار الحجازيون معارضة لتفريغ الشحنة، كما حدث في مناسبة سابقة في نوفمبر ١٩٢٧. ويفسر الوكيل البريطاني بجدة هذا الموقف بأن الشحنة جاءت لحساب أحد التجار الحجـازيين وليس لحسـاب الوكالـة التجاريـة السـوفيتية[٢٣٩]. ولكن هـذا التفسـير البريطاني، لم يكن في صـالح التجارة البريطانية القادمة من الهند، بل هو اعتراف بأن التجار الحجازيين صاروا يعرفون طريقًا أخرى للحصول على احتياجاتهم،

extract from the Izvestiya, Cited in: Ibrahim Al – Rashid: Documents of The History OF Saudi Arabia, Vol. ٣, PP. ٢٢٠-٤; Jeddah Report, Feb., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠.

[٢٣٩] Jeddah Report, April., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠.

وهذا يعني أن الحجازيين أنفسهم خطوا خطوة جديدة، لم يسبق لهم أن قاموا بها في التعامل مع السوفيت، ولعل هذه الخطوة تقدم مؤشرًا جديدًا لاتجاهات رياح التغيير في المرحلة المقبلة، خاصة وأن حكومة الحجاز نجد كانت معنية بالحصول على السلع بأرخص الأسعار في ظل هيمنة الأزمة المالية الطاحنة.

كان ظهور ملامح التطور السابقة في العلاقات السوفيتية بالحجاز مصدر إزعاج للورد لويد بالقاهرة، وقد كنا نسمع عن حماسته الدائمة للتصدي للسوفيت. ففي ٢٩ فبراير ١٩٣٠ كتب لويد إلى وزارة الخارجية بشأن أنباء نمت إلى علمه من الحكومة المصرية حول التاجر السوفيتي ليون الكونين Leon Elkonin الذي سبق أن أشرنا إليه على أنه شخص غير مرغوب فيه من بريطانيا.

وتفيد أنباء الحكومة المصرية أن الكونين سيشغل إحدى وظائف القنصلية السوفيتية بجدة، وأن هذا الأمر ينظر إليه في كل من القاهرة ولندن بشيء من القلق والشك، لأن الكونين سجن في مصر، في مرحلة سابقة، ولمدة ١٨ شهرًا، بسبب تورطه في نشاط معاد للحكومة المصرية، ثم أفرج عنه في عام ١٩٢٧[٢٤٠].

وفي ١٩ مايو ١٩٣٠ تحرك بيرد من ناحيته فأبلغ وزير الخارجية السعودي بتاريخ الكونين ونشاطاته المعادية[٢٤١]. ولكن وزير الخارجية السعودي، الذي سبق لحكومته الاعتراض على أسلوب الحكومة البريطانية في عرض موضوع الكونين، كان فاترًا في مواجهة الحماسة البريطانية تجاه الموضوع،

[٢٤٠] Lord Lloyd to F. O., ٢٩. Feb., ١٩٣٠, E١٠٧٧/١٠٧٧/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠١٢.

[٢٤١] Bird to (Saudi) Minister for Foreign Affairs, ١٩. May, ١٩٣٠, E٣٢٤٧/١٠٧٧/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠١٢.

وأخبر الوكيل البريطاني أن الحكومة السـعودية تعتقد في أن الوقت غير مناسـب لاتخاذ أية إجراءات ضـد الكونين، حتى يصـل إلى جدة، ويتسـلم أعماله، ويثبت ضده ما يفيد بأنه استغل منصبه في أعمال عدائية ضد الحجاز[٢٤٢].

ويبدو أن عام ١٩٣٠ شـهد حماسًـا مبدئيًا لاتجاهات العلاقات السـعودية . السـوفيتية. فلم تعد الأضـواء تسـلط على نشـاطات فرعية كنشـاط الكونين، وإنما على متابعة نشــاط المسـؤول الأول في المفوضـية السـوفيتية بالحجاز. وأجمعت التقارير على أن الوزير السـوفيتي كان يحاول أن يعمل شـيئًا لخدمة مصـالح بلاده. ولكن ذلك لم يزعج بريطانيا كثيرًا، لأن تقارير أخرى أفادت بوضـوح لا يدعو إلى الشك، أن جوهر سياسة الملك عبد العزيز تجاه السوفيت لم يتغير، وأن السوفيت لن يساندوا موقفه السياسي في مواجهة اليمن بسبب ضم عسير إلى ممتلكاته[٢٤٣]، وذلك للسبب الذي سبق أن أشرنا إليه،

---

[٢٤٢] Damluji to Bird, ٢٥. May, ١٩٣٠,E٣٢٤٧/١٠٧٧/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠٢١.

[٢٤٣] F. O. Minutes, ٢٢. May, ١٩٣٠, E٢٥٧٦/٩٥/٩١, F. O. ٣٧١/١٤٤٦١; Bond to Rendel, ٤. May, ١٩٣٠, E٢٥٧٦/٩٥/٩١, F. O. ٣٧١/١٤٤٦١.

وهو أن علاقاتهم باليمن تقوم على أسس قانونية، أما علاقاتهم به فليس لها أي أساس قانوني. وإذا كان للسوفيت أن يتخذوا موقفًا إيجابيًا، فسيكون بالطبع مناصرًا للإمام ضد الملك عبد العزيز. وإن حدث ذلك فستجد بريطانيا نفسها في موقف لا تحسد عليه، في مواجهة مجموعة من الخيارات الصعبة، هل تترك شبه الجزيرة العربية للسوفيت تمامًا كي يعيدون ترتيب توازناتها من جديد، أم تترك الملك عبد العزيز لهم، وتفقد صديقًا قويًا لها في شبه الجزيرة العربية، وبالتالي تفقد الجزيرة العربية كلها. أما لو حدث وساند السوفيت الإمام فسيسعد البريطانيون مؤقتًا، لأن ذلك سيقدم للملك عبد العزيز دليلاً أكيدًا على أن السوفيت ليسوا أصدقاء، ولكن البريطانيون سيخسرون كثيرًا على المستوين السياسي والاقتصادي، بل لعلهم يفقدون هيبتهم الدولية في المنطقة.

ولكن اتجاهات السـوفيت السـياسـية لا تبين اعتزامهم على فقدان موطئ قدم نجحوا في الحصـول عليه على حسـاب بريطانيا، ولذلك فقد يكون من الغباء السياسي أن يتخذ السوفيت مواقف صارمة كما توقع الإنجليزلهم أن يفعلوا. فقد تمتع الوزير السوفيتي في جدة بحرية الحركة دون قيود في الأراضي المقدسة بسبب كونه مسلمًا. واسـتطاع أن يتحدى المعوقات التي حاول البريطانيون وضـعها في طريقه لدى الملك عبد العزيز.

ولم يدع الوزير السـوفيتي فرصـة لإظهار حسـم النوايا إلا واسـتثمرها. ففي الوقت الذي كان الحجاز يعاني فيه من آثار الأزمة المالية، عقد الوزير السـوفيتي صـفقة بنزين مع حكومة الحجاز، دون أن يتقاض أية مبالغ. وكسـب بذلك موقفًا يمكن أن يضـاف إلى رصيد العلاقات السعودية ــ السوفيتية الطيبة. فقد شهد صيف عام ١٩٣١ عنفوان الأزمة المالية في الحجاز، وقصورًا واضحًا في المال اللازم لشراء المواد الضرورية كالبنزين، ورفضت مختلف الدول الأوروبية،

أو شركاتها إمداد الملك بالبنزين أو بالمال اللازم لشرائه، وعندئذ أقبل الوزير السوفيتي وقدم لحكومة الحجاز صفقة بنزين بلغت قيمتها ٣٠ ألف جنيه إسترليني. وقد حاول الوزير السوفيتي رفع الحظر المفروض على السلع السوفيتية إلى الحجاز مقابل إنجاز هذه الصفقة من البنزين، وهو موضوع عالجناه بالتفصيل في غير هذا الموضع[٢٤٤]. وبالرغم من موقف حكومة الحجاز المعارض لفرض هذا الشرط، إلا أن السوفيت لم يضيعوا الفرصة كلية، وعقدوا الصفقة، على أمل أن تكون خطوة تفتح الباب لصفقات أخرى، وتدير حوارًا كان مفقودًا بين الطرفين[٢٤٥].

---

[٢٤٤] انظر: جمال محمود حجر: السعوديون والأزمة المالية في الحجاز ١٩٢٩-١٩٣٣، الفصل الثاني.

[٢٤٥] Jeddah Report, May + June, ١٩٣١, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩; Jeddah Report, July + Aug., ١٩٣١, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩.

ومع أن صفقة البنزين لم تكن نجاحًا مُشبِعًا لطموحات السوفيت وتطلعاتهم، إلا أنها كانت أهم ما أنجزه ناصر توراكولوف قبل أن يغادر الحجاز في خريف عام ١٩٣١ في أجازة طويلة استغرقت ستة أشهر، حيث خلفه في جدة هوراس سالكيند Horace Salkind قائمًا بالأعمال اعتبارًا من شهر سبتمبر[٢٤٦].

أدى نجاح السوفيت في عقد صفقة البنزين إلى حالة من القلق الشديد بين البريطانيين في جدة. وتحدث هوب ـــ جيل (القائم بالأعمال البريطاني) في ذلك إلى فؤاد حمزة (القائم بأعمال وزارة الخارجية السعودي). يقول هوب ـ جيل إن فؤاد حمزة "ارتبك ولم يستطع أن يقدم جوابًا"[٢٤٧]، ولكنه عاد إلى أحداث عام ١٩٢٨، عندما طرح موضوع المعونة المالية وفاضل بين التجارة البريطانية والتجارة السوفيتية[٢٤٨].

---

[٢٤٦] Jeddah Report, Sept. + Oct., ١٩٣١, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩.

[٢٤٧] Hope – Gill to the Marquess of Reading, ٩. Sept., ١٩٣١, E٩٩١١/٢٠٦٤/٢٥, F. O. ٣٧١/١٥٢٩٩.

[٢٤٨] انظر الفصل الثالث.

وحين حاول كل من حمزة وهوب ـــ جيل إقناع الآخر بوجهة نظره في هذا التطور الأخير، لم يلتقيا. فقد كان لكل منهما مصـالحه وأهدافه، وحين راح هوب ـ جيل يقدم فرصـة إمكانية عقد معاهدة تجارية، كان رد حمزة: "إن الأمر أكبر من ذلك"، وراح يسـرد مشـاكل الملك عبد العزيز السـياسـية والمالية وحاجته إلى دعم قوي، مبينًا أنه ظل يقف وحده في مواجهة السـوفيت "إلى أن صـار الأمر أكبر مما يطيق". وجاء رد هوب ـ جيل فجًا وصريحًا حين قال "إن هذا الموقف من جانب ابن سـعود لم يكن من أجل بريق عيون الإنجليز، وإنما كان من أجل (إسـكات) الأخوان النجديين، و(إرضاء) التجار الحجازيين"[٢٤٩]. ولم يعترض حمزة على هذا التعليق.

---

[٢٤٩] Hope – Gill to the Marquess of Reading, ٩. Sept., ١٩٣١, Loc. Cit.

ويعتقد هوب ــ جيل أن الملك عبد العزيزلم يسلم للسوفيت في أي أمرعدا في موضــوع البنزين نظرًا للظروف الداخلية الضــاغطة عليه، فضــلاً عن "تهديد السوفيت بسحب مفوضهم من جدة". ولكن هوب ـ جيل عاد وأكد على أن "شروط توريد البنزين السوفيتي ممتازة".

وأضــاف أن "كلا الطرفين قد خدع الآخرووعد بتقديم امتيازات له". ويقول هوب ـ جيل نقلاً عن فؤاد حمزة "أن الســوفيت قدموا امتيازًا ولن يقدم الســعوديون امتيازًا مماثلاً"[٢٥٠].

---

٢٥٠ Ibid.

ويفهم من الملاحظات التي سجلها موظفو وزارة الخارجية في ٢٢ مايو ١٩٣٠[٢٥١]، تعقيبًا على رسالة بعث بها بوند إلى رندل في ٤ مايو[٢٥٢] أنه ليس من المتوقع أن يناصر السوفيت اتجاهات الملك عبد العزيز التوسعية، طالما أنه أبقى على موقفه المعارض لسياستهم في بلاده.

والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من هذا الفصل أن الأصداء التي أحدثها اتفاق السوفيت مع اليمن في بدايته، أثارت زوبعة بين المسئولين البريطانيين في المنطقة وفي لندن على حد سواء. وأن القاهرة لها دور بارز في هذه الزوبعة التي غذاها الملك عبد العزيز في سبيل تحقيق مصالح بلاده. ومع أن البريطانيين أبقوا على سياستهم الأصلية بعدم التدخل. نجد أن السوفيت قد يئسوا من إمكانية تغيير موقف الملك عبد العزيز تجاههم. وسوف تشهد الثلاثينيات عملية انحسار تدريجي للنشاط السوفيتي في الحجاز.

---

[٢٥١] F. O. Minutes, ٢٢. May, ١٩٣٠; Bond to Rendel, E٢٥٧٦/٩٥/٩١, F.O. ٣٧١/١٤٤٦١.

[٢٥٢] Bond to Rendel, ٤. May, ١٩٣٠, E٢٥٧٦/٩٥/٩١, F. O. ٣٧١/١٤٤٦١.

الفصل الخامس

السعوديون والبريطانيون والدعاية السوفيتية

مرحلة الانحسار ١٩٣٢-١٩٣٨

يسعى هذا الفصل الختامي لدراسة تراجع السوفيت عن مواصلة السياسة التي سبق أن انتهجوها في الحجاز. ومن اللافت للنظر أن مرحلة التراجع هذه كانت طويلة، فقد امتدت لست سنوات من عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٣٨، وكان الانحسار السوفيتي فيها بطيئًا وتدريجيًا. كما يلفت النظر أن الانحسار السوفيتي كان متزامنًا مع تراجع بريطانيا عن دعم وتأييد الملك عبد العزيز، وهكذا شهدت الفترة التي حددناها لهذا الفصل نهاية نفوذ القوتين المتنافستين في الحجاز، لحساب قوة ثالثة، هي الولايات المتحدة الأمريكية.

ولا شك في أن الملك عبد العزيز لم يكن مستريحًا لذلك التراجع الذي ظهر فجأة في علاقاته بالدولتين الكبيرتين، ورأى أن سياستهما الجديدة بشأن بلاده إنما هي انعكاس لعلاقات جديدة نشأت بينهما نتيجة لتغير موازين القوى في أوروبا. ويبدو أن البريطانيين كانوا محكومين بروح المكابرة التي أظهروها تجاه الملك

. كما أن السـوفيت اسـتنفدوا أسـاليبهم في التقرب إليه، فتراجعوا مكتفين بالنجاح الذي حققوه في اليمن في هذه المرحلة.

انحسار الدعاية السوفيتية:

رأى الملك عبد العزيزرأى أن ليس من الحصافة السياسية ترك الأمور تسير سـيرتها دون أن يكون لـه دور في توجيهها. فقرر العمل على وقف هذا الانحسـار، وإعـادة تنشـيط علاقـاته بكل من بريطانيا والإتحـاد السـوفيتي، إلى جـانب تقوية علاقـاته ببعض الدول الأوروبية الأخرى، عن طريق الاتصالات المباشرة،

وإرســال وفد برئاســة الأمير فيصــل بن عبد العزيز، نائب الملك في الحجاز ووزير الخارجية، لزيارة لندن وعدد من العواصــم الأوروبية، منها موســكو في الفترة من ٢٩ مايو إلى ٥ يونيه ١٩٣٢[٢٥٣].

ويعنينا من أمر رحلة الأمير فيصــل زيارته لموســكو. وهي الزيارة التي رحب بها السوفيت، واعتبروها إحدى علامات الصداقة التي تربط بين البلدين. وفي ٢٩ مايو ١٩٣٢ وصــل الوفد الســعودي إلى موســكو برئاســة الأمير فيصــل وعضــوية كل من: فؤاد حمزة (مساعد وزير الخارجية) وخالد الأيوبي (مساعد الأمير فيصل)

[٢٥٣] شملت رحلة الأمير فيصل هذه البلدان: بدأت بباريس في أول مايو ١٩٣٢، بعد إقامة قصيرة في جنيف. ثم زارت البعثة لندن في الفترة من ٧ إلى ١٦ مايو، وعرجت على هولندا في الفترة من ١٦ إلى ١٩ مايو، ثم قضت في برلين الفترة من ٢٠ إلى ٢٤ مايو، وعندئذ انتقلت إلى وارســو فقضــت فيها الفترة من ٢٥ إلى ٢٨ مايو.. وكانت المحطة التالية هي موسكو فقضت فيها البعثة السعودية في الفترة من ٢٩ مايو إلى ٥ يونيه. ثم عرجت البعثة على تركيا، حيث قضت الفترة من ٩ إلى ١٢ يونيه في اســتانبول، والفترة من ١٣ إلى ١٩ يونيه في أنقرة، والفترة ٢٠ إلى ٢٨ يونيه في جولة بالقرب من الحدود التركية الروسية، والتركية الإيرانية. ثم وصلت إلى طهران في أول يوليو وقضت بها أسبوعًا، ثم غادرتها إلى بغداد فوصلتها في ٨ يوليو، ومنها إلى الكويت في ١١ يوليو، ثم استقر المطاف بالبعثة في ١٨ يوليو. وهكذا قضت البعثة شهرين تقريبًا في جولة في معظم العواصم الأوروبية والإسلامية المهمة. انظر:

Jeddah Report, May + June., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٤; Jeddah Report, July + Aug., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٤.

وشـقير عثمان (سـكرتير الوفد). كان باسـتوخوف (رئيس القسـم الشـرقي في إدارة الشـــئون الخارجية) في اســـتقبال الوفد على الحدود الروســـية- البولندية، وبصحبته كريم حكيموف (الوزير السوفيتي السابق في الحجاز)[٢٥٤].

وفي موسكو عبر السوفيت عن ترحيبهم بالأمير فيصل بتزيين محطة وصوله باللافتات المكتوبة بالعربية، ولعل موسكو كانت البلد الوحيد الذي استقبل البعثة اســتقبالاً شــعبيًا. وعوملت زيارة الأمير فيصــل معاملة ضــيوف الدولة من الدرجة الثانية، وتأكيدًا على سياسة حسن الاستقبال السوفيتية،

---

[٢٥٤] Sir E. Ovey to Sir J. Simon, ٦. June, ١٩٣٢, E٢٨٨٦/١٤٩٤/٢٥, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٦; Felix Cole, Charge d' Affairs to Sec. of State, Washington, Cited in: Ibrahim Al – Rashid: **Documents of The History OF Saudi Arabia,** Vol. III, pp. ٢٢٠-٤.

استقبله الزعيم السوفيتي ميخائيل ايفانوفيتش كالينين (رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا ١٩١٩- ١٩٣٨) في نفس يوم وصوله، وفي المساء أعد نائب الشئون الخارجية حفل استقبال وعشاء على شرف الأمير فيصل، شارك فيه عدد من المسئولين السياسيين والعسكريين السوفيت، وأعضاء السلك الدبلوماسي، من بينهم السفير الإيراني[٢٥٥].

وقال كالينين في كلمة ترحيب بالضيف السعودي "... لقد اتسمت العلاقات بين بلدينا منذ سنوات بطابع ودي للغاية ... وإني إذ أحييكم بارتياح كبير في عاصمة الإتحاد السوفيتي فذلك لأن في شخصكم تتمثل حكومة الشعب العربي الذي استطاع ... بفضل سياسة قادته ..

---

[٢٥٥] Sir E. Ovey to Sir J. Simon, ٦. June, ١٩٣٢, **loc. cit.**; Jeddah Report, May + June., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٤.

. أن يفوز باستقلاله التام ... الذي يشكل مقدمة ضرورية لتطوير البلاد الاقتصادي والثقافي. إن حكومة وشعب الإتحاد السوفيتي يتابعان باهتمام بالغ التطور الناجح لسياسة الحكومة التي تمثلونها، والرامية إلى الدفاع عن الكيان المستقل للشعب العربي، وإلى توطيد رفاهيته الاقتصادية والثقافية ... ولا شك في أن قدومكم إلى الإتحاد السوفيتي سيخدم ... هذه الصداقة ..."[٢٥٦].

ولعل في كلمة كالينين تأكيد على عدة معاني هامة: أولها أن العلاقات بين البلدين كانت ودية، وثانيها أنه يقدر حرص الملك عبد العزيز على استقلال بلاده التام، وهذه موجهة ـ في الواقع ـ إلى بريطانيا، وثالثها أنه ربط بين استقلال المملكة العربية السعودية وتطويرها اقتصاديًا وثقافيًا، وفي هذا إشارة إلى أن الاستقلال لن يكتمل إلا بالتأكيد عليه، والابتعاد عن الغرب اقتصاديًا وثقافيًا،وهما مجالين رئيسين يمكن أن يعمل الإتحاد السوفيتي من خلالهما على كسب الأصدقاء

---

[٢٥٦] كلمة كالينين مقتبسة في: **مجلة البلاغ**، العدد ١٧٠، ١٤ أبريل ١٩٧٥، ص ٢٣.

، أوعلى الأقل حرمانهم من التعامل مع الغرب. وتصــريح كالينين بأن بلاده تتابع باهتمام بالغ تطور السياسة السعودية، إنما يؤكد على أن الإتحاد السوفيتي كان ما يزال حريصًا على توطيد أواصر علاقاته بالمملكة العربية السعودية، ولكن ذلك يعتمد أســاسًــا على مدى تجاوب الملك عبد العزيز من ناحية، وعلى مدى استعداده للتخلي عن بريطانيا من الناحية الأخرى. ولا شك في أن هذا الأمر قد لفت انتباه الأمير فيصل الذي التقط تصريح كالينين بمتابعة تطور السياسة السعودية، وعبر في كلمته عن تقديره لهذا الاهتمام حين قال: "أرجو أن تولنا (حكومتكم) في المستقبل اهتمامًا أكبر لما فيه خير بلدينا". وأكد الأمير على "أن هذه الزيارة ستسهم في تعزيز علاقاتنا"[٢٥٧].

[٢٥٧] كلمة فيصل مقتبسة في: في: **مجلة البلاغ**، العدد ١٧٠، ١٤ أبريل ١٩٧٥، ص ٢٣

وساهمت الصحف السوفيتية في إبراز مظاهر الحفاوة وحسن الاستقبال. فنشرت صحيفة "إزفستيا" مقالاً افتتاحيًا في ٢٩ مايو ١٩٣٢، أشارت فيه إلى تاريخ نشأة وتطور المملكة العربية السعودية، والخديعة البريطانية للعرب، وتقسيم شبه الجزيرة العربية. وهكذا استثمرت الصحيفة كل فرصة ممكنة للإساءة إلى بريطانيا. ولكنها بينت ـــ في الوقت نفسه أن للثورة الروسية نفوذًا في شبه الجزيرة العربية. وذكّرت الصحيفة قراءها بأن الإتحاد السوفيتي كان أول دولة تعترف بحكم الملك عبد العزيز في الحجاز. وأضافت أن ظهور دولة قومية كبرى مستقلة في شبه الجزيرة العربية له أهمية عالمية، لأنها مركز للاتصالات الدولية بحكم موقعها الجغرافي. وحرصت الصحيفة على أن تقتطف بعض ما كتبته الصحف الأوروبية حول المملكة العربية السعودية[٢٥٨]، لتبين حجم اهتمامها بها، وتقف على رؤية الغرب لها.

[٢٥٨] Felix Cole to Sec. of State, **Loc. Cit.**

وحملت صحيفة أخرى على النشاط الاستعماري الأوروبي في شبه الجزيرة العربية، وركزت على الآثار السلبية لذلك النشاط. ولم تغفل نشاط الأمريكيين واعتبرت أنه يسير في نفس سيرة الدول الأوروبية، وأشارت صراحة إلى نشاط كارل تويتشل. ونشرت صحيفة "موسكو ديلي نيوز" في عددها الأسبوعي مقالاً عن زيارة الوفد السعودي[٢٥٩]. وفيما عدا ما كتبته صحيفة "إزفستيا"، فقد كانت تعليقات الصحف جميعًا عامة. وكذا كانت طبيعة معظم الكلمات والأحاديث[٢٦٠]، وليس من المنتظر أن تكون غير ذلك في هذه المرحلة التي قد تمثل مراجعة حيوية ومؤثرة في مستقبل العلاقات.

---

[٢٥٩] **Ibid.**

[٢٦٠] Sir E. Ovey to Sir J. Simon, ٦. June, ١٩٣٢, **Loc. Cit.**

اطلع الوفد السعودي على كثير من المجالات والنشاطات في الإتحاد السوفيتي. فزار مركز الجيش الأحمر، ومعسكر أكتوبر، وأكاديمية الطيران العسكري، ومصنع السيارات. ثم زار لينينجراد في يومي ٣، ٤ يونيه. ومن أوديسا رحل الوفد السعودي إلى استانبول[٢٦١].

ويلاحظ من يفتش في وثائق الأرشيف البريطاني أن البريطانيين في الحجاز كانوا يتابعون عن قرب نشاط الوزير السوفيتي، وخاصة بعد زيارة بعثة الأمير فيصل لموسكو. ومن اللافت للنظر أن الوزير السوفيتي بدأ يبتعد عن الاتصال بزميله البريطاني الذي كان يبادله علاقات ودية ظاهرية. وأكثر من ذلك أن توراكولوف بدأ يرتدي الزي العربي، ويكرر زياراته في أوقات غير منتظمة إلى مكة، مما أثار شكوك البريطانيين حوله، ونما لديهم أنه كان يجري اتصالات ومفاوضات حول تقديم قرض سوفيتي لحكومة الحجاز مقابل تسهيلات تجارية[٢٦٢].

---

[٢٦١] Felix Cole to Sec. of State, **Loc. Cit.**

[٢٦٢] Jeddah Report, July + Aug., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٤.

ولكن المتتبع للتقارير البريطانية حول النشـاط الخفي للسـوفيت في الحجاز يرى أن أخبار تحركات توراكولوف تكاد تكون غـائبة عن الصــورة، وإذا ورد ذكرها فإن ذلك يتميز بالغموض، وخاصـــة في الفترة قيد الحديث. وقد تبين في أواخر عام ١٩٣٢ أن السـوفيت حريصـون أكثر من أي وقت مضـى على اسـترداد قيمة البنزين الذي ســبق أن زود بـه الحجـاز في عـام ١٩٣١[٢٦٣]. ثم تختفي بعـد ذلـك كل الأنبـاء المتعلقة بالعلاقات السـعودية ـــ السـوفيتية من التقارير البريطانية الصـادرة عن جدة[٢٦٤].

---

[٢٦٣] Jeddah Report, Sept. + Oct.., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٤.

[٢٦٤] Jeddah Report, Nov. + Dec., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥;

Jeddah Report, Jan., ١٩٣٣, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.

ويؤدي غياب إسهام الوثائق البريطانية في تلك الفترة إلى غموض غير متعمد في الصورة التي نحاول أن نرسمها لمرحلة الانحسار السوفيتي في السياسة الخارجية تجاه المملكة العربية السعودية. كما أن زيارة الأمير فيصل، التي كانت آخر محاولة لإنقاذ العلاقات السعودية ـ السوفيتية، قد مرت دون أن تترك آثارًا عملية ملموسة على العلاقات بين البلدين؛ فالوزير السوفيتي في جدة لم يبذل خلال تلك الفترة أو بعدها أي نشاط دبلوماسي ملحوظ.

ومع أن السوفيت كانوا حريصين على تطوير نشاطهم التجاري مع الحجاز، لم يكن الحظر المفروض على تجارتهم قد رُفع تمامًا. وهكذا بدت العلاقات السوفيتية ـ السعودية تجربة فريدة في نوعها لدى السوفيت، الذين كانوا في هذه الرحلة معنيين بالمجالين الاقتصادي والثقافي قبل أي شيء آخر، وما لم يتحقق لهم ذلك فلا معنى لعلاقاتهم الدبلوماسية، اللهم إلا من حيث الشكل.

ولكن التقارير البريطانية عادت فألقت بعض الضوء الخافت، الذي كشف عن أن الوزير السوفيتي في جدة توصل في شهر فبراير ١٩٣٣ إلى اتفاق مع الحكومة السعودية، يقضي برفع الحظر عن السلع السوفيتية رفعًا جزئيًا. ويبدو أن السوفيت استخدموا الديون المستحقة لهم على الملك للضغط عليه وصولاً إلى تحقيق هذه التسوية. ومع أن تجارة السوفيت تعتمد أساسًا على أصناف محددة مثل السكر والدقيق والبنزين والكبريت، إلا أن ذلك يؤثر تأثيرًا واضحًا على تجارة استراليا والهند، وهو ما لا تقبل به بريطانيا[٢٦٥]. فليس من المقبول إن تترك مراكزها التجارية تحت وطأة الضغوط السوفيتية، الساعية لتدمير تلك المراكز والحلول محلها. ولعل هذه كانت بمثابة تحذيرات للبريطانيين كي يبدوا أكثر مرونة. ولكنهم كانوا يعلمون جيدًا حقيقتين هامتين: الأولى أن السوفيت أمدوا الملك عبد العزيز في عام ١٩٣١ بما قيمته ثلاثمائة ألف جنيه من البنزين

---

[٢٦٥] Jeddah Report, Feb., ١٩٣٣, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.

ولم يتقاضوا شيئًا من ثمنها. والثانية أن الملك عبد العزيز ظل ـ على الرغم مما ذكرناه أعلاه ــ يستمع إلى نصح بريطانيا في منع السلع السوفيتية من دخول الحجاز، في الوقت الذي لم تقدم فيه بريطانيا للملك أية مساعدة بديلة لما يقدمه السوفيت. فإذا وضعنا هاتين الحقيقتين في الاعتبار لوجدنا تفسيرًا مناسبًا لسبب نجاح السوفيت في رفع الحظر المفروض على سلعهم في الحجاز رفعًا جزئيًا[٢٦٦].

ولا شك في أن تسوية الديون السوفيتية المستحقة على الملك عبد العزيز قد تمت بأسلوب مريح للغاية، وبمقتضاها تتنازل حكومة الحجاز ــ كليًا أو جزئيًا. عن الضرائب المفروضة على البضائع الواردة من الاتحاد السوفيتي، على أن تخصم النسبة المتنازل عنها من الديون المستحقة للسوفيت.

[٢٦٦] Ryan to Simon, ٢٨. Feb., ١٩٣٣, E١٤٨٨/١٢٢٥/٢٥, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.

حتى تباع السلع السوفيتية في الأسواق مباشرة وبأسعار مخفضة. ويبدو أن إدارة الحجاز استشارت التجار حول الأسلوب المقترح للتعامل مع البضائع السوفيتية، ولكن الصورة التي رسمتها الوثائق البريطانية لموقف التجار الحجازيين في هذا الموضوع ليست واضحة[٢٦٧]. ومن المؤكد أن هذه الخطوة السوفيتية، بقدر ما كانت تسعى إلى جذب التجار الحجازيين، إنما كانت تهدف في نفس الوقت إلى إغراق الأسواق الحجازية بالسلع السوفيتية وطرد السلع البريطانية منها.

[٢٦٧] Ibid.

واضح من تقارير جدة لعام ١٩٣٣ أن الغموض كان ما يزال يحيط بنشاط الوزير السوفيتي. ولم يجد سير أندرو ريان ما يكتبه إلى لندن حول هذا الموضوع سوى عبارة إن "الوزير السوفيتي يسعى لوضع الترتيبات الاقتصادية (لبلاده في الحجاز) على أسس ثابتة"[٢٦٨]، وأنه بدأ من جديد يتردد على مكة بشكل ملحوظ[٢٦٩].

واعتبارًا من منتصف عام ١٩٣٣ وعلى مدى العام التالي يمكن القول باطمئنان شديد أن العلاقات السياسية بين المملكة العربية السعودية والإتحاد السوفيتي كانت تبدو وكأنها غير قائمة، لعدم وجود تطور ملحوظ في العلاقات الاقتصادية والتجارية التي جرى الحديث حولها من قبل بين البلدين. ولكن من المؤكد أن توراكولوف كان يتردد على مكة بشكل منتظم، ويحاول أن يكسب ود بعض الشخصيات السعودية المهمة مثل عبد الله السليمان (وزير المالية)[٢٧٠].

---

٢٦٨ Jeddah Report, May, ١٩٣٣, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.

٢٦٩ Jeddah Report, June, ١٩٣٣, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.

٢٧٠ Ryan to Simon, ١٨. May, ١٩٣٥, Saudi Arabia Annual Report ١٩٣٤, E٣٦٠٧/٣٦٠٧/٢٥, F. O. ٣٧١/١٩٠١٩.

وخلال صيف وخريف عام ١٩٣٤ شغل توراكولوف نفسه بالتردد كثيرًا على الطائف للقيام بأعمال الترجمة لمجموعة مهندسين سوفيت جاءوا إلى الحجاز لتركيب هاتف أوتوماتيكي قدمته الحكومة السوفيتية هدية للملك[٢٧١]. وبالطبع استخدام مثل هذا الهاتف له علاقة بالأمن الداخلي الذي كان يشغل الملك عبد العزيز نظرًا لاتساع مملكته وترامي أطرافها.

لاحظ سير أندرو ريان أن الملك عبد العزيز بدأ يسمح لبعض العناصر من غير المسلمين بزيارة الطائف. وكانت إشارة ريان هذه المرة إلى زوجة توراكولوف غير المسلمة، التي اصطحبت زوجها في زياراته للطائف،

[٢٧١] Ibid.

وكانت ترتدي ـ على غير رغبة منها ـ الزي العربي، وتزور حريم الملك بتوجيه من زوجها، الذي كان يسعى للتقرب أكثر وأكثر إلى الملك عبد العزيز. ويقلل ريان من أهمية هذا الأسلوب في المجال السياسي حين يقول "ليس لهذه الزيارات دلالة على مستوى العلاقات السعودية ــ السوفيتية". وقد يكون تعيين اثنين من الطيارين السوفيت للعمل في سلاح الجو السعودي أمرًا بغير دلالة سياسية كذلك، خاصة وأنهما عملا من قبل في خدمة الملك حسين في الحجاز[٢٧٢].

---

٢٧٢ **Ibid.**

وفي مطلع عـام ١٩٣٥ زار جيرتك (وكيـل عـام التجـارة الســوفيتيـة) البعثـة الســوفيتية بجدة، ولا شــك في أن ذلك أســعد أعضــاء البعثة، الذين لم يتجاوز عددهم الأربعة، هم الوزير، ونائب القنصل، وطبيبان. وكان هؤلاء الأربعة يعيشـون معًـا بزوجـاتهم في بيـت واحـد. ويؤكـد ريـان على هـذا الواقع الاجتمـاعي للبعثـة الســوفيتيـة حين يقـول "إن الزوجـات كن يتبـادلن الخـدمـة المنزليـة بـالتنـاوب"[٢٧٣]. وعلينا أن نتصــور طبيعة النشــاط الســياســي والاقتصــادي والدعائي لبعثه هذا حجمها.

لم تـدم إقـامـة جيرتك في جـدة طويلاً، فقـد رحـل إلى اســتـانبول، مقر عمله الأســاســي، في ١٠ فبراير ١٩٣٥، ونفي جيرتك لدى مغادرته جدة أن تكون اهتماماته ســياســية، كما نفى أن تكون اهتماماته التجارية شـخصــية[٢٧٤]. ومع ذلك فقد كان الجهد السوفيتي في مجمله ضعيفًا.

---

[٢٧٣] Jeddah Report, Jan., ١٩٣٥, F. O. ٣٧١/١٩٠١٤.

[٢٧٤] Jeddah Report, Feb., ١٩٣٥, F. O. ٣٧١/١٠٠١٤.

وفي الجانب الآخر كانت هناك مؤشـــرات واضــحة على أن المملكة العربية السـعودية قد اتخذت خطوات لها دلالتها السـلبية على العلاقات مع الاتحاد السوفيتي. ذلك أنه في شهر فبراير ١٩٣٥ بدأت المملكة الترتيب لزيارة ودية يقوم بها الأمير سعود بن عبد العزيز، ولي العهد لبعض العواصم الأوروبية والعربية. لم تكن موسكو واحدة منها. وعلى خلاف ما جرى في زيارة الأمير فيصل السابقة الذكر في عام ١٩٣٢، اقتصرت زيارة الأمير سعود على إيطاليا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وبريطانيا وفلسطين وتركيا وسوريا والعراق وشرق الأردن ومصر، وذلك خلال الفترة من مايو إلى أغسطس ١٩٣٥[٢٧٥].

[٢٧٥] Jeddah Reports, may, June, July, and Aug١٩٣٥., F. O. ٣٧١/١٩٠١٤.

وفي عام ١٩٣٦ عاد كريم حكيموف ليشغل ذات المنصب الذي تركه من قبل، وزيرًا لبلاده في جدة، ولكن عودته لم تسفر عن أي آثار إيجابية على العلاقات السعودية ـــ السوفيتية. ولاحظ سير ريدر بولارد، الوزير البريطاني في جدة، أن حكيموف الذي لن يتردد في السابق في تحدي البريطانيين، "لا يبدي أي نشاط الآن"[٢٧٦]. ولعل تطور الأوضاع السياسية في أوروبا هي التي خففت من مواصلة السوفيت عداوتهم للبريطانيين مؤقتًا، فقد كانت النازية والفاشية تعملان بنشاط ضد بريطانيا والإتحاد السوفيتي، مما ساعد على التئام كثير من الجروح في العلاقات بين البلدين في هذه المرحلة الحرجة.

[٢٧٦] Sir R. W. Bullard to Mr. Eden, ٢٨. Feb., ١٩٣٧, Saudi Arabia Annual Report, ١٩٣٦, E١٦٣٧/١٦٣٧/٢٥, F. O. ٣٧١/٢٠٨٤٣.

وأدى انشغال السوفيت عن الحجاز إلى انهيار واضح في نشاطهم التجاري، الذي سعوا إلى تأسيس قواعد ثابتة له في شبه الجزيرة العربية في العشرينيات. يقول بولارد "إن التجارة والمصالح السوفيتية في الحجاز قد خبت ولم يعد لها وجود. وفي حديث جرى بين بولارد وحكيموف في جدة مع نهاية عام ١٩٣٦ اعترف حكيموف بأن "الحكومة السوفيتية لم يكن لها مصالح مع المملكة العربية السعودية أو اليمن، ولحسن الحظ فإن أسواق هذين البلدين صغيرة لا تتناسب وحجم المصالح الضخمة والتجارة الواسعة للإتحاد السوفيتي". وهكذا شغل حكيموف نفسه في هذه الفترة بمحاولة استرداد مبلغ ثلاثين ألف جنيه إسترليني ثمن البنزين الذي اشترته حكومة الحجاز من الإتحاد السوفيتي في عام ١٩٣٠[٢٧٧]. وقد نجح حكيموف خلال العام التالي (١٩٣٧) في ترتيب إمكانية تسديد هذا الدين على أقساط شهرية على مدى عام كامل عن طريق بنك مصر[٢٧٨].

---

[٢٧٧] Ibid.

[٢٧٨] Sir R. W. Bullard to Viscount Halifax, ٢٦. March, ١٩٣٨, Saudi Arabia Annual Report, ١٩٣٧, E٢٣٣٨/٢٣٣٨/٢٥, F. O. ٣٧١/٢١٩٠٨.

أما المفوضـــية الســـوفيتية التي كانت شـــبه مغلقة، فقد بدت وكأنها بغير نشـاط تمارســه[٢٧٩]. وفي عام ١٩٣٨ وصـل السـوفيت إلى قناعة كاملة بأنه لا جدوى من استمرارعلاقاتهم مع المملكة العربية السعودية فسحبوا بعثتهم الدبلوماسية من جدة[٢٨٠]. وبذلك جمدت العلاقات بين البلدين.

[٢٧٩] **Ibid.**

[٢٨٠] فتحي عثمان: "العلاقات العربية السوفيتية بين المبادئ والمصالح، ١٩٤٥- ١٩٧٣"، **مجلة السياسة الدولية**، العدد ٨١ (يوليو ١٩٨٥).

البحث عن أصدقاء جدد:

رأينا كيف كُتب للعلاقات السعودية السوفيتية ألا تستمر، بسبب الخلاف الذهني (الأيديولوجي) بين الإسلام والشيوعية. ولأسباب أخرى سياسية واقتصادية. قدر للعلاقات السعودية ــ البريطانية أن تتدهور خلال الثلاثينيات، فقد كانت في الواقع علاقة خصام غير معلن، أو كما يسميها حافظ وهبة "علاقة تباعد خلال السنوات الست ١٩٣٣- ١٩٣٨". فكل مطالب الملك عبد العزيز من بريطانيا كانت تواجه بالرفض، وأحيانًا بالضغط، مما جعله ينصرف عنها بحثًا عن صداقات جديدة أكثر نفعًا. فكان أمامه الألمان الحذرون، والإيطاليون الذين يحسبون للإنجليز ألف حساب، والهولنديون والبولنديون وغيرهم، وبخاصة الأمريكيون الذين كسبوا الجولة النهائية في التنافس الدولي حول النفوذ في المملكة العربية السعودية.

وقد كتب لهذه العلاقات أن تتواصل وتتفوق تفوقًا كاسحًا لا تزال أثاره قائمة إلى اليوم[281].

كان فؤاد حمزة وراء محاولات إفساد العلاقات البريطانية ـ السعودية، لأنه كان يميل نحو موسليني، ويظهر ذلك واضحًا من زياراته المتكررة لإيطاليا. ويتأكد من حكايات بعض الإيطاليين الذين زاروا المملكة العربية السعودية ووقفوا على أن موسليني يتمتع هناك بما يتمتع به من نفوذ داخل إيطاليا نفسها. ولا شك في أن هذا الأمر مبالغ فيه إلى حد كبير، ولكن يبقى أن له دلالة في التعبير عن التوجهات الجديدة للملك عبد العزيز. ومهما يكن من أمر، فلم يكن فؤاد حمزة يفعل شيئًا بغير رضى الملك وموافقته، وقد اتهمه الإنجليز بتقاضي رشاوى من الإيطاليين ليعمل على تحسين علاقاتهم مع الملك عبد العزيز

---

[281] حول مراحل تطور العلاقات الأمريكية ــ السعودية، انظر: جمال محمود حجر: **المصالح الأمريكية في العراق وغرب الخليج العربي فيما بين الحربين العالميتين**، (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٥)، الفصل السابع؛ جمال محمود حجر: **القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين**، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩)، الفصل الرابع.

، وهذا الاتهام في حد ذاته تأكيد على وجود جانب من الصـــدق في أقوال حافظ وهبة. وقد اشــتم الإنجليزرائحة أفكار الإيطاليين، فأخذوا من حمزة موقفًا مضـادًا، واعتبروه معاديًا للسـياسـة البريطانية، ولم يسـمحوا له بزيارة فلسـطين، حتى أن مجرد وجوده في خدمة الملك عبد العزيز صـار خطرًا على اسـتمرار العلاقات البريطانية ــ السـعودية. ويفسـر تعيين فؤاد حمزة وزيرًا مفوضًـا للمملكة العربية السعودية في باريس على أنه إرضاء لبريطانيا[٢٨٢].

أما عن العلاقات السعودية ـ البولندية، ففي الوقت الذي وصل فيه ريان إلى جدة بصـفته أول وزير بريطاني مفوض، وصـلت كذلك إليها بعثة بولندية بقيادة الكونت إدوارد ريزينســكي Edward Raezynsky الذي صـحبته زوجته الإنجليزية والدكتور سينكيفتز Sinkievicz رئيس الجماعة الإسلامية في بولندا.

[٢٨٢] حافظ وهبة: خمسون عامًا في جزيرة العرب، ص ١٠٥-١٠٧.

وكان هدف البعثة إحاطة الملك عبد العزيز باعتراف بولندا الرسمي به، وتأسيس علاقات معه، وعقد اتفاق تجاري بين البلدين. وقد تكلم الوفد ــ طبقًا لما أوردته التقارير البريطانية، "بلغة يفهم منها أن الملك ابن سعود له سمعة طيبة بين مسلمي بولندا، وهو أكثر الملوك خدمة للدين الإسلامي، وأعظم مدافع عن الإسلام". "The Most Pious King and Greatest Defender of Religion" وقارن الوفد بين البولنديين والعرب فوصفهم بالبطولة وحب الحرية. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الخطوة تمت ولم يكن بالحجاز سوى بولندي واحد، يعمل سائقًا للأمير فيصل، وقد أشهر إسلامه وصار يتردد على مكة[٢٨٣].

---

[٢٨٣] Jeddah Report, May, ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠.

وقد حرصت بولندا على تطوير علاقاتها بسرعة مع الملك عبد العزيز، الذي أرسل بعثة لشراء أسلحة بولندية، وما أن كان شهر أغسطس ١٩٣٠ حتى عادت البعثة السعودية وبصحبتها الأسلحة المطلوبة وطاقم بولندي للتدريب والصيانة[٢٨٤].

أما هولندا فقد كانت العلاقات معها أقوى وأعمق، وذلك لما كان لها من إسهامات واتصالات قوية مع الملك عبد العزيز في مختلف المجالات، وبخاصة النواحي المالية والاقتصادية، وشئون الحجاج، وقد لعب البنك الهولندي دورًا لا بأس به في إنقاذ اقتصاد الحجاز من آثار الأزمة المالية الطاحنة في مطلع الثلاثينيات، وهو دور لم يلعبه أي بنك آخر[٢٨٥]. وفي مايو ١٩٣٠

[٢٨٤] Jeddah Report, July, and Aug., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠; Jeddah Report, Sept., Oct., and Nov., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩.

[٢٨٥] أنظر: جمال محمود حجر: **السعوديون والأزمة المالية في الحجاز ١٩٢٩-١٩٣٣**.

رفعت بولندا مســتوى التمثيل الدبلوماســي لها في الحجاز إلى مســتوى المفوضية. وهكذا صار بالحجاز ست مفوضيات تخص الاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا وهولندا وتركيا وفارس، فضلاً عن قنصلية إيطاليا، وقنصلية مصر[٢٨٦].

أما الألمان فقد نجحوا في عقد معاهدة صــداقة مع الملك عبد العزيز في ٢٦ أبريل ١٩٢٩، بهدف توطيد أواصر السلام والصداقة بين البلدين (مادة ١)، وتسعى إلى إقامة علاقات دبلوماسية وقنصلية (مادة ٢)، ويعامل مواطنو البلدين وتجارتهم معاملة أبناء الدولة الأَوْلى بالرعاية (مادة ٣)، ويطبق مبدأ الدولة الأَوْلى بالرعاية كذلك على كل المنتجات المســتخرجة من باطن الأرض، والمنتجات المصــنعة لكلا البلدين (مادة ٤)[٢٨٧].

---

[٢٨٦] Jeddah Report, May, ١٩٣٠, **Loc. Cit.**

[٢٨٧] Jeddah Report, Aug., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.

وقد أحدثت هذه المعاهدة صـدى واسـعًا لدى الإنجليز الذين رأوا أن الملك عبد العزيز قد أخذ يضـرب في كل اتجاه، منهيًا حالة التميز التي ظل يتمتع بها البريطانيون في بلاده لوقت غير قصـير بإدارته هو، ولكنه أيقن الآن أن رهانه عليهم كان خاسـرًا. ومهما يكن من أمر، فقد كان الألمان يتحركون بسـرعة للحصـول على امتياز بترولي طبقًا للمعاهدة التي بدأوا العمل بها اعتبارًا من ٦ نوفمبر ١٩٣٠. وكان شاب ألماني يتحدث الإنجليزية بطلاقة، قد وصل إلى جدة في ٥ أكتوبر بهدف دراسة العلاقات الاقتصـادية الألمانية ـــ السـعودية، وكانت المصـالح الألمانية حتى ذلك الوقت متروكة في أيدي الهولنديين لإدارتها بطريقة ودية[٢٨٨].

[٢٨٨] Jeddah Report, Sept., Oct., and Nov., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩.

ولكن المصادر التاريخية والوثائق الألمانية فضلاً عن تطور الأحداث، تؤكد جميعًا على أن العلاقات الألمانية ــ السعودية لم تتطور كما كان مقررًا لها. ويرجع ذلك إلى مجموعة من العوامل المركبة يتصل بعضها بالمملكة العربية السعودية، ويتصل البعض الآخر بالتطورات السياسية في ألمانيا، التي لم تَنمُ سياستها الخارجية خلال السنوات الخمس الأولى من الثلاثينيات بشكل إيجابي، هذا فضلاً عن التأثيرات الدولية التي أسفرت عنها الأزمة المالية العالمية. ولكن في عام ١٩٣٧ بدأ حوار بين الطرفين لتطوير التمثيل الدبلوماسي وتبادله. فقد كانت المملكة العربية السعودية قد ضاقت ذرعًا بعملية التحجيم البريطاني لدورها كقوة فتية مستقلة، راغبة دائمًا في أن تكون لها صداقات مع دول كبرى غير بريطانية[٢٨٩].

[٢٨٩] نظام العبوس: "العلاقات الألمانية السعودية بين أعوام ١٩٣٣ – ١٩٤٥ في ضوء الوثائق الألمانية"، في كتاب: **دراسات عن تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية**، (مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، شعبة دراسات العلوم الاجتماعية، ١٩٨٥)، ص ١٩٩-٢١٨. انظر أيضًا:

Mejcher, H., "Saudi – Arabia's Relationship with Germany Under King Abd Al-Aziz"

مجلة الدارة، العدد٣، السنة ١٢ (١٩٨٦).

وفي الفترة من ١٢ إلى ١٨ فبراير ١٩٣٩ قام جروبا Fritz Grobba، المبعوث والمفوض الألماني في بغداد، بزيارة إلى جدة، كتب عنها تقريرًا غاية في الأهمية، لأنه يصحح كثيرًا من المفاهيم المنتشرة والخاطئة بشأن العلاقات السعودية.البريطانية، ولعل أهم ما جاء فيه:

"إن التصور العام وخاصة عند العرب حول كون ابن سعود صديقًا لإنجلترا وأداة بيدها هو تصور خاطئ. إنه (الملك عبد العزيز) يشعر بأنه مُحَجم ومقهور أمام إنجلترا، ولديه الرغبة في أن يتحرر منها، وحسبما تسمح ظروفه. فهو بذكائه يظهر صداقته لإنجلترا، ولكنه في واقع الأمر يكرهها من أعماق قلبه، ويلبي رغباتها في إدارته ..."[٢٩٠].

[٢٩٠] مقتبس في: نظام العبوس: **مرجع سابق**، ص ٢١٢.

ويضـيف التقرير إن الأهداف الألمانية صـارت تتفق والأهداف السـعودية تجاه بريطانيا. "فهدف العالم العربي وخاصـة العربية السـعودية هو المحافظة على وحدتها واستقلالها. ولا تستطيع العربية السعودية أو الدول العربية الأخرى تحقيق هذا الهدف إلا بمسـاعدة أجنبية. ولذا تتوجه العربية السـعودية بالرجاء إلى ألمانيا لدعمها معنويًا حين تتعرض لضغط أجنبي. ودعمها ماديًا عن طريق إرسال أسلحة بأثمان رخيصة وبشروط دفع مناسبة ...".

لقد كان الألمان يضـعون أمامهم دائمًا الأهمية الجغرافية والإسـتراتيجية لموقع المملكة العربية السـعودية، فضـلاً عن أهميتها السـياسـية والاقتصـادية. "والعربية السعودية مستعدة لأن تعطينا الأولوية كمصدرين لها"، ومع ذلك ينصح التقرير بأن تكون جميع المحادثات بين ألمانيا والسـعودية محادثات شـفوية، حتى لا تندفع بريطانيا للانتقام من الملك عبد العزيز لتخليه عنها[٢٩١].

---

[٢٩١] مقتبس في: **المرجع السابق**، ص ٢١٤، ٢١٥.

وفي ٢٧ مارس ١٩٣٩ كتب الملك عبد العزيز إلى هتلر يؤكد حرصه على توطيد العلاقات بين بلديهما. يقول الملك في رسالته "... ونحب أن تتأكدوا فخامتكم (هتلر) أن من أعز أمانينا أن نجد علائق الود والصداقة تنمو إلى أقصى حد مع حكومة الرايخ الألماني ... لإنجاز بعض الأبحاث والشئون الإقتصادية التي كان قد جرى البحث فيها مع مندوب فخامتكم ..."[٢٩٢]. ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية وإعادة تنشيط الدبلوماسية البريطانية، جعل الملك عبد العزيز يراهن من جديد على "الأسد البريطاني"، بل إنه كان من العسير على الملك في ظروف الحرب أن يختار الوقوف مع غير بريطانيا، التي يمكنها من مواقع كثيرة محيطة به أن "تهدر" استقلاله. ولذلك نراه يعود ويسترضي بريطانيا، فيبعد فؤاد حمزة عن وزارة الخارجية إلى باريس في عام ١٩٣٩ بحجة أنه أفسد علاقات البلدين،

---

[٢٩٢] مقتبس في: **المرجع السابق**، ص ٢١٦.

كما سبق أن أِشرنا. وفي العام التالي ينقل حافظ وهبة من لندن، لأنه عكر على الملك سياسة بريطانيا تجاهه، حتى صار جميع ما كان يطلبه الملك من المندوب البريطاني يقابل بالاعتذار[٢٩٣].

خلاصة :

يتضح من العرض السابق أن العلاقات البريطانية .السعودية قد تدهورت، حتى راح الملك يبحث عن أصدقاء جدد في كل مكان مستغنيًا بهم عن بريطانيا. وقد لاحظ إسماعيل الغزنوي حقيقة التدهور الذي لحق بالعلاقات البريطانية . السعودية، نتيجة للدور الخفي الذي لعبه أندرو ريان (الوزير البريطاني في جدة) في محاولة هدم كيان تلك المملكة الفتية.

[٢٩٣] حافظ وهبة: خمسون عامًا في جزيرة العرب، ص ١٠٧.

وكان الغزنوي قد أعد مقالاً للنشر في الهند، أثناء موسم الحج لعام ١٩٣٣، واستطاع ريان نفسه أن يحصل على نسخة منه بطريقة سرية، ثم بعث بملخصه إلى وزير الخارجية البريطاني في لندن. وفيما يتعلق بهذه الدراسة فلعل أهم ما في المقال المذكور: أن بريطانيا كانت تلعب من خلال ريان دورًا يهدف إلى إضعاف نفوذ الملك عبد العزيز المتنامي، وهو شبيه بالدور الذي لعبه ريان في استانبول خلال الفترة التي عمل فيها ممثلاً دبلوماسيًا لبلاده.

ويعجب إسماعيل الغزنوي لاختيار بريطانيا لرجل مثل ريان الذي "أرسلته حكومته إلى مكان توصف الحياة فيه بأي شيء إلا أن تكون مريحة، حيث تحرق الشمس في غير الظل، وحيث يقل عدد الأوروبيين جدًا، وحيث لا تزيد مظاهر الحياة الاجتماعية عن صفر. إلا أن يكون قد ذهب لتحقيق هدف معين ذو أهمية خاصة، لكونه الوحيد الذي يستطيع بما لديه من خبرة سابقة أن يفعله ...

لقد ذهب ريان إلى جدة ليكون بالقرب من مكة، فينظم هناك مركزًا للدعاية ضد حكومة ابن سعود، ولعله يعمل لأجل هذه المهمة منذ وطئت قدماه أرض الحجاز، إنه يحاول أن ينشر بين الحجاج عدم الثقة في ابن سعود"[٢٩٤].

ترى هل كانت بريطانيا تسعى حقًا ــ بطريقة خفية ــ إلى تدمير الملك عبد العزيز كما سبق أن دمرت الشريف حسين؟!! إنه لسؤال يستحق التأمل.

---

[٢٩٤] Conclusion of Article Written by Ismail Ghuznavi During ١٩٣٢ Pilgrimage Season for Publication in India,

Ryan's Private Papers VI/٨, St. Antony's College, Oxford University.

الخاتمة

لم يكن التنافس البريطاني - السوفيتي وليد الثورة الروسية في عام ١٩١٧، وإنما هو وليد إرث مبني على خلفيات دينية وجيوبولوتيكية، غذته الثورة الروسية بأسباب ودوافع أيديولوجية جديدة. فقد بنت روسيا القيصرية إمبراطوريتها في آسيا بطريق الضم والدمج، وشكلت أجزاؤها كيانًا متصلاً من الأرض أكسب الإمبراطورية عمقًا استراتيجيًا وقوة اقتصادية وبشرية وسياسية.

ولكن جهود الروس هذه اصطدمت بطموحات البريطانيين الذين سعوا إلى تكوين إمبراطوريتهم في آسيا بطريق الضم دون الدمج. ومع أن قوة الإمبراطورية الروسية كانت أقل شأنًا من قوة الإمبراطورية البريطانية، إلا أن قدرة الروس على مواصلة سياستهم في تحدي بريطانيا كانت كبيرة، واتسمت بالمثابرة.

وهكذا ورث السوفيت عن روسيا القيصرية عداوة مريرة لبريطانيا، فواصلوا سياستهم تجاهها بدأب ومثابرة كما كان يفعل أسلافهم. ولكن قدرة السوفيت على مواجهة بريطانيا عسكريًا كانت أقل شأنًا من قدرة أسلافهم، فلجأوا إلى استخدام أساليب غير مباشرة في تحدي الوجود البريطاني في الشرق عن طريق مساندة الحركات الوطنية، والحركات القومية، والحركات الإسلامية، المعادية للاستعمار البريطاني. ومع أن الأفكار الشيوعية تصطدم صراحة مع الأفكار القومية والإسلامية، إلا أن السوفيت لم يجدوا بأسًا في مناصرة هذه الحركات مرحليًا طالما أنها كانت معادية "للإمبريالية"، اعتقادًا منهم أنها ستكون بالضرورة معادية "للرأسمالية". وهكذا كانت مساندة هذه الحركات وسيلة إلى غايتين، الأولى ضرب الإمبريالية

، والثانية ضرب الرأسمالية. مما أدى إلى أن يعتقد بعض الكتاب الغربيين أن السياسة السوفيتية مبنية على أساس اقتناص الفرص، واستغلال الظروف، والاستفادة من أخطاء الغير، أكثر من اعتمادها على أي شيء آخر.

ومن المنطلقات السابقة دخل العالم الإسلامي في دائرة التخطيط الإستراتيجي السوفيتي منذ اليوم الأول للثورة. فقد كان للمسلمين الروس دور ريادي في إسقاط الحكم القيصري، ودو إيجابي في مساندة الثورة. ولم يشأ السوفيت إلا أن يتركوا مثل هذه العناصر الإسلامية النشطة تلعب أدوارًا أخرى في العالم الإسلامي لصالح الثورة الروسية، فتبني الروس الدعوة إلى وحدة الشرق لما فيها من مظهر براق أمام المسلمين، ولما لها من نتائج سلبية على الإمبريالية العالمية متمثلة في بريطانيا، وخاصة في مناطق الضعف البريطاني في الشرق.

وهكذا يمكن فهم محاولات السوفيت المتكررة والدؤوبة للتقرب إلى الملك عبد العزيز آل سعود. فقد كشفت هذه الدراسة عن أن صداقة الملك لم تكن مطلبًا سوفيتيًا، ولا كانت بلاده المترامية الأطراف هدفًا للسياسة السوفيتية، وإنما كانت مكة على وجه الخصوص دون غيرها هي الهدف. فمنها في موسم الحج السنوي يمكن للسوفيت من خلال الحجاج الروس أن يخاطبوا المسلمين جميعًا ويؤلبونهم ضد الاستعمار البريطاني. وقد نجحت هذه المحاولات خلال السنوات العشر الأولى للثورة، حين كان موقف السوفيت من المسلمين الروس موقفًا مرنًا، وحين كان التجاوب مع السوفيت في العالم الإسلامي أكثر وضوحًا.

وقد حاول الملك عبد العزيز أن يستثمر روح التنافس الجديدة بين السوفيت والبريطانيين لصالحه، فاتهمه بعض الكتاب بأنه كان كالسوفيت نهازا للفرص. والواقع أن عبد العزيز ما كان يسعى لتوثيق علاقاته مع السوفيت، وهناك أدلة كثيرة أوردناها تؤكد على هذا المعنى، ولكنه كان حريصًا كل الحرص على توثيق علاقاته ببريطانيا مستخدمًا "ورقة السوفيت"

. وحين يئس السوفيت من استقطاب عبد العزيز أعطوه ظهورهم وولوا وجوههم شطر اليمن، ووثقوا علاقاتهم مع الإمام، ولكن ذلك كان يتم في إطار من التنافس الدولي في البحر الأحمر، ولذلك لم يكتب لهذه العلاقة أن تدوم طويلاً. فقد تولى الإيطاليون مهمة إنهائها.

أما البريطانيون فقد كانوا أكثر هدوءًا تجاه ما يجري في الحجاز، واثقين من أن البلاد الإسلامية المقدسة محصنة حصانة طبيعية ضد الشيوعية، وبالتالي ضد النفوذ السوفيتي. وهذا يفسر لنا أسباب غياب صِدَام بريطاني ــ سوفيتي في شبه الجزيرة العربية. كما يفسر أسباب تراجع السوفيت عن الحجاز ببطء شديد ودون إعلان من أي من الطرفين. وتركت العلاقات السعودية ــ السوفيتية في العراء بغير حماية من طرفيها، فقد كشف الشيوعيون منذ عام ١٩٢٨ عن حقيقة نواياهم تجاه المسلمين والإسلام، وأدرك عبد العزيز استحالة التعامل مع أناس ليسوا أهل كتاب.

ومن جهة أخرى ساعدت الظروف الدولية على إحداث تقارب بريطاني ـ سوفيتي، وعلى هدوء حدة التنافس بينهما، وتصادف ذلك مع انصراف عبد العزيز عن السوفيت، وما أن جاء عام ١٩٣٨ إلا وكانت العلاقات السعودية ــ السوفيتية بغير نبض. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية سعى السوفيت إلى إعادة الحياة إلى تلك العلاقات دون جدوى.

لقد كان البريطانيون مترددين أول الأمر في التعامل المباشر مع الدعاية السوفيتية في الشرق الإسلامي انطلاقًا من الحجاز، بحجة أن الإسلام قادر على صد الدعوة إلى الشيوعية دون تدخل من بريطانيا. وفي الحرب العالمية الثانية شغل كل من الروس والبريطانيون بالصراع مع النازية والفاشستية في أوروبا، وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى أفاق البريطانيون على ضرورة التصدي للمد الشيوعي في الشرق من خلال وضع خطة تتضمن إجراءات مضادة للدعاية السوفيتية، التي تعد الأسلوب الأمثل للوصول إلى قلب الشرق الإسلامي،

وهو الأسـلوب الذي يتفوق على أسـاليب الاتصـال المباشـر، التي قد تثير الشـكوك حول طبيعة النشـاط السـوفيتي، خاصـة وأنه قد أصـبح من المؤكد أن السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط قد أخذت تعمل بانتظام من أجل إجهاض النفوذ البريطاني والنفوذ الأمريكي في المنطقة، وزيادة النفوذ السـوفيتي الفعلي، مع التأكيد على تطور الشيوعية.

فقد صار جليًا للبريطانيين أن السوفيت استخدموا وسائل دعائية ضدهم، أصبحت أكثر وضوحًا بعد الحرب العالمية الثانية، ولعل أهم هذه الوسائل:

أ- تكوين الأحزاب الشيوعية في البلدان الإسلامية.

ب- تكوين جمعيات في البلدان الإسلامية لتأسيس علاقات ثقافية مع الإتحاد السوفيتي.

ت- تكوين أحزاب سياسية يسارية، والتداخل في اتحادات العمال والمنظمات الثقافية التي تساعد الشيوعيين في الوصول إلى أهدافهم.

ث- المشاركة في إصدار الصحف والدوريات سواء أكانت تحت الإشراف الشيوعي المباشر، أم كانت متعاطفة مع الفكر الشيوعي.

ج- توظيف الإذاعة السوفيتية والنشرات الخاصة المعدة للتوزيع في خارج الإتحاد السوفيتي في نشر الأفكار الشيوعية.

ح- توظيف العناصر السوفيتية المسافرة والمهاجرة، فضلاً عن رجال الدين في نشر الدعاية للأفكار الشيوعية.

وفي سبيل تحقيق أهدافهم في منطقة الشرق الأوسط وظف السوفيت أفكارًا تلقى القبول لدى سكان المنطقة على النحو التالي:

أولا: ركز السوفيت على إثارة الروح القومية ضد بريطانيا باستخدام الوسائل التالية: التأكيد على أن بريطانيا دولة استعمارية، تستنزف موارد الشرق الأوسط لمصالحها الخاصة، وتعتزم الإبقاء على المنطقة العربية تحت الوصاية، ولا تعترف لها بالحقوق السيادية، وتتدخل في شئونها الداخلية. وأن منح الهند استقلالها على سبيل المثال ليس أكثر من ذر للرماد في العيون.

ثانيا: استخدم السوفيت وسائل مماثلة لضرب المصالح الأمريكية في المنطقة، باعتبار أن استخدام الغرب لهذه المنطقة إنما هو موجه ضد السوفيت، كالاستعباد الأمريكي للاقتصاد التركي Economic Enslavement، والاتجاه الأمريكي نحو الأستحواز على موارد البترول في الشرق الأوسط والاحتكار الأمريكي للنشاط التجاري في المنطقة.

ثالثا: استثمر السوفيت كافة الفرص للإيقاع بين البريطانيين والأمريكيين، فضلاً عن سعيهم الدائم لتلويث سمعة الولايات المتحدة عن طريق إثارة موضوعات مثل المحاكمات غير القانونية، وقضايا الزنوج، والبطالة، وغيرها.

رابعا: في مقابل ذلك كله تعرض الدعاية السوفيتية في الشرق الأوسط كافة الشئون الداخلية السوفيتية، والسياسة الخارجية السوفيتية على أحسن صورها، وأكثر من ذلك أنها تصور الحياة السوفيتية على أنها ديمقراطية سعيدة حرة مريحة ومضيئة، وتحكم في مجتمع مثالي. وفي السياسة الخارجية تظهر الحكومة السوفيتية نفسها على أنها بطلة السلام والديمقراطية والتعاون الدولي، وأنها القوة الوحيدة المدافعة عن حقوق السيادة للدول الصغرى، وأنها المعارض الوحيد القادر على الوقوف ضد الاستعمار والرجعية، بل إنها الصديق الوحيد الذي تعتمد عليه حركات التحرر في البلدان الخاضعة للاستعمار والسيطرة.

وعلى ضوء العرض السابق لإستراتيجية الدعاية السوفيتية في الشرق الإسلامي، وبصفتها زعيمة للعالم الغربي، وباعتبارها أكبر دولة إسلامية، إنطلاقا من أنها تحكم عددا كبيرا من المستعمرات التي يقطنها مسلمون، اتخذت بريطانيا مجموعة من الإجراءات المضادة، تعتمد بالدرجة الأولى على كشف وتفنيد وسائل وحجج الدعاية السوفيتية.

لقد نجح السوفيت في كسب ود كثير من الشعوب الإسلامية، وناصروا كثيرًا من حركات التحرر ضد الاستعمار الغربي، ولكن بريطانيا التي هزمت في كثير من مناطق الشرق الإسلامي، لم تكن لتغفر للسوفيت فعلتهم، فاحتدت الحرب الباردة التي قادتها بريطانيا ثم الولايات المتحدة ضد السوفيت، حتى أسلم الاتحاد السوفيتي الروح في مطلع التسعينيات، واختفت ملامح الحرب الباردة، وانتهى ما يعرف ب "توازن القوى"، وحل محله "احتكار الغرب للقوة"، ولم يعد الشرق الإسلامي مطلبًا بذاته، وإنما أصبحت هناك أسس جديدة للسياسة الدولية لا تعتمد على الدعاية، وإنما تعتمد على المصالح.

المصادر والمراجع

وثائق غير منشورة

- Jordan to Chamberlain, ٢٩. Dec., ١٩٢٥, E٣٦٤/١٨٠/٩١, F.O. ٣٧١/١١٤٣٧
- Spring Rich (F. O.) to Jordan, ١١ March, ١٩٢٦, E١٤٢٦/١٤٢٦/٩١, F.O. ٣٧١/١١٤٤٦.
- Clayton to Chuckburgh (C. O.) ٢١, April, ١٩٢٦, F.O. ٣٧١/١١٤٣٧.
- F. O. to Jordan, ١٥ .May, ١٩٢٦, E٢٩١٧/١٤٢٦/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٤٦.
- Gilbert Clayton, (Report on his) Mission to Negotiate Certain Agreements with the Sultan of Nejd, and Instruction Issued (to him in Regard to his Mission ١٩٢٦), F. O. ٣٧١/١١٤٧٣.

- Jeddah Report, March, ١٩٢٦, E٢٦٢٧/٣٧٦/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.
- Jeddah Report, April, ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.
- Jeddah Report on the Activities of Soviet Delegates to the Moslem Conference Held in Mecca, June ١٩٢٦.
- Jeddah Report, July, ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.
- Jeddah Report, Aug., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.
- Jeddah Report, Sept., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٢.
- Chamberlain to Jordan, ٢٧. Nov., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٤٦.
- Jordan to Chamberlain, Telegram No. ٢٣, ٢٤. Feb., ١٩٢٦, F. O. ٣٧١/١١٤٣١.
- Jordan to Chamberlain, ٩. March ١٩٢٦, E٢٠٦٩/٧/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٣١.

- Jordan to Chamberlain, ١٠. April, ١٩٢٦, E٢٩١٧/٤٢٦/٩١ F.O. ٣٧١/١١٤٤٦.
- Jordan to F.O. ٩. June, ١٩٢٦, E٣٥٢٨/٢٠/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٣٣.
- Jordan Report on the Islamic Conference, ٢٣ June, ١٩٢٦, E٤١٨٦/٢٠,٩١, F.O. ٣٧١/١١٤٣٣.
- Jordan to Chamberlain, ٣ July ١٩٢٦, E٤٣١٩/ ١٤٢٦/ ٩١, F.O, F.O.٣٧١/١١٤٤٦.
- Jordan to Chamberlain, ٣ July, ١٩٢٦, E٤١٨٦/٢٠,٩١, F.O. ٣٧١/١١٤٣٣.
- Lloyd to Chamberlain, ٢٠. Feb., ١٩٢٦, E١٤٢٦/١٤٢٦/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٤٦.

- Lloyd, G. to F.O., ١٩. Nov., ١٩٢٦, E٦٤٢٩/١٤٢٦/٩١, F. O. ٣٧١/١١٤٤٦.
- Hakimoff to Yusuf Yassin. ١٥. April ١٩٢٧.
- Dutch Consular Representative at Jeddah to the Governer General of The Netherlands East Indies , ١٧ June ١٩٢٧, E ٣٧٤٢/٣٢٣/٩١ , F.O.٣٧١/ ١٢٢٤٨.
- Jakins to Chamberlain, ٢٢ Nov. ١٩٢٧, E٥٣٠٩/ ٣٢٣/ ٩١, F.O, F.O.٣٧١/١٢٢٤٨.
- Ibn Saud to Lloyd, ٦. Dec., ١٩٢٧, Clayton Papers, Durham University, Box No. ٤٧٢/٢.
- Jeddah Report, Feb., ١٩٢٧, F. O. ٣٧١/١٢٢٥٠.
- Jeddah Report, May ١٩٢٧, F.O.٣٧١ / ١٢٢٥٠.
- Jeddah Report, June ١٩٢٧, F.O.٣٧١/ ١٢٢٥٠ .

- Jeddah Report, July ١٩٢٧, F.O.٣٧١/ ١٢٢٥٠.
- Jeddah Report, Nov. ١٩٢٧, F.O.٣٧١/ ١٢٢٥٠.
- Mayers to Chamberlain, ١٨. March, ١٩٢٧, E١٦٠٦/٣٢٣/٩١, F.O. ٣٧١/١٢٢٤٨.
- Mayers to Chamberlain, ٢٩. March, ١٩٢٧, E١٧٣٩/٣٢٣/٩١, F. O. ٣٧١/١٢٢٤٨.
- Yusuf Yassin to Hakimoff, ٣ April, ١٩٢٧.
- Lloyd to Chamberlain, ١٤. Jan., ١٩٢٨, E٣٨٤/٨٠/٩١, Clayton Papers, Durham University.
- Lloyd to Chamberlain, ٢٨. Jan., ١٩٢٨, E٦١٢/٣٣٢/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠٠٨. ٤٧٢/٢.

- Bird to Chamberlain, ٩. April, ١٩٢٨, E٢٢٦٣/٣٣٢/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٠٠٨.
- Bird to Chamberlain, ٣٠. April, ١٩٢٨, E٢٢٦٣/٣٣٢/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٠٠٨.
- Bird to Chamberlain, ٢. June, ١٩٢٨, E٣٢٤٧/٣٣٢/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٠١٢.
- Bird to Chamberlain, ١٦. June, ١٩٢٨, E٣٤٩٧/٢٨٠٦/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠١٥.
- E١٣٣٦/١٣٣٦/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠١٢. (١٩٢٨)
- Jeddah Report, January ١٩٢٨, F.O.٣٧١/ ١٣٠١٠.
- Jeddah Report, May, ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.
- Jeddah Report, June, ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.
- Jeddah Report, Sept., ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.

- Jeddah Report, Oct., ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٠١٠.
- Jeddah Report, Dec., ١٩٢٨, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.
- Oliphant (F.O) to C.O., ١٥. Feb., ١٩٢٨, E٦١٢/٣٣٢/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٠٠٨.
- Oliphant to Bird, ٢١. Feb., ١٩٢٨, E٨٥٢/٣٣٢/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠٠٨.
- Ibn Saud to Lord Lloyd, ٢٦. *Gomad Thani* ١٣٤٧ (January ١٩٢٩) E٨٨٦/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.
- Bond to Cairo, ٢٨. June ١٩٢٩, E٣٧٠٧/٢٩٣٥/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٤٠.
- Hoare, R. H. to Chamberlain, ٥. Feb., ١٩٢٩, E٨٨٦/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.
- Bond to High Comm. (Cairo), ١٨. Sept., ١٩٢٩, E٥١٤٦/٢٩٣٥,٩١, F.O. ٣٧١/١٣٧٤٠.

- **Lloyd to Chamberlain, ٢٢. March, ١٩٢٩, E١٦٦٨/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١,**
- **Lloyd to F. O., ٥. June, ١٩٢٩, E٣٠٦١/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.**
- **Lloyd to Henderson, ١٥. June, ١٩٢٩, E٣٢١٤/٢١٣٧/٩١, F.O. ٣٧١/١٣٧٣٥.**
- **Maurice Peterson (First Sec. Cairo) to Bond (Jeddah), ٢٨. May, ١٩٢٩, E٢٩٣٥/٢٩٣٥/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٤٠..**
- **E٨٣١/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١. (١٩٢٩)**
- **E١٠٣٥/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١. (١٩٢٩)**
- **E١٢٢٣/٢٠/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١. (١٩٢٩)**
- **E١٢٤٥/٥٤٣/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١. (١٩٢٩)**
- **E١٦٦٨/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١. (١٩٢٩)**

- E٢٢٢٢/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١. (١٩٢٩)
- E٢٩٥٣/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١. (١٩٢٩)
- Gladwyn Jebb (Under Secretary of State ١٩٢١-٣١, F. O.) Memo on: "Bolshevik Influence in Arabia", ٢٣. May, ١٩٢٩, E٢٦٣١/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.
- I. O. to F. O., ٢٧. Aug., ١٩٢٩, E٤٢٦٢/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣٢.
- Jeddah Report, Feb., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.
- Jeddah Report, June, ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.
- Jeddah Report, July, ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.
- Jeddah Report, Aug., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.
- Jeddah Report, Sept., ١٩٢٩, F. O. ٣٧١/١٣٧٢٨.
- Randel Minute, ٦ May, ١٩٢٩, E٢٢٢٢/٣٨١/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٧٣١.

- Bird to (Saudi) Minister for Foreign Affairs, ١٩. May, ١٩٣٠, E٣٢٤٧/١٠٧٧/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠١٢.
- Bond to F. O., ٢. Jan., ١٩٣٠, E٢٩/٢٩/٩١, F. O. ٣٧١/١٤٤٥٥.
- Bond to F. O., ٦. March., ١٩٣٠, E١٥٤٠/٢٩/٩١, F. O. ٣٧١/١٤٤٥٥.
- Bond to Randel, ٤. May, ١٩٣٠, E٢٥٧٦/٩٥/٩١, F. O. ٣٧١/١٤٤٦١.
- Damluji A. to Bird, ٢٥. May, ١٩٣٠, E٣٢٤٧/١٠٧٧/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠٢١.
- F. O. Minutes, ٢٢. May, ١٩٣٠, E٢٥٧٦/٩٥/٩١, F. O. ٣٧١/١٤٤٦١.
- Jeddah Report, Jan., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠.
- Jeddah Report, Feb., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠.
- Jeddah Report, April, ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠.
- Jeddah Report, May, ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠.

- Jeddah Report, July, & Aug., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٤٤٦٠٠.
- Jeddah Report, Sept., Oct., & Nov., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩.
- Jeddah Report, Sept., Oct., & Nov., ١٩٣٠, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩.
- Lord Lloyd to F. O., ٢٩. Feb., ١٩٣٠, E١٠٧٧/١٠٧٧/٩١, F. O. ٣٧١/١٣٠١٢.
- Hope – Gill to the Marques of Reading, ٩. Sept., ١٩٣١, E٩٩١١/٢٠٦٤/٢٥, F. O. ٣٧١/١٥٢٩٩.
- Jeddah Report, May & June, ١٩٣١, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩.
- Jeddah Report, July & Aug., ١٩٣١, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩.
- Jeddah Report, Sept. & Oct., ١٩٣١, F. O. ٣٧١/١٥٢٨٩.
- Rayan to Henderson, ٦ Jan., ١٩٣١, E٤٠٨/٤٠٨/٢٥, F. O. ٣٧١/١٥٢٩٦.

- Jeddah Report, May & June., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٤.
- Jeddah Report, July & Aug., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٤.
- Jeddah Report, Sept. & Oct., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٤.
- Jeddah Report, Nov. & Dec., ١٩٣٢, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.
- Ovey (Sir E.) to Sir J. Simon, ٦ June, ١٩٣٢, E٢٨٨٦/١٤٩٤/٢٥, F. O. ٣٧١/١٦٠٢٦
- Jeddah Report, Jan., ١٩٣٣, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.
- Jeddah Report, Feb., ١٩٣٣, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.
- Jeddah Report, May, ١٩٣٣, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.
- Jeddah Report, June, ١٩٣٣, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.
- Ryan to Simon, ٢٨ Feb., ١٩٣٣, E١٤٨٨/١٢٢٥/٢٥, F. O. ٣٧١/١٦٨٧٥.
- Ryan to Simon, ١٨ May, ١٩٣٥, Saudi Arabia Annual Report ١٩٣٤, E٣٦٠٧/٣٦٠٧/٢٥, F. O. ٣٧١/١٩٠١٩.

- **Jeddah Report, Jan., ١٩٣٥, F. O. ٣٧١/١٩٠١٤.**
- **Jeddah Report, Feb., ١٩٣٥, F. O. ٣٧١/١٠٠١٤.**
- **Jeddah Reports, may, June, July, & Aug ١٩٣٥, F. O. ٣٧١/١٩٠١٤.**
- **Bullard (Sir R. W.) to Mr. Eden, ٢٨. Feb., ١٩٣٧, Saudi Arabia Annual Report, ١٩٣٦, E١٦٣٧/١٦٣٧/٢٥, F. O. ٣٧١/٢٠٨٤٣.**
- **Bullard (Sir R. W.) to Viscount Halifax, ٢٦. March, ١٩٣٨, Saudi Arabia Annual Report, ١٩٣٧, E٢٣٣٨/٢٣٣٨/٢٥, F. O. ٣٧١/٢١٩٠٨.**

وثائق منشورة

- British and Foreign State Papers, vol.١٢٢ (١٩٢٥)
- British and Foreign State Papers, vols. ١٢٣, ١٢٤, ١٢٥ (١٩٢٦)
- British and Foreign State Papers, vols.١٢٦. ١٢٧ (١٩٢٧)
- British and Foreign State Papers, vols. ١٢٨, ١٢٩ (١٩٢٨)
- British and Foreign State Papers, vols. ١٣٠, ١٣١ (١٩٢٩)
- British and Foreign State Papers, vols. ١٣٢, ١٣٣ (١٩٣٠)
- British and Foreign State Papers, vol. ١٣٥ (١٩٣٢)
- British and Foreign State Papers, vol. ١٣٦ (١٩٣٣)
- British and Foreign State Papers, vol. ١٣٧ (١٩٣٤)
- Chamberlain (Sir A.) to The Imperial Conference on Oct., ٢٠, ١٩٢٦, W١٠٠١٩/١/٥٠,

Documents on British Foreign Policy (D. B. F. P.), ١٩١٩-١٩٣٩, Series IA.

- Clayton to Chamberlain, ٩ June ١٩٢٧, Documents on British Foreign Policy (D. B. F.P.), no. ٥٢١, vol. VI.
- Bird to Chamberlain, ٩. Feb., ١٩٢٩, Documents on British Foreign Policy (D. B. F.P.), Series IA, Vol. IX, No. ٤٣٥.
- Chamberlain to Jakins, ١٧. April, ١٩٢٩, Documents on British Foreign Policy (D. B. F. P.), ١٩١٩-١٩٣٩, Vol. VII, No. ٤٥٦.
- Memo on Foreign Policy of H. M. G. (UNDATED), Documents on British Foreign Policy (D. B. F.P.) ١٩١٩-١٩٣٩, Ser. IA, I. ١٩٦٦
- Documents on British Foreign Policy (D. B. F.P.),, Series. IA, Vol. VII, No. ٣٣٤

- **F. O. Memo, ١٠ April, ١٩٢٦, Documents on British Foreign Policy (D. B. F.P.) ١٩١٩-١٩٣٩, Series IA**
- **American Charge d' Affair (Moscow) to the Secretary of State (Washington) extract from the Izvestiya.**

مؤلفات

- بونداريفسكي، غيرغي: سياستان إزاء العالم العربي، (موسكو، دار التقدم، ١٩٧٥)
- بانيكار، ك. مادهو: آسيا والسيطرة الغربية، (القاهرة ، دار المعارف، ١٩٦٢)
- بطرس غالي: "أبعاد الأيديولوجية الأفرو ـــ آسيوية"، مجلة السياسة الدولية، (أبريل ١٩٦٨)
- جمال محمود حجر: "إنهاء الملك عبد العزيز للامتيازات الأجنبية في الحجاز، ١٩٢٦ -١٩٢٧"، الدارة، العدد الأول، السنة العاشرة، (يونيه ١٩٨٤).
- جمال محمود حجر: المصالح الأمريكية في العراق وغرب الخليج العربي فيما بين الحربين العالميتين، (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٥)،

- جمال محمود حجر: "الآثار السلبية للسياسة الغربية في شمال شبه الجزيرة العربية، قصر الأزرق وحدود نجد الجديدة" مجلة الدارة، العدد الأول، السنة ١١ (١٩٨٥).
- جمال محمود حجر: "تبادل التمثيل الدبلوماسي البريطاني السعودي ١٩٢٩ – ١٩٣٠"، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد ١٢ (١٩٨٩).
- جمال محمود حجر: القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩)
- جمال محمود حجر: "سير أندرسون وأزمة التمثيل الدبلوماسي البريطاني في جدة ١٩٣٠ – ١٩٣١"، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد ١٤ (١٩٩١).
- جمال محمود حجر، "الملك عبد العزيز وسير جلبرت كلايتون .. دراسة في دبلوماسية التفاوض"، (لم ينشر بعد)

- جمال محمود حجر: السعوديون والأزمة المالية ١٩٢٩ – ١٩٣٣ (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣).
- جمال محمود حجر: الريال العربي السعودي في الأزمة المالية العالمية ١٩٢٩- ١٩٣٢، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد صفر (يونية ٢٠١٥)
- حافظ وهبة: خمسون عامًا في جزيرة العرب (القاهرة، مكتبة الحلبي، ١٩٦٠)
- سعيد بكر: الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، دعوة الحق (نوفمبر ١٩٨٣)
- عاصم الدسوقي: "من أرشيف الحركة اليسارية في مصر ١٩١٩-١٩٢٥"، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلدان ٢٨، ٢٩ (١٩٨١ – ١٩٨٢).

- عبد الله الأشـــعل: "العلاقات الدولية في إطار مجلس التعاون لدول الخليج العربيــة"، مجلــة دراســـات الخليج والجزيرة العربيــة، العــدد ٣٧، (ينــاير ١٩٨٤)
- عبد الله نوار: ٧ أيام مع المسلمين في الاتحاد السوفيتي (د. م. دار الصحلفة المصورة، د. ت.)
- فتحي عثمان: "العلاقات العربية الســوفيتية بين المبادئ والمصــالح ١٩٤٥-١٩٧٣"، مجلة السياسة الدولية، العدد ٨١، (يوليو ١٩٨٥)
- كلكجي وبنيفســن: المســلمون في الاتحاد الســوفيتي، تعريب إحســان حقي (بيروت: ١٩٧٧)،
- لينين: تقرير عن السلام (موسكو، دار التقدم، ١٩٧٠)
- محمد حســن العيلة: أواســط آســيا الإســلامية بين الانقضــاض الروســي والحذر البريطاني، (الدوحة: دار الثقافة، ١٩٧٦).

- مصطفى النجار: دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر(القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨)،
- ملف الطليعة: "الاتحاد السوفيتي والعالم الثالث"، مجلة الطليعة، (ديسمبر١٩٧٢)
- ملف الطليعة: "خطوات تأسيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية"، مجلة الطليعة، (ديسمبر١٩٧٢).
- ملف الطليعة: "الاتحاد السوفيتي حليف أساس لحركة التحرر العربية"، مجلة الطليعة، (ديسمبر١٩٧٢).
- ملف الطليعة: "دروس من تجربة الحرب الأهلية وحروب التدخل في الاتحاد السوفيتي"، مجلة الطليعة، (ديسمبر١٩٧٢).

- نظام العبوس: "العلاقات الألمانية السعودية بين أعوام ١٩٣٣ – ١٩٤٥ في ضوء الوثائق الألمانية". في كتاب: دراسات عن تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية، (مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، شعبة دراسات العلوم الاجتماعية، ١٩٨٥)
- نوري عبد البخيت: "الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي في القرن التاسع عشر وبداية العشرين"، الخليج العربي، (مركز دراسات الخليج، جامعة البصرة)
- وحيد رأفت: "الإستراتيجية السوفيتية في الشرق الأوسط"، مجلة السياسة الدولية، (يوليو ١٩٧٤).
- ولتر لاكور: الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط (بيروت، المكتب التجاري، ١٩٥٩)

- Bennigsen, A., "Islam in the Soviet Union", Journal of South Asia and Middle Eastern Studies, Vol. VIII, No. ٤, (Summer ١٩٨٥).
- Darwin, J., Britain, Egypt and The Middle East, Imperial Policy in The Aftermath of War ١٩١٩-١٩٢٢, (London, ١٩٨١).
- Hagar, G. M., Britain, Her Middle East Mandates and Emergence of Saudi-Arabia, ١٩٢٦-١٩٣٢, (Unpublished Ph.D. Thesis, University of Keele, England, ١٩٨١).
- Ibrahim Al – Rashid: Documents of The History OF Saudi Arabia, Vol. ٣, (Salisbury: ١٩٧٦).
- Ismail Ghuznavi, "A Conclusion of Article Written During ١٩٣٢ Pilgrimage Season for Publication in India", In Ryan's Private Papers VI/٨, St. Antony's College, Oxford University.

- Lloyd, G., "British Foreign Policy in Asia and its Relation to India", Journal of British Institute of International Affairs, Vol. IV (١٩٢٥).
- Mejcher, H., "Saudi – Arabia's Relationship with Germany Under King Abd Al-Aziz", مجلة الدارة، العدد٣، السنة ١٢ (١٩٨٦).
- Ponomaryov & others (Ed.): History of Soviet Foreign Policy ١٩١٧ – ١٩٤٥.
- Revue du Monde Musulman, Vol IXIV, ١٩٢٦.
- Temperly, H., "British Secret Diplomacy From Canning to Grey", The Cambridge Historical Journal, No. ٥, Vol. VI, (١٩٣٨)
- Toynbee, A., Survey of International Affairs ١٩٢٥, (London: ١٩٢٧).

- **Wise, E. F., "Russo – British Relations", The Contemporary Review (May ١٩٢٩)**

دوريات

- أم القرى، ٥ يونيه ١٩٢٥
- أم القرى، ٣٠ أبريل ١٩٢٦
- أم القرى، ٢٥ فبراير ١٩٢٧
- أم القرى، ٨ أبريل ١٩٢٧
- مجلة البلاغ، العدد ١٧٠، ١٤ أبريل ١٩٧٥

- Moscow Pravda, No. ١٨٥, ١١. Aug., ١٩٢٨
- The Times, ١ Sept. ١٩٢٧
- The Times, ١٦ Sept. ١٩٢٧
- The Times, ١٥ Oct. ١٩٢٧
- The Times, ٢٥. January ١٩٢٩.

الفهرس